القافلة

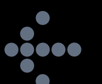
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يوليو - أغسطس 2007



الشركات وأزمة المواهب

سر الأمان في المدن العربية

قصيدة جديدة لعبد الله الصيفان


العدد 4
المجلد 56

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم.
والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتّابها.

صورة الغلاف

الحمار.. الذي قد تفاجئ صورته على الغلاف بعض القرَّاء، هو أكثر من حيوان مستأنس. فبسبب حضوره القديم والمستمر في حياة الإنسان، فقد ترك بصمات واضحة على الثقافة والأدب، وهذا ما يسعى إلى الكشف عنه ملف هذا العدد.

صورة الغلاف: تصوير نسرين الدار

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2007
جمادى الآخرة - رجب 1428



توزع مجاناً للمشتركين
- العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

- الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

ثمة ما يؤرِّق بال سوق العمل أينما كان في العالم، ألا وهو ندرة أصحاب المواهب قياساً مع حجم طلبهم. وهذا ما يفسِّر في جانب منه الرواتب الخيالية التي صارت تُدفع للمبدعين الذين يتجاوزون في أدائهم الوظيفي حدود الرتابة ليبتكروا ويبدعوا حلولاً تستعصي على الكثيرين غيرهم. بهذه المسألة تستهل القافلة رحلتها لهذا العدد.



وفي مناخ القضايا نفسه، يتطرق «قول في مقال» إلى مسألة أخرى، ألا وهي تلوُّن الشخصية بألوان غالباً ما تختلف عن حقيقتها، خلال «الدردشة» عبر شبكة الإنترنت، مع ما يتكشف من ذلك على الصعيدين النفسي والاجتماعي.

2 طاقة واقتصاد

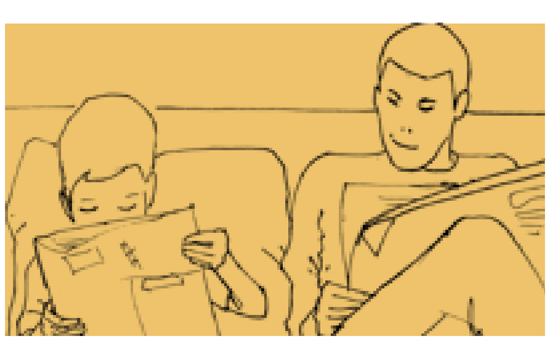
ويتضمن مناخ الطاقة والاقتصاد موضوعين: أولهما، المكانة الحقيقية لمصادر الطاقة التي يزعم البعض أنها بديلة من النفط، وهي في الواقع مجرد جزء من سلَّة سيبقى النفط والغاز عمودها الأساسي.





أما الموضوع الثاني فهو حول: «السوق السوداء».. هذه السوق التي غالباً ما يعتقد المرء أنها عملية بيع وشراء غير رسمية، فيما بات حجمها ومحتواها تحدياً كبيراً للاقتصاد الوطني والعالمي بأسره، ناهيك بمحاذيرها الاجتماعية والأخلاقية





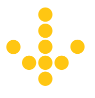
3 علوم وبيئة

ويخصص مناخ العلوم والبيئة صفحاته في هذا العدد لاستطلاع اكتشاف علمي على صعيد المخ البشري، صار يُعرف باسم «الخلايا المرآة»، ولا يتردد عدد من العلماء في مقارنة أهميته بأهمية اكتشاف الخريطة الجينية.

الفاصل المصور



وبعدما استضافت القافلة سابقاً المصورين السعوديين زكي غواص ونسرين الدار كلاً على حدة، تعود اليوم لاستضافتهما زوجين يشترك كل منهما في عدد من الأعمال الفوتوغرافية في ملف مصور واحد ومتكامل.





4 الحياة اليومية

بالوصول إلى الحياة اليومية، قد يُفاجأ القارئ بالموضوع الأساسي، وهو «الأمان الاجتماعي في المدن العربية».
هذا المناخ الإيجابي والجيد الذي نراه تحصيل حاصل، يبقى مهما قيل فيه، أفضل بكثير مما هو في معظم دول العالم المتقدم والنامي على السواء.

وإلى ذلك، يتضمن المناخ نفسه مقالاً حول دور كل من الترفيه والتثقيف في النشاط العام خلال الإجازات، طارحاً علامة استفهام حول سلامة التصور العام لهما على أنهما متناقضان.



5 الثقافة والأدب

وفي المناخ الثقافي مساهمتان أيضاً. الأولى عن فن «الإيماء»، هذا الفن المسرحي المميز جداً عن غيره، وهو اليوم شبه مجهول عند الكثيرين، على الرغم من المكانة التي احتلها قديماً عند العرب واليونان، ولا يزال يحتلها في المسرح الغربي حتى اليوم.

ومن المسرح تنتقل القافلة إلى الأدب، فتقدم قصة قصيرة بعنوان" معطف من فراء الأرانب" للأديب السوري فاضل السباعي، وتلحقها قراءة لكتاب "تاكسي: حواديت المشاوير"، الذي يحاور فيه كاتبه خالد الخميسي سائقي سيارات الأجرة في الشوارع المصرية، ليقدم للقراء رؤية حميمة لحياة الشارع المصري من خلال كلماتهم.



6 ملف العدد

والختام ينتزع الابتسام أولاً، ثم التفكير.. فهو مع الحمار في ملف يؤكد التناقض الكبير بين الإنكار الذي يعامل به الإنسان هذا الحيوان المستأنس وتهميشه من جهة، وحضوره الكبير في الثقافة الإنسانية بدءاً من الأدب الشعبي وصولاً إلى الفلسفة.

الرحلة معاً

تكذيب ادعاءات الناشرين!!

أقول، وحسابي عند الله وليس عند بعض الناشرين العرب، إن نفسكم القصير وجشعكم وغيابكم عن أحكام وشروط سوق الكتاب الحديث هي التي أخرت القارئ العربي وجعلته في آخر الصف إذا ما قورن بالأوروبيين والامريكان والأسبان والأتراك، بل والإغريق اليونانيين الذين عفا الزمن على حضورهم وحضارتهم. هناك، وليكن في ذلك ما فيه من القسوة، تراجع مزمن للناشر العربي الذي لا يزال يعامل المؤلف العربي وكأنه صبي خباز في القرن الثامن عشر، لا يناله من عجنه وخبزه والنار التي تلفحه سوى حافة رغيف الخبز، أما الرغيف ذاته مغمسا بالزبده والعسل فهو في بطن الناشر الذي لايشبع من الانتفاخ والتعسف.

كانت الروائية السورية هيفاء بيطار، كما روت لزاهي وهبي، تحمل الكتب في مراهقتها في صناديق إلى المصيف، لتقضي سحابة الصيف الطويل وهي تتطلع في سماوات الكتب مستمتعة ومتفحصة ومستزيدة من خير جليس في الصيف والشتاء وكل الفصول. ولم تكن تفعل ذلك لوحدها، بل يفعله كل المراهقين الذين يتربون في أحضان المكتبات المنزلية. وكنا أنا وزملائي في المرحلتين الثانوية والجامعية نغزو دور الكتب المصرية كل صيف ومنتهى متعتنا أن نرى صبيان العم مدبولي يتسابقون لمراكمة الكتب التي نشتريها ونحملها على ظهورنا مطاردين سيارات الأجرة في شوارع القاهرة، وكأننا نحمل كنوزا ذهبية أين منها كنوز شهرزاد المزعومة في ألف ليلة وليلة.

كان مثار فخرنا في سنيننا المبكرة، كما هو مثار فخر مجايلينا العرب الشباب من المحيط إلى الخليج، أن نستعرض منجزاتنا في القراءة وأن ندخل في مناقشات ومنافاحات ثقافية نستشهد فيها بقول هذا الكاتب أو ذاك. وكان سر الأسرار في رقي شعورنا الذاتي والاجتماعي والوطني أن نتوسد كتابا مرموقا بعد أن نمضي معه الهزيع الأخير من الليل. أما المجلات الثقافية والسياسية التي كانت تصدر في السبعينيات ومطالع الثمانينيات والتي كنا نتخاطفها في مواعيد صدورها فكانت رغم ثقلها واحترافيتها نصوصا عابرة في حياتنا إذا ما قورنت بأصحاب الفخامة والجلالة والسمو الكتب.



وما دمنا واقعين غصبا تحت مظلة (كان) فلنقرأ ما أورده الدكتور جابر عصفور في ندوة مجلة العربي الأخيرة عن دور المجلات الثقافية في وقت عربي سابق: " لقد كانت المجلات الثقافية آلة هدم العالم القديم والتمهيد لبناء عالم جديد، يخلو من كل سلبيات الماضي المتخلف وعوامل جموده. ولذلك خاضت المجلات الثقافية معركة النهضة. في سياق الصحافة بوجه خاص والثورة الفكرية الثقافية بوجه عام. التي اعتمدت على جهود صنَّاع النهضة الذين جعلوا من مجلاتهم الثقافية وصحفهم، سلاحهم في معارك الحريات السياسية والاعتقادية، وترسيخ حضور الدولة المدنية وتأكيد حتميتها في مسار التقدم، وأشاعوا مبدأ التسامح في الفكر والاعتقاد، وحاربوا الطائفية والنزعات العرقية، فضلا عن أشكال التمييز الراسخة ضد المرأة، ودافعوا عن حق المرأة في التعليم والمشاركة الاجتماعية، وانفتحوا على العالم بكل تياراته، واستبدلوا العلم بالخرافة (.....) ولم ينسوا الوقوف في صف أنواع الإبداع الأدبي والفني الجديدة، فآزروها بما أكد حضورها وجعلها جزءا لا يتجزأ من بناء ثقافة النهضة التي ورثناها عنهم، ونحاول استرجاعها والانطلاق منها إلى ما بعدها، خصوصا في هذه الأعوام التي تتنكر لأعظم ما أنجزته النهضة من منجزات ثقافية. إن عصر النهضة شهد وفرة دالة في إصدار الصحف والمجلات، وذلك على نحو لم يعد له نظير في زمننا الحالي".

الآن أنظروا، مع الدكتور عصفور، إلى سوق المجلات على أرفف البيع. ليس هناك سوى النطيحة والمتردية وما عضه "البزنس" عضا بينا حتى لم يعد يحمل سوى رسائل الغرائز وموبقات الفيديو كليب وتفاهات الحياة الشخصية للفنانين والفنانات وأهل كرة القدم، الذين تحولوا من أدوات للتسلية إلى قدوات يعتد بتقليدهم والسير على خطى ملابسهم وقصات رؤوسهم وتعاطف أنوفهم مع الجماهير والمريدين. وإذا أردتم مثالا من المملكة يمكن أن يقاس عليه عربيا، فإن لدينا مائة وعشرين صفحة رياضية يومية، فيما لا تكاد الصفحات الثقافية تبلغ خمس عشرة صفحة، في مجملها إخبارية لا تتمتع بالعمق المشروط للطرح الثقافي. وقد أدلى رئيس تحرير صحيفة مرموقة ذات يوم بأنه يعتبر الصفحة الثقافية مضيعة للوقت والمساحة. ولذلك كان يتنازل بضمير مرتاح عن نصف الصفحة الثقافية اليومية لحساب الإعلان التجاري، في الوقت الذي يصيبه كثير من التردد إذا حل إعلان في الملاحق الفنية والرياضية.

وإذا كان ذلك حدث للمجلات، بالمقارنة ما بين وقت عربي وآخر، فإن ما حدث للكتاب أشد وأنكى، فالناشر الشاطر (المتكسب) أصبح أقدر على تمييز السلع القابلة للبيع والجماهيرية، فصارت كتب الطبخ والنفخ والشواء وما لف لفها هي الواجهة في أرفف البيع، حيث لم يعد من الناشرين، إلا من رحم الله، معنيا بالكتاب المتمتع بالقيمة الفكرية والثقافية المُعمّقة والمؤثرة. وتمادى هذا الناشر الرخيص في بياناته الصحافية فأعلن في كل محفل أن القارئ العربي متأخر إذا ما قورن بغيره. وهو قارئ لا يحتمل الأفكار والمطولات، بل يطلب ما طاب سلقه وخف هضمه. وبينما هو سادر في غيه وبياناته لم يقل لنا من المتسبب في هذا التأخر؟ وهل يتحمل هو كناشر جزءا من المسؤولية أم أنه يتنصل من هذه المسؤولية تحت طائلة اتهام جمهور القراء بالبحث عن العادي والتافه من المؤلفات؟!. ثم أليس هناك طفيليون كثر دخلوا على خط هذه المهنة العظيمة فأساءوا إليها بالادعاءات وأنواع النشر المتردي؟

أحسب أن قراءة إبني وابنك الصغيرين لما يتجاوز سبعمائة صفحة من هاري بوتر، ومراهقات هيفاء بيطار وصويحباتها مع صناديق الكتب، وقراءة السعوديين للروايات الجديدة الأخيرة. أحسب أن كل هذا وغيره يُكذب إدعاءات الناشرين عن تأخر القارئ العربي. وما يفترض أن نعترف به، أو نناقشه على الأقل، هو أن صناعة الكتاب العربي متخلفة بسبب بعض صناعها من الطفيليين والجشعين، الذين يزرون القارئ وزرهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

ملف البستان

اطلعت بكل سعادة على ملف «البستان» المميز في القافلة الأخيرة... ولأنني كنت طرفاً في هذا الملف، وبقراءة افتتاحية رئيس التحرير، اتضح لي مدى المجهود الذي يبذله فريق التحرير في إصدار المجلة في أبهى حلة.. شكراً لكم وإلى مزيد من التفوق والإبداع.

عماد بو خمسين

الدمام

التصويت للأفضل

عندي اقتراح أريد طرحه على مجلتنا الحبيبة القافلة.. اقتراح أظنه يزيد من روعتها وإقبال القرَّاء عليها، ففي رأيي لو تضيفون إلى المجلة زاوية خاصة بالتصويت على أفضل الموضوعات والمقالات المنشورة خلال كل عام (أي كل ستة أعداد فيها) لأجل معرفة أفضل إنتاج في كل عدد، فإن هذا يشحذ الروح المعنوية للمساهمين، ويدفعهم إلى تكرار محاولاتهم وتطويرها. هذا ظني، والقرار يعود إليكم أولاً وأخيراً.

السفير أمير السيد أحمد ذكي

الإسكندرية - مصر

القافلة: شكراً لكم على هذا الاقتراح، ولكننا نرى أن رسائل القرَّاء هي شكل آخر من التصويت يسمح لهم بإبداء انطباعهم وآرائهم بشيء من التفصيل.

التغير المناخي

قرأت باهتمام في عدد القافلة شهري مايو ويونيو جملة مواضيع مهمة، غير أني أريد أن أتوقف أمام واحد منها هو «الحقيقة لا تلائم من؟» الذي يعرض لكتاب نائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور.

وأعتقد أن القافلة تناولت سابقاً هذا الموضوع إن لم أكن مخطئاً. فأهمية هذا الموضوع كما تتناوله القافلة تنبع من الدقة العلمية لهذه المسألة الخطيرة، في حين أن منابر إعلامية تفاجئنا بالخفة التي تتناول بها الموضوع نفسه.

وأذكر لكم على سبيل المثال أحد «خبراء» البيئة الذي أطل علينا من على شاشة إحدى الفضائيات ليقطع ببساطة أن الاحتباس الحراري يعني بكل بساطة «ارتفاع حرارة الأرض وازدياد الجفاف»، في حين أننا صرنا نعرف من مصادر عديدة، ومن ضمنها القافلة، أن الحقيقة هي أعقد من هذا التبسيط. وأن الاحتباس الحراري يمكنه أن يولد عواصف وأعاصير وحتى عصراً جليدياً جديداً.

فتهنئة من القلب على الجدية التي تتعامل بها القافلة مع مواضيعها.

طارق باسيل

دبي

فضلها علي

اطَّلعت مؤخراً على القافلة، التي كنت أعرفها منذ أكثر من ثلاثين سنة، عندما كنت على مقاعد الدراسة، وكان جدي، رحمه الله، يحملها إليَّ كل شهر، فأبحر في موضوعاتها، ولا أنكر فضلها بعد الله عليَّ، في تقوية مادتي الإملاء والتعبير عندي حينذاك.

واليوم، تغير كل شيء فيها. فعادت لتبهرني بجمالها ورونقها وتنوع مواضيعها العلمية والثقافية وأسلوب إخراجها، فعدت لأغوص في مضمون مواضيعها الممتعة والمفيدة. وهذا ما يدفعني إلى أن أتوجه بالشكر إلى كل الكتَّاب الذين يسهمون فيها، وإدارة التحرير والعاملين في القافلة من مسؤولين وموظفين.

حسن عبدالله محمد العجاج

صفوى

أعجبني ولم يعجبني

سنحت لي الفرصة أخيراً لقراءة مجلة القافلة بعد حصولي عليها من بعض الأصدقاء. وأمامي الآن العدد الخاص بشهري مارس وأبريل. وقد لفت انتباهي موضوع «التعليم الإلكتروني مكمِّل لا بديل». في الحقيقة هذا الموضوع طُرح من قبل وبالطريقة نفسها في إحدى المجلات.. أما موضوع «أثقال المعرفة المعاصرة» فهو موضوع تناولته المجلات والصحف كثيراً، وموضوع الشاحنة جاء ثقيلاً وطويلاً وبعث في القرَّاء الشعور بالملل.

المقالات التي جذبتني بشدة هي «رحلة الدواء داخل الجسم»، «تحولات المطبخ وآنيته»، «التسويق العصبي»، وهناك أيضاً زاد العلوم وقصة ابتكار.

أتمنى ألا أكون قارئة ثقيلة عليكم، أردت فقط أن أنقل إليكم بعض تعليقاتي، وما دفعني إلى مراسلتكم هو أن من الواضح

جداً أن فريق تحرير المجلة يبذل الجهد الكبير لإعداد مجلة ثقافية جيدة على مستوى رفيع. وأعتقد أنكم تولون هذه التعليقات بعض الاهتمام.

سارة عبدالفتاح الزغبي
دمشق، سوريا

الحملات المرورية

تعقيباً على موضوع «لماذا تفشل حملات التوعية المرورية؟» الذي نشرته القافلة في عددها الأخير، غاب عنكم أن تشيروا إلى الدور الذي تلعبه العقوبات على المخالفات.
فعندما تم تشديد العقوبات أخيراً في المملكة على الذين يتجاوزون سرعة 120 كيلومتراً في الساعة على الطرق السريعة، بحيث صارت تقضي بسجن المتجاوز، لاحظ الجميع أن نسبة التقيد بالسرعة القصوى زادت زيادة ملحوظة ولم تعد هناك مخالفات تستحق الذكر، إلا في الحالات التي يكون فيها السائق موقناً أنه بعيد عن أعين الشرطة والرادار.
ما أريد أن أقوله هو أن العقوبات على مخالفات السير يجب أن تكون أكبر بكثير مما عليه الآن، ويجب أن تصل إلى مصادرة السيارة نهائياً، والسجن لمدة طويلة.. قد يبدو ذلك قاسياً بعض الشيء، ولكن وقف المجازر التي تقع على طرقنا السريعة يسوِّغ كل قسوة. كما أن تطبيق العقوبات القاسية بضع مرات فقط سيكون كافياً لردع المغامرين، وجعلهم يفكرون مرتين.

جواد أحمد الخليفه
الدمام

لا تحزن

كـل الـشَّـدائـد والكروب
إذا صـبـرت لـهـا أمدْ
فـلـقـد يـسـود منافق
فـيـنـال مـنَّـا مـا قصدْ
قـد تـحـجـب السُّـحـب الضياء
ويـقـتـل الـنَّـاس الحسد
قـد يـزرع الـوغـد الأذى
لـكـن سـيـلـقـى مـا حصد
قـد يـهـجـم الـلِّـص الحقير
على الـبـريء إذا رقد
قـد يـعـتـلـي ظـهـر الجياد
رديء عـزم مـا رشد
قـد يُـكْـرَمُ الـغـرُّ اللَّئيـ
ـم إذا تـطـاول واستبد
قـد يـكـثـر الـمـالُ النَّفيـ
ـس لـدى الـبـخـيـل فـلا يعد
قـد يـسـكـت الأسـد الهصور
إذا رأى أمـراً فَسَدْ
وتـرى الـغـبـيَّ مُسَوَّداً
وتـرى الأمـيـن بـلا سند
لـكـن سـتـبـدو للأنام
حـقـيـقـةُ الـخـصـم الألد
وسـيـحـمـد الـقـوم السرا
ويـنـال أجـراً مـن سجد
ويـقـال لـلـبـاغـيـن بُعْـ
ـداً هـل يـراكـم مـن أحد
وعـد الإلـه حقيقة
وإذا قـضـاه فـلا يرد
فـاصـبـر رجـاءَ للثواب
وثـق بـخـالـقـك الأحد

عبدالعزيز بن صالح العسكر
الدلم

المشتركون الجدد

العقيد علي بن عبدالله الشهري، مدير شرطة محافظة المجاردة - محمد علي صالح المانعي، القصيم - ناصر إبراهيم الخريف، الخرج - رباب محمد البحراني وحسن محمد البحراني وصلاح الحبرتي، الأحساء - الحافظ فايز، سريلانكا - العمير عمير بن ناصر، الرياض - فريد علي بوسنة وعبدالمنعم صالح القضي ومحمد حبيب الموسى وسلمان علي السلامين وعبدالرؤوف الصقر، الأحساء - عبد الرحيمي فايزة، ادرار، الجزائر - ڤلاليز يحيى بن المنور، الجزائر - محمد بن محمد ضيف الله مشيخي، الرياض - صلاح محمد السعدي، الخبر - محمد هادي العسيري، جدة - أحمد بن محمد العقيلي، جازان - علي محمد علي العليوي، الظهران - عمر بن عبدالله الصاعدي، المدينة المنورة - صالح محمد إبراهيم المفدى، الرياض - حمد بن عبدالله الركيان، الرياض - ولاء عقيل عبدالعزيز البكري، البحرين - تاج علي المكي، الأحساء - زين بن محمد بن عبدالله العصيمي، الزلفي - عبدالله إبراهيم السيد إبراهيم، السودان - سلطان محمد الحارثي، الطائف - نادر عبدالرحمن الغايدي، المدينة المنورة - حسين عبدالله الهاشم، الأحساء - علي أحمد البراهيم، الأحساء - سلطان الحازمي، المدينة المنورة - عيسى صالح البديوي، الأحساء - مسلم علي المزيني، القصيم - عبدالعزيز ناصر الفهيد، الرياض - إبراهيم بن سعيد المقرن، الرياض - إبراهيم بن سلطان الرولي، الرياض - موسى بن خزام بن سعيد الهنائي، سلطنة عُمان - ناصر حسين المشرف، الأحساء.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء



نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



حول

متى وأين ظهر أول مقهى؟

طالعت في القافلة العدد 1 المجلد 56 يناير فبراير 2007م مقال «المقهى المعاصر في المدينة العربية» بباب الحياة اليومية، ولما كان لي اهتمام بالموضوع أحب أن أضيف:

بداية القول أن كلمة مقهى هي الصواب اللغوي، والجمع مقاهٍ إشارة إلى بيوت القهوة التي غدت تسمى باسم -القهوة- دلالة على المحل الذي تشرب فيه القهوة. لأن الكلمة عامية وإن كان البعض يرى أنها فصيحة للمكان، ولا غبار عليها من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه.

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فيجب ونحن في معرض الحديث عن القهوة أن نذكر أصل الكلمة لغوياً. فلقد جاء في القواميس والمعاجم العربية، أن القهوة سميت بهذا الاسم لأنها تُقهي شاربها عن الطعام. أي تقلّل شهيته للطعام. وقبل اكتشاف البُن -شراب البُن- كان العرب قديماً يطلقون على الخمرة اسم -القهوة- لأنها تقهي شاربها عن الطعام. وبما أن شراب البُن يقهي أيضاً شاربه عن الطعام لذلك أطلق العرب عليه اسم القهوة. وقد قال المتنخل الهذلي:

أقـــول لـمـا أتـانـي ثـم مصرعهُ
لا يبعد الرمحُ ذو النصلين والرَجلُ
الـتـارك الـقـرن مـصـفـرا أناملهُ
كأنه من عُقارٍ (قـــهـوة) ثَملُ

ويقول العلامة الفخر أبو بكر بن أبي يزيد في كتابه، النخوة في حل القهوة، في اشتقاق اسم القهوة ما نصه: «إن القهوة من الإقهاء وهو الاحتواء أي الكراهة أو من الإقهاء بمعني الإقعاد. من أقهَى الرجل عن الشيء أي قعد عنه. ومنه سميت الخمرة -قهوة- لأنها تقهي أي تكره الطعام وتقعد عنه. حسبما نقل عمن يعرف أحوالها».

ومن طريف ما روي في هذا الخصوص أن بعض الفقهاء الذين أحبوا هذا المشروب قالوا «إن منقوع البن هو القِهوة -بكسر القاف- وليس القَهوة -المفتوحة القاف- التي هي الخمرة!!». أما البُن -بضم الباء- فقد جاء في تاج العروس أن البُن -بضم الباء- كلمة مولدة استعملها أصحاب العقاقير وقد وردت في كلام داود الحكيم قال: هو ثمر شجر باليمن يغرس حبه في آذار وينمو ويقطف في آب.

متى ظهرت القهوة

يحدِّثنا التاريخ الذي عني بهذا الحب وشرابه بأن الأحباش كانوا يأكلون حب البُن نيئاً غير مطبوخ فيما لم يكن أهل عدن واليمن يعرفون غير منقوع الكفتة أي منقوع ورق القات. ولقد تطور الأمر عند الأحباش فباتوا يشربون منقوع حب البُن وقشره دون أن يصل ذلك إلى أهل عدن واليمن. وظل الأمر كذلك حتى أواسط القرن التاسع للهجرة، إذ ظهر شرب المنقوع وشاع في اليمن، أشاعه الشيخ الإمام جمال الدين أبي عبدالله بن سعيد الذبحاني، المتوفى سنة 875هـ. أما كيف حدث ذلك فيرويه الشيخ محمد بن عبدالقادر الجزيري الحنبلي في كتابه «عمدة الصفوة في حل القهوة»، حيث يقول: «إنه لما تولى وظيفة تصحيح الفتاوى في عدن، عرض له أمر اقتضى خروجه من عدن إلى بر عجم (بر إفريقية)، فأقام به مدة فوجد أهله يستعملون القهوة ولم يعلم بخاصيتها. ثم عرض له لما رجع إلى عدن مرض فذكرها فشربها فنفعته، فوجد فيها من الخواص أنها تُذهب النعاس والكسل وتورث البدن خفة ونشاطاً». فلما سلك الشيخ الذبحاني طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية يستعينون بشربها على السهر ثم تتابع الناس والفقهاء هناك على شربها.

متى ظهر المقهى؟

لما شاع شرب منقوع البُن، أي القهوة، وولع الناس بها ولعاً كبيراً زاد طلبها وأصبحت الحاجة ملحة لوجود مكان يخصص لها لكي يستطيع عامة الناس شربها فيه ولذلك رأى بعض الأفراد إشباع هذه الحاجة بفتح محل خاص بإعدادها وبيعها للناس شراباً منعشاً، فكانت هذه المحال التي أطلقوا عليها اسم «بيوت القهوة». وهكذا، بتوالي الأيام أخذ عدد هذه البيوت يزيد، واتجه الناس إليها، لا سيما في القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة اتجاهاً عاماً.

أما متى ظهر أول مقهى في العالم، فهذا ما يذكره لنا الفقيه اليمني عبدالقادر ابن محمد الأنصاري الحنبلي، صاحب كتاب «عمدة الصفوة في حل القهوة» حيث يقول: «إن أول ظهور لبيوت القهوة كان بمصر في حارة الجامع الأزهر بالقاهرة، في العشر الأوائل من القرن العاشر الهجري وكانت تشرب في الجامع نفسه برواق اليمن كل ليلة إثنين وجمعة، يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر. ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن». ويقول في موضع آخر من كتابه: «.. إن الأخبار قد وردت علينا بمصر بأنه أقيم في مكة الشريفة في سنة خمس عشرة وتسعمائة للهجرة بيت للقهوة، ثم انتشرت هناك انتشاراً كبيراً. ثم حدث عليها الإنكار بمكة الشريفة في سنة سبع عشرة وتسعمائة، فأصدر الأمير فايربك بإغراء من الشيخ شمس الدين الخطيب في مكة المكرمة أمراً بإبطالها ومنع الناس من شربها. ثم جاء قرار من السلطان بالقاهرة بإباحتها مرة أخرى».

ومن مكة المكرمة في الجزيرة العربية انتشرت المقاهي حتى وصلت دمشق وسائر المناطق العربية والإسلامية. وتشير دائرة المعارف الإسلامية إلى

أن انتشار القهوة في استانبول كان في عهد السلطان سليمان، وأن أول مقهى أسس في استانبول كان لرجلين أحدهما حلبي والثاني دمشقي، وذلك في سنة 962هـ. وقد كان يجتمع في هذا المقهى الأعيان والأدباء لشرب القهوة حتى دعي هذا المكان باسم «مدرسة العلماء».

ونقل الأتراك القهوة عن العرب وأشاعوها في أوروبا بعد ما سموها بلكنتهم «كاهفا». وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وصول القهوة إلى أوروبا، ولكن الراجح أنها وصلت إلى هولندا عام 1600م ومنها انتشرت إلى أوروبا فافتتح أول مقهى في لندن سنة 1652م.

ومن لندن انتقلت القهوة إلى أمريكا سنة 1689م فافتتح أول مقهى في ولاية بوسطن بأمريكا سنة 1696م. وقد ظلت اليمن المصدر الوحيد للبُن حتى القرن السابع عشر الميلادي فبدأت زراعته في سرنديب (سريلانكا) سنة 1658م وفي جاوة وغيرها من الأرخبيل الإندونيسي سنة 1696م، وفي جزر المارتنيك سنة 1723م، وفي البرازيل سنة 1727م. وقد لاقت القهوة على مر الأيام رواجاً واسعاً فأصبحت من السلع التجارية المهمة. وبات اسمها يعرف بـ coffee أو cafe وهو اسمها العربي طبعاً.

مقاهي القاهرة

من جهة أخرى، يذكر الكاتب محمد خير أن القاهرة تعج بأكثر من 12 ألف مقهى بخلاف الزوايا الصغيرة، ومنصات الشاي المتحركة التي تخدم عمال التراحيل والبناء فهذه يصعب حصرها. وهذا الرقم قليل جداً بالنسبة إلى عدد المقاهي في القاهرة..

وكان علماء الحملة الفرنسية عام 1789م قد ذكروا في كتابهم «وصف مصر» أن «مدينة القاهرة تضم حوالي 1200 مقهى بخلاف مقاهي مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة 50 مقهى، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة. وليست لهذه المباني أي علاقة بالمباني التي تحمل الاسم نفسه في فرنسا إلا من حيث استهلاك البُن، على الرغم من أن هذا المشروب يُعد ويشرب بطريقة مختلفة. وتخضع مقاهي القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشتري لنفسه حق التزامها، وتدفع له كل المقاهي رسماً صغيراً من بداية السنة التركية (الهجرية - أول المحرم)، ويبلغ هذا الرسم 10-40 مديني وتعفى من دفعه المقاهي الفقيرة. ويستطيع كل من يريد أن يبني مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيه قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة، إذ هو على نحو ما مكلف عادة الإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت، كما أنه ملزم تقديم مرتكبي المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة. وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى آغا الإنكشارية (الكخيا المتولي) الذي يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة».

صلاح عبدالستار الشهاوي

طنطا - مصر

في موضوع «المقهى المعاصر في المدينة العربية»، القافلة عدد يناير-فبراير 2007

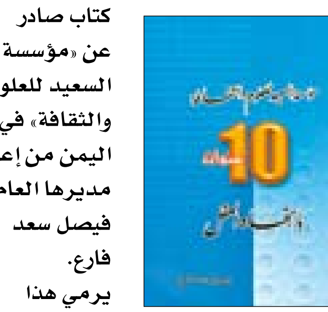
وردنا

• «رحلة مرتضى بن علوان»



الطبعة الثانية من الكتاب الذي حققه الدكتور سعيد بن عمر آل عمر، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الملك فيصل. أهمية هذا الكتاب الصادر عن مكتبة المتنبي في فترته التاريخية التي شحَّت فيها المصادر الموثقة المبنية على المشاهد الحية للبلدان. فالكاتب الرحَّالة مرتضى بن علوان دوَّن مشاهداته في رحلته خطوة خطوة، منذ أن غادر دمشق في يناير 1709م حتى وصوله إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج مروراً بالمدينة المنورة. وقد نقل إلينا صورة نابضة بالحياة عن الأوضاع العامة في البقاع المقدسة، ومن ثم في كل المناطق التي زارها وصولاً إلى العراق مروراً بنجد والأحساء والكويت، حتى عودته إلى دمشق التي بلغها في سبتمبر من العام نفسه.

• «10 سنوات باتجاه العقل»



كتاب صادر عن «مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة» في اليمن من إعداد مديرها العام فيصل سعد فارع. يرمي هذا الكتاب الواقع في 263 صفحة إلى أن يقدِّم استعراضاً توثيقياً وتحليلياً مكثفاً للأدوار العلمية والثقافية التي تنهض بها مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ومن خلال هذا الهدف، تؤرخ هذه الدراسة لجزء بارز مما اعتمل في المشهد العلمي والثقافي اليمني خلال العقد الأخير من القرن العشرين والنصف الأول من العقد الأول في القرن الواحد والعشرين.

• «النصف الآخر للحب»



كتاب من 208 صفحات من القطع الكبير، يتناول فيه مؤلفه الدكتور محمد أبو بكر حميد جوانب مختلفة وعديدة من الحياة الزوجية من زوايا اجتماعية وأخلاقية وسلوكية، منذ ما قبل اختيار الشريك، إلى ما بعد إنجاب الأولاد وتربيتهم.

ومن موضوعات الكتاب الصادر عن دار طويق للنشر والتوزيع: المرأة والحقوق المجهولة، مشكلة الاختيار وحق الخلع، كرامة الزوجة، البساطة جمال والتكلف وبال، لكيلا تتحول الحياة الزوجية إلى جحيم، الخصام بين الزوجين، هذا الطريق يؤدي إلى الطلاق، ... وغير ذلك الكثير.



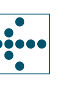
حاجة السوق المعاصر للمواهب

فرض تطور الاقتصاد العالمي عموماً وقطاع الصناعة التكنولوجية خصوصاً، جملة معطيات جديدة لا تزال تتكشف تباعاً، وكان آخرها المكانة الكبيرة التي باتت تُعطى لأصحاب المواهب والكفاءات المميَّزة من بين الموارد البشرية.

والواقع أن مكانة الكفاءات كانت دوماً تحظى باعتراف الجميع. ولكن الحاصل الآن هو تبدل دور الكفاءة الكبيرة وشراهة الشركات في الاستحواذ عليها. ولأن المعروض من هذه الكفاءات أقل من المطلوب، بات هناك ما يشبه «حرب الأدمغة» بين الشركات، حرب من أهم أسلحتها المكافآت الضخمة، ومن أبرز خسائرها الولاء الوظيفي والأمان، كما تبيِّن الباحثة هدى بتروبولس* في هذه القراءة التحليلية لتهافت اقتصاد بلاد العالم على الكفاءات.



GettyImages



«نقص الكفاءات يلوح غمامة سوداء»، تُظهر هذه العبارة، وهي من حديث لمتخصصين في الموارد البشرية، قلقاً متزايداً اليوم تجاه ندرة الكفاءات وتخوفاً من تفاقم المشكلة في المستقبل.

وتبدو صناعات التكنولوجيا المتطورة الأكثر تأثراً بها، وبعضها يضطر لتلبية الطلب إلى زيادة ساعات العمل، ورعاية مواهب جديدة، والبحث عن عمالة من الخارج، وحتى نقل بعض عمليات الإنتاج إلى الخارج، وإعادة موظفين من التقاعد. وتعاني البلدان النامية هذه المشكلة بشكل مضاعف نتيجة الواقع التعليمي الضعيف. إنها «كعب أخيل» الشركات التكنولوجية التي تنمو بسرعة في البلدان الناهضة كالهند، وهي إعاقة مهمة للبلدان التي تطمح إلى تطوير صناعات جديدة. كما أن الشركات العالمية باتت تراها مشكلة أمام توسيع أعمالها في تلك البلدان.

وليس صدفة أن يأتي حديث الساعة، في السياسات الوطنية وفي مؤتمرات الأعمال كاجتماعات دافوس، مركزاً على موضوع التعليم، ولكن ليس فقط التعليم. فمكامن الخلل، حسبما يراها المحللون، متنوِّعة. ومن مظاهرها، إلى جانب عدم مواكبة التعليم والتدريب للتحوّلات التي باتت تزيد من اعتماد الاقتصاد على المعرفة، هناك تبدل المعايير في سوق العمل التي تعيد من جديد النظر في مسؤوليات الشركات والأفراد، والهوة الاجتماعية والاقتصادية التي خلَّفها تطور سريع في محيط غير منضبط.

إن الاندفاعة التي عرفتها مرونة سوق العمل في اقتصاد الدول المتقدمة خلال العقود الماضية، والتي أسهمت في تقليص التكلفة والاستغناء عن عدد مهم من الوظائف، تظهر اليوم عقبة أمام القطاعات التي تنمو وتبحث عن مواهب قديمة وجديدة مع ليونة انتقال هذه الكفاءات من موقع عمل إلى آخر. وتجد الشركات نفسها ضمن «حرب أدمغة» في موقع المنافسة على اصطياد المواهب، وتواجه معضلة أكبر وهي كيفية الحفاظ عليها.

في طلب الكفاءات والمهارات والمواهب

تعطي الأفكار الاقتصادية الرائجة اليوم انطباعاً متفائلاً بأن المجتمعات تسير في اتجاه يزيد مكانة المعرفة في بنيان التطور والنمو. يشار مثلاً إلى أن المنتج الاقتصادي في الدول المتطورة يميل إلى أن يكون معرفياً أكثر مما هو مادي، وأن الوظائف الأعقد والتي تحتاج إلى عمل خلاَّق وقدرة على حل المشكلات تزداد نسبة نموها مقارنة بالوظائف الأخرى، وأن ميولاً كهذه ستشهدها أيضاً الدول الأخرى.

لا تحظى هذه النظرة المتفائلة بموافقة جميع المتفحصين. فبعضهم لا يزال يرى أن الثورة الرقمية رغم تأثيراتها الواسعة والمهمة، حيث أحلَّت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات موقعاً دينامياً في الاقتصاد وفي التراكم، لم تحمل معها أثراً شاملاً خاصة على القطاعات المنتجة، والمتأثر بها هي قطاعات التجارة والخدمات وبشكل رئيس القطاع المالي.

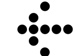
ورغم ذلك، فإن صياغة مؤشرات لما يحمله هذا التحول من مدلولات قد تتطلب أن يجاري المرء النظرة الأكثر تفاؤلاً، لكن بطريقة تستدعي التدقيق بها.

تقول هذه النظرة «إن المهام الروتينية ستكون من عمل الحاسوب الإلكتروني وسيتوجه الإنسان إلى الأعمال الخلاَّقة وتلك التي تتضمن مشكلات تحتاج إلى حلول». تحوي هذه الأطروحة في الواقع نصف الكلام. فدخول الثورة الرقمية إلى الأعمال، بالإضافة إلى تقليصها للعمالة بشكل عام، أثَّرت، من دون شك، في زيادة نسبة تلك الأعمال الخلاَّقة، لكن نسبة مهمة أيضاً من الأعمال ظلت رتيبة، وربما أكثر رتابة من السابق لكنها مهذبة بإضافة بعض المهارات. فما أصبح ممكناً هو نقل هذه الوظائف غير المتطلبة بسبب معاييرها المنسجمة من البلدان المتطورة إلى أماكن أخرى حيث اليد العاملة أرخص.

بكلام آخر، إن زيادة نسبة الوظائف المعتمدة على المعرفة جرت جنباً إلى جنب مع توسُّع الهوَّة بين الوظائف بشكل عام على قاعدة هذه المعرفة.

ومن نتائج الثورة الرقمية أنها أدخلت الوظائف إلى عالم جديد من المهارات. وقد يصح وصف هذا التحوّل بالبنيوي، إذ يشير المحللون إلى أن المهارات المطلوبة اليوم أصبحت «خليطاً من المهارات المتحوِّلة بشكل مستمر». أي أنه لم يعد يكفي أن يعرف المرء المهارات المتخصصة والمتعلِّقة بوظيفته، فمتطلبات الوظيفة أصبحت تستدعي مهارات إضافية وأحياناً متنوعة، وازدادت قيمة مهارات الاتصال، بينما برزت المهارات الأساسية في حد الوظيفة الأدنى،

وطُرحت الحاجة إلى التحوُّل المستمر في إطار المواكبة الدائمة للتطورات التي تحصل بسرعة. فقد أصبح العمال التقليديون في الصناعات، أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى تدريب متخصص لتشغيل الروبوتات في خطوط الإنتاج التي تعمل على الكمبيوتر. والعمال التقنيون يحتاجون إلى قراءة كتيبات إرشاد بكاملها. والعلماء يحتاجون إلى مهارات محاسب، والمهندسون إلى برامج حاسوبية. وعملياً يُطلب من جميع الموظفين الإداريين بعض المهارات الحسابية لحفظ السجلات وتطبيق عمليات إحصائية وغير ذلك من الأمور.

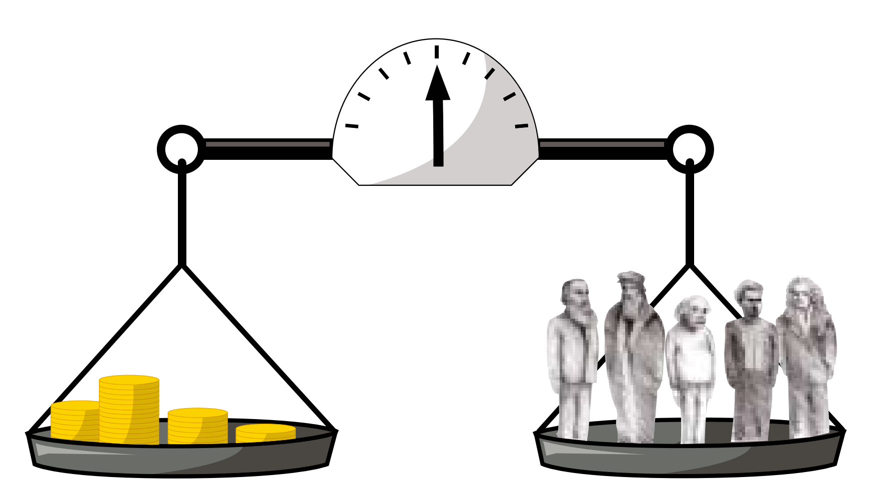


تعطي الأفكار الاقتصاديه الرائجه اليوم انطباعاً متفائلاً بأن المجتمعات تسير في اتجاه يزيد من مكانة المعرفة في بنيان التطور والنمو

وحصيلة الأمر، أن المهارات أصبحت تأخذ حيِّزاً كبيراً من الوظيفة، بينما الألقاب المهنية المرتبطة بمهام ثابتة تميل مع الوقت إلى أن تكون أضعف.

ومن خصائص المواكبة أن التعليم والتدريب المستمرين أصبحا جزءاً أساسياً من الوظيفة، لا سيما الوظائف التي تتطلب درجة من الكفاءة. ويلقي هذا المعطى مسؤوليات أكبر على عاتق الشركات، وربما أكثر من ذلك على عاتق الأفراد العاملين. وتدل عيّنة من مواصفات الوظيفة، كما يراها متخصصون في شؤون العمل، على طبيعة هذه المسؤولية بالنسبة إلى الأفراد. وهي تقول إن العاملين بحاجة إلى أن يدركوا أنهم «المسؤولون عن تطورهم المهني»، وأن عليهم أن يضعوا في اعتباراتهم «التعلم الدائم المستمر»، ويحتاجون إلى «التحقق النشيط بأنفسهم بالاختيارات المتوافرة لهم»، وينتظر منهم أن يجدوا «ما يعنيه تأثير التكنولوجيا في مهامهم وأن يفعلوا شيئاً بخصوصه»، و«ألاَّ ينتظروا من صاحب العمل أن يهيئهم لمهام متغيّرة» وربما سيكون عليهم أن «يرفعوا من شأن قدراتهم على حسابهم الشخصي خارج العمل»، حسبما جاء على لسان إلاين أو. رايلي من المؤسسة الكندية لتطوير المهن.

تعبِّر هـذه المتغيِّـرات عن استقـلال العامليـن المتزايد علـى قاعدة المعرفة التـي يملكونها. وهي تخاطب مرحلة شهدت فيها سوق العمل مزيـداً من المرونة وعدم الأمان الوظيفي. إلا أنها استقلالية باتت تقابلها أيضاً مسؤوليات متزايدة للأعمـال في سعيها لجذب الكفـاءات والحفاظ عليها.



ومن مفارقـات هذا التطوّر، أن طلـب العمالة غير الماهرة لم يتراجع بشكل فعلـي، لا بل تقدَّم في عدد من المجالات. ومن مظاهره البارزة تضخم ظاهرة العمالة المهاجرة غير الشرعيـة في أسواق البلدان المتطـورة التي لا تزال تطلبها الصناعات والزراعة وعـدد كبير من الخدمات المتزايدة، مثـل المطاعم والخدمـة المنزلية وغيرهـا، التي يحتاجها مجتمع يكرِّس أفراده وقتاً متزايداً للعمل.

المنافسة إلى جانب المعرفة

لم تأتِ هذه التحوّلات في فراغ، بل ضمن محيط تنافسي تقـوَّى مـع الانفتـاح الاقتصـادي المتزايد فـي الداخل والخارج، مما أعطى لطلـب الكفاءات بعداً جديداً. ففي وضـع يسقـط فيه عـدد مـن الحواجز والدفاعـات لدى الشـركات والبلدان، وتتطور تحوّلات تكنولوجية ومعرفية بشـكل متسـارع، أصبحت المنافسة بيـن الشركات أكثر حـدَّة بكثيـر مـن السابق، وطُـرِح الابتـكار كأحـد أهم عناصرها، ويراه البعض أكثـر أهمية من الإنتاجية لدى عدد من الصناعات. وبالتالي فإن الشركات في تنافسها تبحـث عـن «الكفـاءات الأفضـل» ضمـن الحاجـة إلى الابتـكار، وكعنصر أساسي في تقريـر المنافسة الحادة بينها.

لذلـك، يجـد اليوم تعبيـر «الموهبة» طريقه إلـى القاموس الاقتصـادي، وينتشر استخدامه بشـكل واسع في الأعمال، بالرغـم مـن أنـه لا يوجـد تعريـف دقيـق لهـذا التعبيـر. فـ «الموهبـة» باتت تعتبـر السلعـة الاقتصاديـة الأهم في الاقتصـاد المتطـور. ومـع صعوبـة اعتماد تعريـف واضح للموهبـة فـإن أوجـه الاستخـدام الأكثـر اعتمـاداً لهـا لا تحصرهـا بالمعنى الضيـق أو تشملهـا بالمعنى الواسع، بل تستخدمهـا كتعبير عن القوة الذهنيـة، كما يشير مقال فـي الإيكونوميست (5-10-2006م)، وهي القدرة على حل مشـكلات معقَّدة أو ابتكار حلول جديـدة، مع إيلاء اهتمام أساسي لما يسمى اليوم عمَّال المعرفة.

إن هـذا التبـدُّل فـي النظر إلـى الكفاءات ضمـن اقتصاد تتوسـع قاعدتـه المعرفية فـي وسط محيـط تنافسي حاد، يحمـل أيضاً دلالات اجتماعية على قـدر كبير من الأهمية. فتعبيـر «الموهبة» أصبح أيضاً مرادفاً لتحديد موقع نخبوي في السلم الاجتماعي، وعلى صعد مختلفة اقتصادية وعلمية واجتماعية وثقافية تفصلها عن غيرها تباينات واضحة في سلَّم المكافآت.

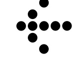
والظاهـرة، فـي الواقـع، ذات حديـن مترابطيـن. فهناك مـن جهة تزايـد النخبوية، ومن جهة أخـرى نقص الأمان. سـواء أكان الأمـان يتعلق بالوظيفـة أم بالشركـة التي تجد نفسهـا أمام درجـة أعلى مـن المخاطر في واقـع تنافسي ومتقلب.

نخبوية أكثر وأمان أقل

مـن مفارقـات التطور الاقتصـادي أنه يحصـل بشكل غير متسـاوٍ. كأن تجد الشـركات التكنولوجيـة الأوروبية نفسها وسـط مشكلـة البحث عـن كفـاءات، بينما نسبـة البطالة مرتفعة ودائمة، وأن ينمو ويتطور قطاع خدمات التكنولوجيا العاليـة فـي البلدان الناهضـة كجزيرة معزولـة عن وسط مغايـر يغلب فيه الفقر وعـدم المعرفة. وأن يـزداد الفقير فقراً في البلد المتطور ويزداد الغني غنىً.

إن عدم التساوي يظهر أيضاً في الوظائف بطريقة تتسع فيها الهوَّة بيـن وظائف نخبوية وأعمال أخـرى. تدل المؤشرات

فـي الاقتصاد المتأثر بالتحوّل، كالولايات المتحدة، إلى أن التبايـن في الأجور ازداد أكثر بين الأجور المرتفعة والأجور المتوسطـة خـلال العقود الثلاثـة الماضيـة، بينما ضاقت الهـوَّة بين الأجـور المتوسطـة والأجـور المنخفضة خلال التسعينيـات واستقرت بعد ذلـك. وزادت الفوارق بين دخل العمال حسب مستوى التعليـم والمهارات منذ التسعينيات.



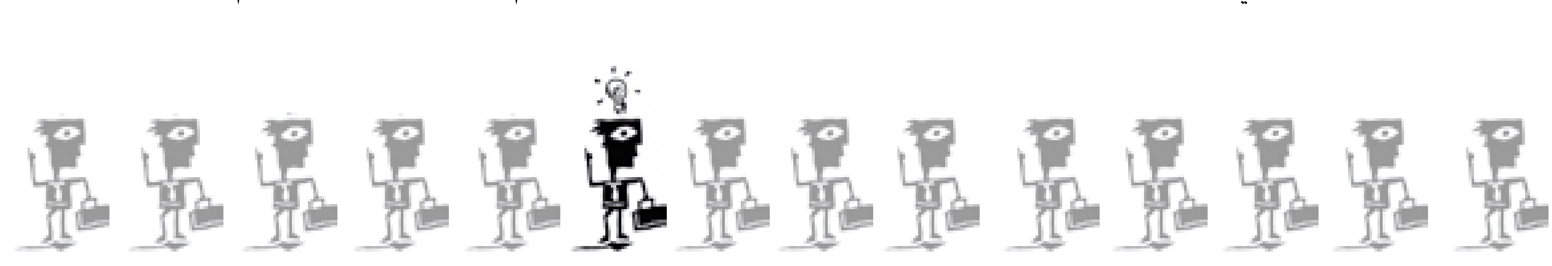
إن الشركات في تنافسها تبحث عن الكفاءات الأفضل ضمن الحاجة إلى الابتكار، وكعنصر رئيس في تقرير المنافسة الحادة بينها

ويظهـر التباين أوضح مـع التضخم الكبير فـي أجور مديري الشـركات وعلاواتهم في قمة الهرم، الذين وصلت مكافآتهم، إذا ما أُخذت الأجـور فقط بالاعتبـار، إلى حوالي 300 ضعف أجر العامل العادي عام 2000م بينمـا كانـت هـذه النسبـة 24 ضعفـاً عام 1967م، حسبمـا يشيـر باحثـون من معهد السياسة الاقتصادية في واشنطن.

تعزو بعض التحاليـل سبب هذا التباين إلى ازديـاد القيمة الاقتصاديـة لما يسمى عنصـر «الموهبة»، التي يرتبط عملها باستحداث نشاط جديد وتطوير منتجات وتقنيـات جديدة، وعلى أساس أن مكافـأة المواهب مسألة مهمـة لضمان توزّعهـا الفعَّال ضمن العمليـة الاقتصادية. أما المكافـآت الصارخة التي تصل إلى مبالغ تجافي القيم الاجتماعيـة المقبولة، فتعـزى أسبابها إلـى مسألة صعوبة تحديـد مردود هـذه الموهبة. تُطـرح هـذه الصعوبة، كما يـرى هذا التحليل، بشكل خاص بالنسبة للنشاط الإبداعي، كالموسيقـى والرياضـة والتصميـم، وبالنسبـة للأعمال، خاصـة ضمـن التفكيـر الرائج بـأن أصحاب الأعمـال (أو المديرين التنفيذيين) هم الذين يقدرون على كسر «الوضع القائـم» والابتكار بـدل القيام فقـط بتكرار عملية التراكم. وتخلـق هذه العمليـة في سياقهـا «مواهب سوبـر نخبوية»، حيـث العوائد المطروحة كبيرة جـداً بالمقارنة مع الفوارق البسيطـة في القدرات، كما في اللعبة التنافسية التي تنتهي برابح يحـوز كل شيء، وذلك بالنظر إلى الألعاب الرياضية حيث مكافأة الرابح الأول لا تقارن بما يحصل عليه من يأتي في المرتبة الثانية.

إلا أنـه يجـب أيضاً البحث عـن الأسباب فـي صلب الحالة الاقتصاديـة التـي نشأت عنها هـذه الظواهـر. وهي حالة تفككت فيها الكثير مـن الضوابط لصالح ما اعتبر تحريراً للأسـواق سواء أكانت أسواق العمـل أو البضائع أو الأسواق الماليـة. وقـد زاد هـذا التبـدل بشـكل كبير مـن الفرص والمخاطـر بالنسبـة للشـركات، التـي تجـد نفسهـا وسط منافسـة حادة وأمام فرص لأسـواق جديدة وحركة اندماج بيـن الشركات هـي الأهـم منذ بدايـات القـرن الماضي. وتصـل هـذه العلاقـة بيـن ضخامـة الفرص وضخامـة المخاطـر في الأسواق المالية، إلى حد يجعل المرء يتساءل مـا إذا كان يجوز مقارنة اللعبة بمقامرة تنتقل فيها بغمضة عيـن الأموال الطائلة من موقع إلى آخر. ولذلك، يمكننا أن نفسِّر مثـلاً لماذا تكافـئ الصناديق الماليـة مديريها إلى حـد لا يتصوره عاقل، كأن يتجـاوز مثلاً دخل 25 مديراً في «صناديـق التحويط» (هيـدج فاندز) والمقدر بـ 15 بليون دولار ضعفي موازنة لبنان والدخل القومي الأردني (جريدة الحيـاة فـي 25-4-2007 نقلاً عن مجلة «ألفـا ماغازين»). وهو دخل يمكن مقارنته العقلانية فقط بضخامة العائدات، التي يقابلها احتمال ضخامة الخسائر، التي تجنيها شركات مالية غير منتجة من المضاربات أو في عمليات الاندماج.

تقابـل ذلك ظاهرة أخرى لا تقـل أهمية، وهي سرعة انتقال المديريـن التنفيذييـن في الشـركات العالميـة، وفي أغلب الأحيان عبر الاستغناء عـن خدماتهم أو التعاقد معهم على مـدى قصير جداً. وتُطـرح عادة من منظـور مجالس إدارة الشـركات مسألتـان: الأولـى وتتعلق بـدورة حيـاة الشركة والدورة الاقتصادية (ركـود أو نهوض أو توسع أو تقليص .. الخ) التي تُظهر الحاجة إلى اختصاصات متغيِّرة مع الوقت. أمـا المسألة الأخـرى فترتبط بطبيعة العلاقـة بين مجلس إدارة الشركة والمديرين، التي لا تتأسس على الثقة والولاء بل على حسابات الربح والخسارة على المدى القصير المقترنة أيضـاً بصعوبة تقدير النتائج. فاستعـداد إدارات الشركات وأصحاب الأسهم لدفع أجـور وعلاوات صارخة يقابله توقع الأداء الأفضل منهم أو المخاطرة بخسارة موقعهم.



إن مرونة انتقال الكفاءات والمواهب تتجلى كظاهرة أشمل وعالمية الأبعاد أيضاً. وقد باتت تهزّ مضاجع عدد من الشركات. فنقص الكفاءات، والتنافس على ما هو متوافر منها تظهر وكأنها «حرب أدمغة» بين الشركات لاصطياد المواهب بعضها من البعض. لكن المعارك الصغيرة لن تحل المشكلة، والاتجاه يتطور نحو استراتيجيات على الأمد الأطول مع اعتراف متزايد بأن هناك حاجة لإرساء سياسات مبنية على قاعدة أقوى من الاستقرار داخل الشركات، وأن المواكبة المجتمعية، خاصة في التعليم، باتت أكثر إلحاحاً.

باتت قطاعات الأعمال معنية أكثر بالنظام التعليمي، وبعضها يتدخل مباشرة في تقديم مساعدات للمدارس والجامعات في مسعى منه إلى مواءمة البرامج مع حاجاته

بين «حرب الأدمغة» وسياسات أبعد

تزيد المعارك الصغيرة من نسبة المخاطر بالنسبة للشركات، وأيضاً من احتمالات زيادة أعباء تكلفة مترتبة على عمال المعرفة. ولذلك تتقوى النزعة إلى اعتماد سياسات أبعد مدىً تركِّز على التعليم وعلى تهيئة الظروف لاستقرار أكبر للأعمال، بالعودة إلى بعض الأصول ومواجهة مشكلة عدم الولاء الوظيفي.



إن النظرة السائدة اليوم في البلدان المتقدمة تقول إن نجاحها يعتمد بشكل متزايد على قدرتها على تعبئة القوة الذهنية لمواطنيها بشكل عام. وهذا المنظور التعبوي يضع موضوع التعليم في الواجهة، وبشكل أساسي مسألة تحسينه لملاءمة متطلبات سوق العمل لتحسين التعليم وزيادته بالنسبة للاختصاصات التقنية. وتظهر مقابلات مع مديرين تنفيذيين في القطاع التكنولوجي وجود شكوى من ضعف مواد الرياضيات والعلوم في نظام المدارس العامة في الولايات المتحدة بشكل لا يشجِّع على متابعة التحصيل في هذه الاختصاصات لاحقاً. ويبدو بالنظر إلى أوروبا أن المشكلة ليست في عدد من يتقدَّم إلى العمل بل في نوعيتهم ونسبة المؤهلين منهم، ويحيل البعض ذلك إلى أن النظام الجامعي يحتوي على عدد قليل من المعاهد التعليمية العليا في قمة الهرم، بينما ثمة كثير من الجامعات التي هي في أحسن الأحوال متوسطة الجودة.

وقد باتت قطاعات الأعمال معنية أكثر بالنظام التعليمي، وبعضها يتدخل مباشرة في تقديم مساعدات للمدارس والجامعات في مسعى منه إلى مواءمة البرامج مع حاجاته وجذب الطلاب أكثر إلى دراسة الرياضيات والعلوم، إضافة إلى محاولة التأثير في دفع التعليم العالي إلى تلبية متطلبات الوظيفة للوصول إلى الكفاءة الجامعة بين التعليم الأساسي والتعليم الداعم والمهارات والخبرة، مثل تضمين برامج التعليم العالي مواد في الخبرة والمهارات والإعداد للمهن.

إن رفع نوعية التعليم وعصرنته وشموليته وتطوير البنى التحتية الملائمة يشكِّل تحدياً أيضاً للبلدان الأقل تطوراً، وبإلحاح أكبر، في مواجهة ضعف تأهيل خريجي الجامعات والمعاهد التقنية لتلبية حاجات قطاعات متقدمة تتطور على تخوم اقتصادها، ولكي يشمل التعليم في المدى الطويل الفئات الواسعة التي لم يشملها بعد من خلال تعميمه وإلزاميته على الأقل في مراحله الأولى.

ويظهر نوع من الانسجام على مستوى المديرين التنفيذيين للشركات، خاصة في قطاعات التكنولوجيا العالية، على وضع مسألة تطوير التعليم والتدريب الداخلي في المقام الأول كأحد العناصر الرئيسة ضمن أولوياتها لصقل المواهب والحفاظ عليها. فهناك منافسة حادة على المواهب، يقول البعض، والناس لديها عدد من الفرص، و«إذا لم نلبِّ حاجاتهم فسيذهبون إلى منافسينا، ولذلك نتعامل بشكل أكثر استراتيجي فيما يخص الموارد البشرية». وكانت الحاجة في السنوات الأخيرة قد فرضت إنشاء معاهد تدريب تحت ضغط نقص الكفاءات، وبرز الموضوع بشكل أكثر إلحاحاً في الدول الناهضة، التي تجد صعوبة أكبر في تلبية الطلب نظراً لضعف نظامها التعليمي العام، والمثل الواضح كان في الاندفاعة التي قامت بها شركات التكنولوجيا في الهند بالتعاون مع الحكومة ومعاهد التعليم، لإنشاء

مراكـز تدريـب ضخمة لصقـل المواهب الجديـدة. بشكل عـام باتت نظرة خبـراء الموارد البشرية إلـى التعليم على أنـه مسألة أكثر من مجرد تكتيـك لتحسين الأداء الوظيفي داخل الشركة، ويجري إعادة تصوّر له كعنصر استراتيجي أساسي في نجاح أية منظمة، والمتوقع هو أن يصبح التعليم أكثر اندماجاً مع العمل وليس خارجه.

وهنــاك جملة واسعة من الحوافز التــي هي أيضاً في مركز اهتمــام إدارة المواهب، كالمكافآت المالية ووضع مسارات مهنية بطريقة تناسب كل فرد والاستقرار الوظيفي والبحث عن عقــود طويلة الأمد ودعم تطويـر الموظفين لمهاراتهم ومكافـأة الخبــرة وسنــوات العمـل، وقواعـد المعاملـة وأخلاقيـات العمل وعـدم التمييز ومساعـدة العاملين على الأداء الأفضـل وغير ذلك. والميل أيضـاً هو باتجاه تشديد الرقابة على الضوابط الداخلية للشركة خاصة بعد فضيحة شركة إمرون في الولايات المتحدة.

ولــم يعد من الممكن إنكار أن البحـث عن الكفاءات مسألة ذات بعـد عالمــي. فالخطـوات التـي تقـوم بهـا الشركات للتعاقـد من الباطـن أو نقل أعمال إلى الخـارج أو الشراكة مـع شـركات أخرى، تظهـر أن مـن ضمن دوافعهـا هناك البحث عـن الكفاءات. وحتـى الحكومات فإنهـا تسير على خطـى الشـركات. إذ ان البلـدان الغنية معنيـة أكثر اليوم بفتـح أبوابها أمام هجـرة العمالة الماهـرة وإزالة العوائق والاهتمام بالجامعات كمراكـز لاستقطاب الكفاءات. وهي تنظر إلــى الموضوع على المدى الأطـول لاعتبارات متعلقة بانحـدار معدلات النمـو السكاني. وبعض الـدول الناهضة تعمـل بدأب على تشجيع عودة الكفاءات المغتربة من خلال سياسـات تسعى للتغلب على مواطن الضعف التي تؤدي إلى هجرتها بالأسـاس مثل تدني المكافـآت وافتقاد الاعتراف بالمواهب وغياب مسار مهني وغيره.

وإذا كانـت هـذه المؤشـرات، المستندة إلــى استطلاعات لآراء المعنييــن، جديـرة بالانتبـاه فإن مدلولاتهـا تقول إن هنـاك احتمالاً للعودة إلى بعض الأصـول التي أضعف منها كثيراً المحيط الاقتصادي وقلّة أمانه. فقد تزداد النخبوية فــي إطار المعارك الصغيرة الدائـرة على اجتذابها، لكنها ستضعـف ويصبح توزيـع الفائدة أوسع وأكثـر مساواة على قاعـدة عمل يزيد فيه الأمان وعلى قاعدة تعليم أكثر شمولاً وتطويراً.

اقرأ للموهبة



«حرب الموهبة»

على مدى العقود الماضية، أصبح الموظفون الموهوبون أهم من رأس المال أو استراتيجية البحث والتطوير في أي شركة من الشركات. ذلك حيث أن جذب الموظفين الأكفاء الموهوبين واستقطابهم يعد تحدياً للمؤسسات من جميع الأشكال والأحجام والاتجاهات. فنمو رأس المال البشري ضرورة استراتيجية للقرن الحادي والعشرين. كذلك أصبح الأشخاص الأكثر موهبة الدعامة الأساسية التي يرتكز إليها نجاح الشركة وتطورها.

كتاب «حرب الموهبة»، الذي يحتوي على 200 صفحة، تتويج لخمس سنوات من البحث المستفيض الذي شمل نحو 13,000 مدير تنفيذي من أكثر من 120 شركة، فضلاً عن دراسات من مختلف فروع الصناعة. فمؤلفو الكتاب إد مايكلز، وهيلين جونز، وبيث أكسيلرود، هم من مؤسسي الشركة الاستشاريه ماكينزي وشركاه التي صاغت واعتمدت عبارة «حرب الموهبة» قبل عدة سنوات. وكان المبدأ الأساسي لماكينزي هو أن على أرباب العمل أن يعتمدوا أكثر التقنيات المبتكرة في التوظيف، والاعتماد كل الاعتماد على الموظفين الأكفاء والموهوبين.

يحتوي الكتاب على سبعة فصول تصف عناصر جديدة ومدروسة أكثر لإدارة أكثر موهبة. وتقترح استراتيجية أجدى لتوظيف أصحاب الموهبة والكفاءات وتطوير المهارة القيادية. ويوصي بحتم الاستثمار في المواهب الشابة لنجاح الأعمال والشركات وازدهارها.

قول في مقال

حقيقة الشخصية بين الواقع والإنترنت

غالباً ما ينكر الناس في حياتهم اليومية ذواتهم الحقيقية أمام الآخرين. أما في عالم الدردشة الإلكترونية، فيمكن للأفراد أن يتحدثوا بحرية أكبر، إذ لا يكونون مضطرين إلى الكشف عن هوياتهم للآخرين. وهكذا توفر الدردشة الفرصة للإنسان لكي يكوِّن نفسه. وقد يصل الأمر بالشخص إلى اختلاق «أنا» أخرى له تنسيه شخصيته في العالم الواقعي.

فارس كمال نظمي* يتناول هذه المفارقة النفسية التي أنتجتها تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، متتبعاً آلياتها ودوافعها ونتائجها التربوية.

لماذا نلجأ إلى الدردشة؟

وُجد أن «الدردشة» تمثل الاهتمام الأول في الإنترنت في المملكة العربية السعودية، بنسبة 51% لدى عينة من المراهقين والشبان في العام 2005م. وفي دولة الإمارات العربية المتحدة بلغت النسبة 60%.

كذلك وجد أن الأمريكيين أنفقوا في العام 2002م مبلغ 302 مليوني دولار للحصول على مواعيد عاطفية مع شخص آخر عبر مواقع الدردشة الإلكترونية.

فما الإغراء الذي تمثِّله هذه الوسيلة الحوارية التي أصبحت بمرور الوقت نمطاً شبه عادي من الحوار؟

لكيلا تختلط مستويات التحليل ببعضها، فلابد من الإشارة إلى أن الدردشة نوعان أساسيان، أولهما ذلك الذي يكون مع أناس نعرفهم ويعرفوننا (دردشة مكشوفة الهوية)، والآخر مع أناس لا نعرفهم ولا يعرفوننا (دردشة مخفية الهوية). ويهمنا هنا النوع الثاني (أي الدردشة المخفية الهوية)، فهي دردشة تتيح لنا إخفاء هويتنا الأصلية، وتقمص أو انتحال هوية جديدة نعبِّر فيها عما نريده، ونمارس فيها بعضاً من خصال شخصيتنا التي نود إظهارها أمام الآخرين. الدردشة أيضاً تشكِّل مهرباً من عالم غير آمن لا يفهمنا ولا يستمع إلينا. فالدردشة تتيح تكوين علاقات اجتماعية «افتراضية» تقدمنا إلى عالم آخر، يستمع، وقد يفهم.. وبهذا يسد حاجات نفسية وعاطفية غير متحققة في واقعنا، مما قد يؤدي إلى توهم الصلة الحميمة والألفة.. والهروب من عالم غير آمن نظن أنه لا يفهمنا ولا يستمع إلينا، إلى عالم يستمع إلينا وقد يفهمنا.

وتعطينا الدردشة أيضاً الشعور بالتحكم والسيادة والقدرة على التأثير، من خلال الاستعمال المباشر والآني للأزرار وطباعة الكلمات وتبادل الصور واستخدام الرموز الصوتية والصورية. فالفرد بذلك يستبدل عجزه عن التحكم بحياته اليومية (الواقعية) بالتحكم بالآلة وإمساكه بهذا العالم الافتراضي الذي يمكن مغادرته في أية لحظة.

* أكاديمي وباحث نفسي

عندما تتحول الدردشة إلى خطر

إدمان الدردشة هو استبدال الشخص علاقاته الإلكترونية بعلاقاته الواقعية. ويعدّ إدمان الدردشة جزءاً من إدمان الإنترنت، إذ يحذِّر العلماء من خطورة قضاء ساعات طويلة أمام الإنترنت خاصة في الدردشة التي تتحوَّل فيما بعد إلى إدمان (Cyberaddiction).

فقد بيَّنت دراسة لجامعة «بيتسبرغ» في أمريكا للعام 2004م أن 5% من مستخدمي الإنترنت في العالم في عداد المدمنين، وهي نسبة قابلة للارتفاع في السنوات المقبلة، إذ أكدت الدراسة أن التعرض للإنترنت أكثر من (4) ساعات يومياً يعد إدماناً. إلا إن هذا المعيار غير متفق عليه، وتوجد وسائل أخرى لتشخيص هذا النوع من الإدمان.

ويؤدي إدمان الإنترنت إلى تدمير حياة الفرد الاجتماعية والمالية والمهنية، كأنواع الإدمان الأخرى. ويتشابه سلوك مدمني الخمر مع الأعراض المرضية لمدمني الإنترنت. إذ اتضح أن مخ المدمن يقوم بالعمليات نفسها، سواء أكان إدمانه هذا من تناوله لمادة أو قيامه بنشاط ما.

ولكن.. لم لا نفترض العكس؟

مع إدراكنا للنتائج السلبية التي قد تنتج عن استخدامنا للدردشة على الإنترنت، نجد أن إيجابيات هذه الظاهرة قد بدأت تخفت ولا يلقى عليها الضوء بما فيه الكفاية، فالدردشة يمكن أن تغطي ميداناً رحباً من الحياة للفرد والمجتمع على حد سواء.

بداية، تعدّ الدردشة نوعاً من الإرشاد (أو العلاج) النفسي، لأن التحدث المنفتح مع الآخر يبلور المشكلة ويخفِّف توترها. كذلك يمكن للدردشة أن تكون وسيلة فاعلة يتعلم من خلالها الطفل والراشد مبادئ الحوار المثمر مع الآخرين، فيطور قدراته العقلية وينضج أفكاره ومعلوماته وتصوراته ومشاعره نحو العالم. بالإضافة إلى ذلك، يمكن للدردشة أن تكون وسيلة تربوية وتعليمية فاعلة بين المعلم وتلاميذه، عبر متابعة واجباتهم البيتية، والرد على أسئلتهم، وإرشادهم لحل مشكلاتهم، وإعطاء دروس مشتركة في غرف الدردشة. أما عن الدردشة بين الجنسين، فهي إذا ما جرت على أساس منضبط من الاحترام والفهم، يمكن أن تنمِّي النظرة الإيجابية للجنسين نحو بعضهما، وتسهم بإرساء الأسس الصحيحة للتفاعل الإنساني بينهما.

كيلا يكون هناك داع للقلق

إن واحداً من أهم الأسباب التي تدفع الأطفال إلى انتحال شخصيات غير شخصياتهم، أو قابليتهم للاستدراج والإغواء من الآخرين في غرف الدردشة، هو التنشئة الاجتماعية والأسرية المتسلطة التي تقمع الطفل وتمنعه من التعبير الحر والتلقائي عن ذاته وحاجته الطبيعية، الأمر الذي يدفعه إلى الخوض في الجانب المظلم من عالم الدردشة، فيصبح مهيئاً للانحراف النفسي والسلوكي أثناء مساعيه للتنفيس عن مكبوتاته داخل العالم الافتراضي الذي توفره تلك الغرف. وهكذا، فالتربية الأسرية القائمة على الثقة والصراحة والمكاشفة والإقناع، كفيلة بحماية الطفل من الانحراف السلوكي والاضطراب النفسي مستقبلاً، سواء في غرف الدردشة الافتراضية أو وسط أحداث الحياة الواقعية.

ليست المشكلة في الإنترنت أو التلفاز أو التلفون بحد ذاتها، ولكن في أسلوب استعمالها واستثمار الفوائد العظيمة التي تنطوي عليها هذه المخترعات. وهكذا يمكن للآباء والأمهات مراقبة أطفالهم في غرف الدردشة بطريقة غير مباشرة، عبر الاشتراك معهم بالدردشة في تلك الغرف بين الحين والآخر، للاطمئنان على طبيعة العلاقات والأحاديث التي يجريها أطفالهم، بطريقة لطيفة وغير ضاغطة عليهم، مع الاهتمام بإقامة علاقات إلكترونية معهم من خلال تبادل الرسائل والصور والمعايدات معهم، بما يضمن عدم انسحاب الطفل تماماً إلى عالم افتراضي محض بعيداً عن إطاره العائلي المشترك مع والديه وأخوته. ولا ننسى إن بعض الآباء والأمهات أنفسهم يسيئون استعمال غرف الدردشة، مقدمين بذلك نماذج سيئة لأبنائهم الذين قد يلاحظون سلوك آبائهم ويقلدونه!

التسوّق في مصادر الطاقة...
خيارات لا بدائل

من الذُّرة مصدر الإيثانول إلى الذَّرَّة المتعثرة مع البيئة



هل يستطيع النفط أن يظل مصدراً أساسياً للطاقة في العالم، لا سيما مع تعاظم الحديث عن البيئة وضرورة حمايتها وتقليص أسباب تلويثها؟ وهل يمكن للعالم في سنوات قريبة مقبلة أن يستغني عن النفط، مع إقبال البحث العلمي والصناعي على تطوير ما يسمى بالطاقة البديلة، من الذَّرّة إلى الذُّرَة، لأسباب اقتصادية وأخرى بيئية؟

وكيف سيتطوّر سوق الطاقة في العالم، مع تزايد عدد سكان الكرة الأرضية، ومع نهوض اقتصاد بلدان منها الصين والهند، وزيادة حاجتها إلى الطاقة ومصادرها المتنوعة؟ وهل يمكن التوفيق بين مصلحة منتجي النفط ومستهلكيه، أم ان تناقض المصالح أمر حتم لا علاج له؟

في هذا التحقيق تقدِّم «القافلة» مختلف الآراء العلمية وبيانات الإحصاء، كما عبَّرت عنها المحافل الاقتصادية الجادة في العالم، ولا سيما مجلة «بتروليوم إكونومست» البريطانية، وصحيفة «تشيكاغو تريبيون» الأمريكية، وإدارة معلومات الطاقة الرسمية الأمريكية، وغيرها.

تُجمع دراسات استشراف المستقبل، على أن الربع القادم من القرن الواحد والعشرين سيشهد زيادة طلب الطاقة زيادة هائلة. إذ يشير توقع إدارة معلومات الطاقة، في وزارة الطاقة الأمريكية، إلى زيادة وتيرة استهلاك العالم في السنوات الخمس والعشرين القادمة 2% كل سنة، أي ان مجموع استهلاك العالم في العام 2030م سيزيد نحو 70% على الاستهلاك اليوم.



طلب متزايد

وستترتب نسبة كبيرة من هذه الزيادة على طلب دول نامية، ولا سيما الهند والصين، إذ يتوقع أن يتجاوز استهلاك الطاقة في الدول غير الأعضاء في منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي في خمس سنوات، معدله في دول المنظمة أول مرة. أي ان الدول النامية ستفوق الدول الغنية في استهلاك الوقود. ويعزى جزء كبير من ذلك، إلى تزايد تعداد سكان العالم وتضيّق الفجوة في مستوى العيش بين دول العالمين المتقدِّم والنامي، ولكن سيبقى طلب استهلاك الطاقة في الدول الصناعية أيضاً منتعشاً. وعلى افتراض عدم تغيّر أي من عناصر هذا المسار قريباً، فلن يكون بد من طرق لتلبية الطلب الحاضر، مع مواصلة زيادة العرض في الوقت ذاته لمواكبة زيادة الطلب. وسيكون لزاماً إذن خلال العقود القادمة، زيادة الطاقة المتاحة للمستهلك حول العالم زيادة كبيرة.

في هذه الظروف، لا تزال المواد الهيدروكربونية تستأثر بنصيب الأسد من مصادر الطاقة.

ويشير توقع إدارة معلومات الطاقة الأمريكية إلى أن أنواع الوقود الأحفوري ستحافظ على حصتها النسبية من السوق. وفي العام 2030م ستظل طاقة الزيت والغاز والفحم تستأثر بنحو ست من كل سبع وحدات طاقة يستهلكها العالم. وبسبب زيادة مجموع طلب العالم، يتوقع أن يزيد استهلاك الزيت والغاز والفحم زيادة مطردة، إذ سيزيد استهلاك الزيت، من نحو 85 مليون برميل في اليوم الآن، إلى نحو 120 مليون برميل في اليوم عام 2030م. وتتوقع إدارة معلومات الطاقة زيادة مصادر الطاقة المتجددة، ومنها الكهرباء المولدة بالطاقة المائية، في الربع القادم من القرن. ولكن حتى مع التطور التقني المتوقع في هذه المصادر المتجددة، فلن تزيد حصة مصادر الطاقة المتجددة في سد طلب الطاقة العالمي، إلا بنسبة 1% في السنوات الخمس والعشرين القادمة، من 8% الآن إلى 9% عام 2030م. وعند النظر في الطاقة البديلة، يلاحظ أن مصدراً مثل الإيثانول بدأ يلعب دوراً متنامياً لكنه غير موثوق فيه بعد، فيما أن الهيدروجين وخلايا الوقود لا يزال أمامها شوط طويل قبل أن تصبح مجدية في السوق. وهي جميعاً لا تزال تواجه عدداً من العقبات الفنية والتجارية التي تحتاج إلى حل.

ويرى الأستاذ عبدالله بن صالح بن جمعة، رئيس شركة أرامكو السعودية، في محاضرة ألقاها في مركز البيئة بجامعة هارفارد في مدينة بوسطن الأمريكية، وعنوانها: «الطريق إلى مستقبل الطاقة»، أن طلب الطاقة المتنامي «يعني أننا سنحتاج إلى إسهام كل المصادر، سواء أكانت هيدروكربونية تقليدية أم جديدة ناشئة، مثل الوقود الحيوي والهيدروجين. وبصفتي أحد رجال صناعة النفط، لا أرحب فقط بإسهام الوقود البديل، بل أعتقد أن هذا الإسهام سيكون ضرورياً إذا كان علينا أن نفي بحاجة مستهلكي الطاقة المتزايدة».

الاحتياط الثابت من الزيت التقليدي 1.2 تريليون برميل يضاف إليه 1.5 تريليون برميل زيوتاً غير تقليدية وتريليونان محتملان.. أي 140 سنة أخرى من حاجة الاستهلاك

كم نستهلك، كم سنستهلك، كم سنحتاج؟

تستأثر الطاقة الأحفورية المستهلكة اليوم في العالم بنحو 85% من كل الطاقة المستهلكة. وحتى ندرك مسار الأرقام في هذا المجال، لا بد من مراقبة استهلاك الطاقة في سنوات ماضية. سنة 1998م كان الزيت يساوي 40% من مجموع إنتاج مصادر الطاقة في العالم. وسنتئذ كان العالم يستهلك 73.6 مليون برميل في اليوم (الغاز: 22.5% و82.2 تريليون قدم مكعبة في السنة، الفحم: 23.3% و5.01 تريليونات طن في السنة، الطاقة الذرية: 6.5% و2.3 تريليونات كيلووات ساعة في السنة، الطاقة المائية: 7.0% و2.6 تريليونا كيلووات ساعة في السنة، الطاقة البيولوجية وغيرها 0.7% و196 مليار كيلووات ساعة في السنة. (المصدر هو البيان السنوي في تقرير «إنترناشونال إنرجي»).

وفي أرقام من سنة 1992م، قدر استهلاك البشر الطاقة من كل أنواع مصادرها في السنة الواحدة، بنحو 400 إكزاجول (أي ألف تريليون جول -مليون مليار جول- والجول هو الطاقة اللازمة لرفع كيلوغرام واحد نحو 10 سنتمترات عن سطح الأرض)، ويساوي هذا نحو 9500 مليون طن من مكافئ النفط في السنة.

وفي سنة 1992م كان الاستهلاك بحسب مصدر الطاقة هو التالي: النفط 131 إكزاجول (3128 طناً من مكافئ النفط)، الفحم 91 إكزاجول (2164 طناً من مكافئ النفط)، الغاز الطبيعي 75 إكزاجول (1781 طناً من مكافئ النفط)، الوقود البيولوجي 55 إكزاجول (1320 طناً من مكافئ النفط)، الطاقة المائية 24 إكزاجول (661 طناً من مكافئ النفط)، الطاقة الذرية 22 إكزاجول (532 طناً من مكافئ النفط).

وإذا كان عدد سكان العالم في تلك السنة يقدر بنحو 5300 مليون نسمة، وإذا افترضنا أن معدل استهلاك الفرد لم يزد ولن يزيد، على الرغم من أن الهند والصين تبدلتا تبدلاً كبيراً منذ سنة 1992م في أنماط الاستهلاك ومقداره، مع نهوض صناعتهما واقتصادهما، وإذا أخذنا بتقدير الأمم المتحدة أن سكان العالم سيراوح تعدادهم في سنة 2050م، بين 7.9 مليارات و10.9 مليار نسمة، فإن استهلاك العالم في سنة 2050م سيراوح بين 14.22 مليار طن و19.62 مليار طن من مكافئ النفط في السنة. فهل تستطيع المصادر البديلة أن تضيف الفارق بين ما ينتجه العالم اليوم من نفط وما سيحتاج إليه، وأن تسد الفراغ الذي سيتركه النفط، لو أوقف إنتاجه لأسباب تساق اليوم على الناس؟

احتياط يلبي حاجة العالم

ليس الزيت حاجة متزايدة عند العالم والشعوب فقط، بل انه أيضاً قادر على مواكبة زيادة الطلب، ولا يستطيع أي مصدر آخر حتى الآن أن يواكب. إذ لا يزال ثمة من الزيت ما يكفي لتلبية حاجة العالم عقوداً عديدة قادمة. فصناعة النفط كرَّست جهوداً وموارد هائلة لفهم طبيعة قاعدة مصادر كوكب الأرض النفطية. وخلصت إلى أن موارد النفط الباقية هائلة. فالاحتياط الثابت الآن من الزيت التقليدي يبلغ 1.2 تريليون برميل، حسب أرقام أرامكو السعودية، فيما يبلغ الاحتياط غير التقليدي القابل للاستخلاص أي الزيوت الثقيلة ورمال القار 1.5 تريليون برميل على الأقل. ويرى خبراء التنقيب والإنتاج، مع التقدم المستمر في التقنيات، إمكان العثور على تريليوني برميل من الحقول التي لم تكتشف بعد، وزيادة نسبة الاستخلاص من الحقول القائمة. وإذا اجتمع كل هذا، أمكن الحديث عما يزيد على 4.5 تريليونات برميل من الزيت القابل للاستخلاص، أي أكثر من 140 سنة من الحاجة، بوتيرة الاستهلاك الحاضرة.

وإلى جانب ما تبيحه التقنية الحديثة من آمال واعدة بتعزيز القدرة على استكشاف هذه الموارد وتطويرها ونقلها إلى المستهلكين، فهي تلعب دوراً مهماً أيضاً في حماية كوكب الأرض. ذلك أن تخفيف مضار إنتاج الطاقة واستهلاكها في البيئة الطبيعية، صار ضرورة متزايدة وحتماً مُلحّاً للمنتجين والمستهلكين وواضعي السياسة والمشرعين والمعنيين الآخرين. وثمة دور يتعين على كل هؤلاء أن يلعبه لتخفيف الآثار البيئية الناجمة من استخدام الطاقة، والموازنة بين المسؤولية حيال البيئة، والتزام توفير أسباب الرخاء والرفاه للمجتمعات والشعوب في الوقت نفسه. ويعد هذا التوازن المنشود من أهم التحديات التي تواجه كوكب الأرض اليوم.

تجربتنا الطموح

وفي هذا الإطار شرعت أرامكو السعودية منذ مدة، في عدد من البرامج لزيادة الطاقة، تنقيباً وإنتاجاً وتكريراً ومعالجة وتوزيعاً، للمحافظة على قاعدة الموارد وتوسيعها،

ودعم طاقة الإنتاج وزيادتها من 11 مليون برميل في اليوم الآن، إلى 12 مليون برميل في اليوم عام 2009م. وستساعد مشاريع زيادة إنتاج الزيت الخام هذه في المحافظة على طاقة إنتاج فائضة تراوح بين 1.5 و2 مليوني برميل في اليوم، لضمان استقرار السوق، إذا طرأت ظروف غير متوقعة تؤدي إلى اضطراب إنتاج المنتجين الآخرين.

طاقة التكرير

ولدى أرامكو السعودية الآن طاقة تكرير تبلغ نحو أربعة ملايين برميل في اليوم، موزعة بالتساوي بين المصافي المحلية ومصافي المشاريع الدولية المشتركة. وخلال السنوات الخمس القادمة، ستدعم طاقة التكرير نحو 50%، لتقترب من ستة ملايين برميل في اليوم. بل ان بعض هذا الاستثمار يوظَّف في الولايات المتحدة في مشروع موتيفا المشترك مع شل، لمعالجة شح طاقة التكرير في الولايات المتحدة.

لزياد الإنتاج، في المدى القريب»، وقالت إن هذه الجهود «تؤكد العزم على فعل ما تستطيع للمساعدة في العودة إلى أسعار معقولة». لكن السفير السعودي لدى الولايات المتحدة عادل الجبير قال للصحافيين في تكساس: «لن يتبدل الحال إذا زادت السعودية شحن مليون أو مليوني برميل في اليوم، إلى الولايات المتحدة. إذا كنتم لا تستطيعون تكريرها، فلن تتحول إلى غازولين، ولن تؤدي إلى هبوط الأسعار».

وقالت المجلة أيضاً إن برنامج المملكة لزيادة الإنتاج «جبار»، في كلا قطاعي النفط والغاز. فمن 11 مليون برميل في اليوم الآن ستزيد مشاريع توسيع الإنتاج مقدار ما تنتجه المملكة في اليوم، سنة 2009م إلى 12.5 مليون برميل، على الرغم من أن بعض الحقول يذوي وبعض البنى التحتية يشيخ. والزيادة المرتقبة، من جراء هذا الجهد، سيعوض التراجع ويتخطى إنتاج اليوم. فالمشاريع الجديدة



corbis

وتعمل مع شركاء دوليين في تطوير عدد من مجمعات التكرير والبتروكيمياء، عالمية المستوى في المملكة، لتلبية طلب العالم المتزايد منتجات مكررة ومواد بتروكيميائية ومشتقات.

«الشجاعة السعودية»

وقد لاحظت مجلة «بتروليوم إكونومست» التي تحظى باحترام واسع في المحافل الرصينة في العالم، في عددها الصادر في يونيو 2005م «جهود المملكة العربية السعودية الشجاعة

لن تضيف 1.5 مليون برميل في اليوم، بل 2.3 مليونين، إلى طاقة الإنتاج. ذلك أن تراجع الإنتاج السنوي من خلال الحقول والبنى التحتية القائمة، يراوح بين 8 و10%. ولا يقتصر الجهد السعودي على زيادة طاقة الإنتاج بل يسعى كذلك في زيادة طاقة التكرير في المملكة.

ففي السنة الماضية أضيف 300 ألف برميل في اليوم إلى طاقة التكرير في حرض. وفي السنة الجارية تضاف 500


corbis

ألف برميل أخرى. وتمضي أيضاً على قدم وساق مشاريع فصل الغاز عن النفط في عدد من المواقع. ويعد مشروع أرامكو السعودية في خريص، وتكلفته 5 مليارات دولار أمريكي، أكبر مشروع تطوير سعودي نفطي في عقود من الزمان. فبالإضافة إلى معالجته 1.2 مليون برميل في اليوم، من النفط العربي الخفيف جداً، سيعالج أيضاً 115 مليون قدم مكعبة من الغاز في اليوم، و120 ألف برميل من الغاز الطبيعي المسال في اليوم. ناهيك بمشاريع حقل الشيبة في الربع الخالي وحقل النعيّم.

...الذُّرَة الأمريكية

وفيما لا بد من الاغتباط بتطوير مصادر طاقة متجددة ونظيفة واقتصادية، إلا أن نظرة إلى مراحل هذا التطوير في العالم، تشير إلى ضرورة تعزيز الجهود، وإلى عدم التسرع في القول بإمكان الاستغناء عن النفط.

فقد كتب كبير مراسلي جريدة «تشيكاغو تريبيون» غريغ بيرنز الخريف الماضي، مقالة استعرض فيها ما سماه «انفجار الذُّرَة» وكان عنوانها: «الإيثانول: نعمة أم نقمة؟»، وأوضح الهجمة المتسارعة في بعض الولايات الأمريكية الزراعية لتوسيع زرع الذُّرَة، من أجل غرض استخراج الإيثانول، وهو وقود غير أحفوري، بل نباتي متجدد.

قال بيرنز إن ولايتي أيوا وإيلينوي وغيرهما تشهد إقبالاً لا نظير له على إنشاء مصانع الإيثانول، فيما يشتد طلب هذه المصانع الذُّرَة، من أجل تخميرها واستخلاص الوقود النباتي منها. ففي ولاية إيلينوي وحدها رصد 290 إعلاناً لعزم مستثمرين على إنشاء مصانع إيثانول. وفي الولاية الآن (أي الخريف الماضي) 6 مصانع تعمل فعلاً، ومصنع قيد الإنشاء، و34 طلب إنشاء مصنع. وروت المقالة عن مزارعين في ولاية أيوا، كيف تفرّخ المصانع على مقربة من الأراضي والقرى الزراعية في كل اتجاه. ويحرّك هؤلاء المستثمرين مليارات الدولارات خصصتها الإدارة الأمريكية حوافز لمن ينشئ مصانع في هذا القطاع الجديد. أما المدن التي أنهكها الاقتصاد الراكد في الغرب الأوسط، فأقبلت على هذه المشاريع لمحاولة الخروج من وضعها هذا.

وأخذت المقالة تعدد الوجه الآخر من هذه العملة، والخطر المحدق بالصناعة الجديدة:

1 – فماذا لو تحول كل إنتاج الذّرة إلى صنع الإيثانول، وتوقف تصديرها. ماذا يحدث لكل الشركات والبنى التحتية المعدة أصلاً للتصدير، من أدوات تحميل وسفن شحن تعبر نهر المسيسيبي وغيره؟

2 – وماذا يحدث لقطعان البقر والدواجن الهائلة التي تعيش من الحبوب، لو تحولت هذه الحبوب إلى إنتاج الإيثانول، وماذا يحدث لسعر العلف حينئذ؟

3 – وماذا يحدث للبيئة الزراعية من جراء مستوى التلويث الذي ستأتي به هذه الصناعة إلى منطقة زراعية هي محور النتاج الزراعي الأمريكي، وما سيكون موقف المزارعين من هذه المصانع؟

4 وماذا يمكن أن يحدث إذا واصل سعر البنزين الأمريكي الهبوط من مستواه القياسي الذي أدركه الصيف الماضي، وماذا لو ظل سعر النفط في حدود معقولة؟

5 – وماذا لو اكتشفت المدن الكبرى أن مصانع الإيثانول ينبغي أن تنشأ بالقرب من المستهلكين، لا في الحقول الزراعية، لأنها أقدر على إدارة الصناعة من المناطق الريفية؟

6 – وماذا لو اكتشف العلماء نباتاً آخر أرخص من الذّرة، وأسهل زرعاً، يمكن صنع الوقود النباتي منه، بعد أن تكون مليارات لا تعد قد استثمرت في هذا القطاع؟

7 – وماذا لو حدث في كل عام ما حدث السنة الماضية لمصنعين ينتجان الإيثانول، حين تكدس إنتاجهما، واضطر مصنع ثالث إلى تأجيل عرض أسهمه على الجمهور نظراً لوضع السوق غير الملائم؟

وبعد كل هذه المخاوف التي خرج معظمها من عالم الافتراض والتحسب إلى عالم الأمر الواقع، عرضت

المقالة تجربة بعض المستثمرين في القطاع، ومنهم ديفيد سيكوتا، الذي قال: «إن بعض هذه المدن (المقبلة على حُمّى الإيثانول) ستتلقى جرعة من حس الواقع من حقائق صناعة الطاقة، فهي نقيض ما تعودوه».

واستعرضت المقالة بعض أرقام الإنتاج في زرع الذّرة وصنع الإيثانول، وهي تبين أن الأمريكيين ينتجون نحو 11 مليار بوشل (البوشل مقياس للحبوب يساوي 32.5 ليتر تقريباً) من الذرة في السنة، وأن صنع الإيثانول استهلك السنة الماضية نحو مليار بوشل، أي 20% أكثر من السنة التي سبقت. وسيواصل الطلب الزيادة ما دامت المصانع تطلب المزيد، على ما يرى خبراء سوق الحبوب. ويستهلك المصنع الذي ينتج 100 مليون غالون في السنة من وقود الإيثانول، إنتاج 200 ألف هكتار من الحبوب. وتبدو صهاريج تخمير الحبوب بسيطة في الظاهر، وتوضع فيها الذرة مع الماء والخميرة. وبعد التخمر يقطر السائل ويستخرج منه الوقود. وتمزج الكحول الناجمة من التقطير بالكازولين، وأما المتخلف من الذرة فيُطعم للمواشي. غير أن بعض المواشي وكل الدواجن لا تأكل هده المخلفات، التي يأكلها البقر. وهذا يعني تبديل كل صناعة تربية المواشي وإحلال البقر محل كل ما عداها، حتى الدواجن، التي سيرتفع سعرها ارتفاعاً لا يمكن التكهن به.

> سبعة أسباب اقتصادية وبيئية تضع علامة استفهام على مصير الذُّرة مصدراً بديلاً مشكوكاً فيه للزيت

وإذا كانت سوق الوقود تحتاج إلى الاستقرار في الإنتاج وثبات وتيرة تدفق المنتجات إلى السوق، فماذا تفعل صناعة الإيثانول في مواسم الجفاف وأوبئة المرض التي تصيب الزراعة من حين إلى آخر؟

وفوق هذا تراكم في ملفات مصانع الإيثانول سجل بيئي غير مشرق، حتى أن 83% من المصانع العاملة في صنع الإيثانول، كانت لها قضايا بيئية مع وكالات الرقابة، حسبما يقول المدعي العام في ولاية إيلينوي. ويخشى صاحب الأراضي تشاك فنفرتلو تلوث الهواء والمياه الجوفية، وتؤرقه فكرة مئات الشاحنات وهي تذرع الحقول جيئة وذهاباً، حيث يركب أولاده الدراجات الهوائية إلى مدارسهم. وفي بلدته، أسس صاحب مصرف محلي جمعية من السكان لمعارضة إنشاء مصنع خُطط لإقامته في الجوار. وفي بلدة أخرى وصل الأمر بالسكان إلى رفع دعاوى تتهم بعض الموظفين الرسميين بمخالفة القوانين في مسائل تتعلق بمصانع الإيثانول. وشكت بلدات غير هاتين، روائح كريهة تصدرها مخامر الإيثانول، على نحو قد يجعل تكلفة الوقود الجديد البيئية، تكلفة باهظة.

اليابان والذَّرَّة

ولا تبدو الطاقة الذرية في حال أفضل الآن من الطاقة المستخلصة من النبات في هذه المرحلة من مراحل تطويرها. إذ ترى «بتروليوم إكونومست» أن «الزيت لا يزال مصدر الطاقة المسيطر في اليابان. كان يبلغ 77% من الحاجة إلى الطاقة. وتراجع الاستهلاك قليلاً في مرحلة الركود الاقتصادي، لكنه الآن (2005م) يبلغ 5.3 ملايين برميل في اليوم. ويتوقع أن يشتد الطلب في المستقبل فيضغط على شركات النفط لتوفر المزيد من المدد».

وتضيف المجلة المتخصصة، أن 90% من النفط الذي تستورده اليابان يأتي من الشرق الأوسط. ولذا تهتم اليابان بمشاريع الغاز في أقصى شرق سيبيريا. وتتخذ مركزاً في مشاريع أخرى في أذربيجان وكازاخستان.

وليست اليابان استثناء، فالصين أيضاً، وهي منتج كبير للنفط والفحم، لا تكتفي بإنتاجها، لتلبية الطلب المتعاظم. والحق أن طلب الطاقة الآن هو أحد أكبر التحديات التي تواجه النمو المستدام في شمال شرق آسيا. ومع ان نفط الشرق الأوسط يتوقع أيضاً أن يلعب دوراً في تلبية الطلب الإقليمي (في هذه المنطقة) في المدى البعيد، فثمة بدائل.

وذكرت المجلة أزمة «طوكيو إلكتريك باور» (شركة الطاقة الكهربائية في طوكيو) التي اضطرت إلى وقف العمل في 17 مفاعلاً ذرياً سنة 2004م، بعد ظهور شقوق سنة 2002م في



بعض مفاعلاتها. وهي أكبر شركة طاقة خاصة في العالم. وقد أدت القضية إلى جعل اليابان أشد الدول في العالم في الاحتياط الذي تتبعه لأمان محطاتها الذرية، لكن هذا شيء واستعادة ثقة الناس في أن استخدام الطاقة الذرية آمن شيء آخر.

وحادثة تشرنوبيل في أوكرانية، في العهد السوفياتي ليست بعيدة عن الذاكرة. كذلك لا تسير أمور الطاقة الذرية في العالم بيسر وسهولة، مع اشتداد ساعد المنظمات البيئية، وتحرك السكان المحليين في كل مرة يظهر مشروع لإنشاء محطة ذرية هنا وهنالك. وإذا علمنا أن اليابان كانت تمتلك في سنة 2005م أربعة وخمسين مفاعلاً ذرياً لإنتاج الطاقة الكهربائية، وأن إنتاج هذه المفاعلات يسد 34% من حاجة البلاد إلى الطاقة الكهربائية، لأدركنا ضخامة المشكلة. ومن هنا، نشأت الحاجة إلى إعادة الثقة إلى القطاع وبه، باتخاذ ما يلزم من خطوات تكنولوجية وقانونية ورقابية وحتى سياسية.

17 مفاعلاً ذرياً في اليابان أوقف عملها بسبب شقوق فيها.. وحادثة تشيرنوبيل وغيرها أسباب قوية للارتياب في علاقة الذرَّة بالبيئة!

الطاقة والتنمية

الطاقة تلعب دوراً مهماً في حياة الأفراد والمؤسسات في العالمين المتقدم والنامي. وفي أجزاء كثيرة من العالم، لا يزال يفتقر نحو 2.4 بليوني نسمة إلى أي نوع من خدمات الطاقة المعاصرة. ووفقاً لبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة، يعد الحصول على الطاقة المعاصرة ضرورياً لخفض نسبة الفقر إلى النصف بحلول العام 2015م، وهذا هدف يلقي بظل ثقيل على البيئة وصناعة الطاقة.

هذه القضايا حقيقية، ولا حلول بسيطة لها، بل انها تحتاج إلى معالجة يشترك فيها جميع الأطراف المعنية، مستهلكين ومنتجي طاقة وحكومات. ولما كان العالم يواجه مستقبلاً يحتاج فيه إلى الطاقة المشتقة من جميع المصادر، ولما كانت مصادر الطاقة البديلة تحتاج إلى وقت حتى تتمكن من النمو والإسهام في مدد الطاقة العالمي، فلا بد من إلقاء نظرة أقرب، على مصادر الطاقة الكبرى في السنوات القادمة. فإذا تجاهل العالم أهم مصادر الطاقة في العقود القادمة ومن أبرزها الزيت فإن هذا الإهمال يحبط المساعي البيئية والاقتصادية التي وضعها العالم نصب عينيه. فالحصول على طاقة اقتصادية ومضمونة المصدر ضروري لتعزيز الرفاه ومكافحة الفقر وتحسين مستوى عيش المجتمعات ودفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وفي الوقت نفسه، على عاتق المسؤولين تجاه الأجيال الحاضرة والقادمة مسؤولية حماية البيئة وأنماطها الطبيعية. وما يتقرر بشأن الطاقة، لا بد وأن ينسجم مع ما يتقرر في أمر التنمية الاقتصادية والبيئة. وهذا هو التحدي الحقيقي.

طاقة مساندة

يستهلك العالم اليوم نحو 210 ملايين برميل في اليوم من مكافئ النفط، معظمها من عدد محدود من المصادر، ومنها المصادر المتاحة للولايات المتحدة نفسها. فالزيت يسد نحو 40% من حاجة العالم إلى الطاقة، فيما يسد كل من الفحم والغاز الطبيعي أقل قليلاً من ربع الحاجة، وتلبي الطاقة المائية وبدائل أخرى نحو 8%، والطاقة النووية 6%. وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام بمصادر الطاقة المتجددة والبدائل الأخرى، لا يزال الوقود الأحفوري، أي الفحم والزيت والغاز، يستحوذ على 85% من مجموع مدد الطاقة في العالم. ولما كان عدد بدائل مصادر الطاقة الممكنة محدوداً، فلا مفر من الاعتراف بأن الخيار المتاح لواضعي سياسة الطاقة والمنتجين والمستهلكين، خيار محدود نسبياً أيضاً. ومرونة الاختيار المتاحة للعالم مرهونة بالأفق الزمني المتاح، ولعل المستقبل يتيح متسعاً أرحب للاختيار.

ولا يغيب عن العارفين أن لكل من قطاعات الطاقة حركته الخاصة بمصادره. فلتوليد الكهرباء مثلاً ثمة مصادر تسهم كثيراً. إذ يعتمد قطاع توليد الكهرباء في الولايات

المتحدة، طبقاً لوزارة الطاقة الأمريكية، على الفحم في نصف حاجته تقريباً، ويسد الغاز والطاقة النووية نحو 19% من الحاجة، والطاقة المائية 7%. ويسهم الزيت بنسبة 3% فقط من الوقود المستخدم لتوليد الكهرباء، فيما تسد الحاجة الباقية، ونسبتها 2%، مصادر الطاقة المتجددة الأخرى غير الطاقة المائية. وفي مقابل التنوع النسبي في مصادر الطاقة لتوليد الكهرباء، تجد أن الزيت هو مصدر نحو 97% من حاجة قطاع النقل، فيما يسد حاجة النسبة الباقية، الغاز المضغوط والوقود الحيوي والمصادر الثانوية الأخرى.

الوقود المفضَّل

والأسباب التي تجعل الزيت الوقود المفضَّل في قطاع النقل البالغ الأهمية واضحة، بعدما أثبتت التقنية المعتمدة على الزيت كفاءتها 150 سنة تقريباً، وهي تقنية لا تزال تتطور. كذلك يمتاز الزيت بوفرته وانتشار البنية الأساسية المرتبطة به في كل زوايا العالم، تنقيباً وإنتاجاً ومعالجة وشحناً وتخزيناً وتوزيعاً، علاوة على تركّز محتوى الطاقة فيه وجهوزه للنقل.

ويقول جمعة: «ليس التزام أرامكو السعودية تجاه الأطراف التي تخدمها، مجرد أنابيب ومشاريع نفط، بل شراكة واستمرار في الوفاء بالوعد. فقبل نحو 75 عاماً، منحت المملكة العربية السعودية إحدى الشركات الأمريكية امتيازاً للتنقيب عن الزيت في المنطقة الشرقية من المملكة. وكان هذا الاتفاق بمثابة الأساس لنشأة أرامكو السعودية وتطورها، وعليه فلم ننس أبداً خلال العقود السبعة الماضية تلك القوة الهائلة التي حصلنا عليها من هذه الشراكة. وندرك اليوم أن استمرار نجاح شركتنا مرتبط بمدى قوة الاقتصاد الأمريكي والسوق الأمريكية. ولقد ظلت أرامكو السعودية سنوات عديدة واحداً من أكبر المصدرين للزيت إلى الولايات المتحدة، للمساعدة في المحافظة على مستوى عيش مرتفع ودفع عجلة تنمية الاقتصاد في هذا البلد».

ويضيف قوله: «وبقدر ما تتطلع الولايات المتحدة إلى طاقة المملكة العربية السعودية، نتطلع نحن إلى الولايات المتحدة، فنحن في المقام الأول بحاجة ماسة إلى السوق الأمريكية وإلى إيراد صادراتنا إليها، قدر حاجة هذا السوق إلى نفطنا. وأمريكا بمثابة القاطرة التي تحرك اقتصاد العالم، وهي بذلك تساعد في المحافظة على طلب العالم سلعتنا الأساسية، الزيت الخام. وبصفتنا منتجاً للطاقة، نعوِّل على قوة اقتصاد العالم، وهذا الاقتصاد يعوِّل على الولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أن العديد ممن نتعامل معهم من شركات النفط وشركات البضائع والخدمات الممتازة ومؤسسات البحث والتعليم موجودة في الولايات المتحدة. ومن ثم فما زلنا نتطلع إلى علاقات عمل مع الشركات الأمريكية، لسمعتها العريقة في مجال الابتكار والإبداع والخدمات الهندسية وخدمات حقول الزيت الرفيعة، كذلك نتطلع إلى معداتها البالغة الدقة والتطور، التي نستخدمها في جميع مواضع العمل لدينا. وما من شركة أو دولة، مهما يكن قدرها وإمكاناتها، تستطيع مواجهة هذه التحديات أو اغتنام هذه الفرص منفردة. بل ان تلبية طلب العالم المتزايد للطاقة، وفي الوقت نفسه حماية كوكبنا، يحتاجان إلى أسلوب عملي تتكامل فيه هموم المنتجين والمستهلكين وكل المؤثرين في سياسة الطاقة، وإسهامهم جميعاً».

وقال: «دعونا إذن نبذل جهودنا بالتزامن على مختلف الصعد، لطرح مصادر الطاقة البديلة المتنوعة في السوق والعمل لتطوير استخدام أنظف وأجدى للمصادر الهيدروكربونية الحاضرة، والسعي في تقليل الآثار البيئية الناجمة من استخدام الطاقة. فبتنسيق جهودنا والبناء على قاعدة صلبة من الموارد والثقة والشراكة، سننجح إن شاء الله في صنع مستقبل الطاقة المستدامة، الذي نستحقه وتستحقه بلدان العالم».

السوق السوداء..

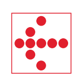
خلف شارع الاقتصاد العالمي



عندما يسمع أحدنا عبارة «السوق السوداء» تتبادر إلى ذهنه عملية بيع وشراء غامضة المعالم ومخالفة للقانون بدليل قيامها في الظل وبعيداً عن الأعين. الكاتبة الصحافية بهاء الرملي* تؤكد هنا أن هذا التعبير يشير إلى ما هو أضخم بكثير مما قد يرتسم في الأذهان حوله، وذلك من خلال هذه الجولة على مختلف «متاجر» هذه السوق، وأحجامها الاقتصادية التي باتت تشكِّل تحدياً عملاقاً لحكومات العالم وشعوبه واقتصاداته.

* باحثة اقتصادية

corbis



تجتاح العالم ظاهرة الاتجار بالسلع والمنتجات في السوق السوداء بأسعار تقل عن السعر الحقيقي أو تزيد عليه أضعافاً وفقاً لطبيعة السلعة والظروف التي تتحكم في سوقها. وهذه الظاهرة ليست غريبة عن المجتمعات على وجه الأرض، بل هي قديمة قدم التعاملات التجارية وإن لم تكن عرفت شكلها المنظَّم كما هو اليوم.

وفي الواقع، انتشر هذا النوع من التجارة السوداء في الحرب العالمية الأولى، عندما اضطرت الدول إلى تقنين المواد الأولية الضرورية للمجهود الحربي، واضطر المواطنون إلى تأمينها من السوق غير المعلنة. وازدهرت السوق السوداء مع الحرب العالمية الثانية بسبب التقنين الصارم ومراقبة الأسعار. وشجعت الأرباح الطائلة التي جناها التجار على استمرار هذه السوق بعد الحرب وهي ما زالت مستمرة إلى اليوم وبزخم أكبر، مستفيدة من مناخات أشاعها انفتاح الأسواق وثورة المعلومات والاتصالات وسهولة التعامل التجاري عبر الإنترنت.

وقبل الخوض في تفاصيل السوق السوداء لا بد من تعريفها ووصف طبيعة عملها. فعبارة «السوق السوداء» مصطلح شاع استخدامه للإشارة إلى أي نشاط تجاري خارج السوق الرسمية وخلافاً للقانون بعيداً من رقابة السلطات المحلية والدولية. ويمكن أن تكون السلع والمنتجات المعنية بهذا النشاط على مستويين من الأسعار قياساً على السعر الطبيعي. فقد تكون أعلى منه نظراً إلى أهميتها الحيوية وصعوبة الحصول عليها لندرتها أو بسبب تقنينها، أو أقل لأنها مسروقة أو مهربة.

تهرب من الضرائب وغسل أموال

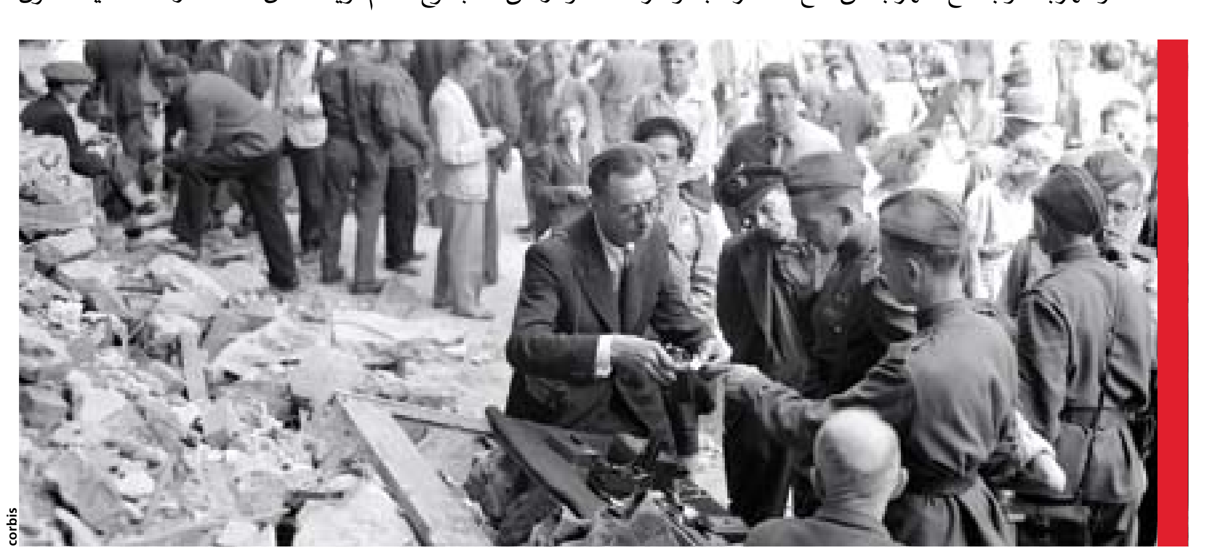
وفي الواقع هناك نوعان من الممارسة التجارية غير الشرعية. أولاً الاتِّجَار بمواد يحظرها القانون مثل الأسلحة والمخدرات، وفي بعض الدول الدعارة والسجائر والكحول على سبيل المثال. ثانياً، الاتِّجَار بسلع ومنتجات لا حظر قانونياً عليها لكن التعامل بها بعيد من رقابة السلطات إما لأنها مسروقة أو مقلدة أو مهربة، أو بدافع التهرب من دفع الضرائب، وتعرف الحال الثانية باقتصاد «تحت الأرض» أو الاقتصاد الخفي، واصطلح في الحالين على تسمية أي نشاط تجاري بصورة غير شرعية بالسوق السوداء.

وإذا كان النوع الأول مرتبطاً حكماً بالجريمة والمافيا، فإن القصد الأساسي من النوع الثاني هو التهرب من الضرائب على أنواعها وهو يشمل نقل الأموال المحققة من نشاط غير شرعي إلى دول لا تفرض ضريبة على الأموال وتكون عادة مقراً لغسل الأموال وتعرف اصطلاحاً باسم «جنات ضريبية». ويميل العاملون في هذه السوق إلى توظيف عائداتهم منها في شبكة واسعة من المنتجات المقلدة أو في نشاطات غير شرعية.

وحتى الآن لم يوفق أي مرجع أو جهة محلية أو عالمية في تقدير الحجم الحقيقي للسوق السوداء، إلا أن من حاول ذلك من الاقتصاديين في العالم استند إلى تقدير حجم كتلة الأموال في بلد معين، رغم أن هذا التداول يتم عادة عبر عمليات مصرفية في جنات ضريبية يصعب رصدها، والناتج المحلي لهذا البلد وملاحظة الفارق بينهما، فيقود الفارق بين نمو الناتج المحلي ونمو هذه الكتلة إلى استخلاص حجم هذه السوق. غير أن الاقتصاديين لا يجمعون على واقعية هذه الطريقة ويرى بعضهم أنها تفتقر إلى الدقة.

حجمها.. بات يقارب تريليون دولار

على أي حال، تشير تقديرات تقريبية استقتها مراكز بحوث عالمية من الأمم المتحدة ومراجع متنوعة، إلى أن حجم السوق السوداء بكل أنواعها قُدِّر عام 2005م بنحو 987.059 بليون دولار أمريكي موزعة على 5 فئات من العمليات كالآتي: تقليد السلع وقرصنتها 518 بليون دولار، تجارة المخدرات 321.6 بليون، منتجات للبيئة 55.7 بليون، السلع الاستهلاكية 37.5 بليون، الأسلحة الخفيفة 10 بلايين دولار لعام 2005م. وتقدر هذه الإحصاءات حجم البضائع المهربة بـ 763.89 بليون دولار من المجموع العام. ويعتقد أن المصادر الأساسية للسوق



corbis

السـوداء عموماً هي في حدود 587 موقعاً في العالم، أما السلع المهربة الأساسية فحُصرت بنحو 51 نوعاً مصدرها 62 بلداً.

وصنفت هذه الإحصاءات مصادر التهريب وحجمه في 6 مجموعات جغرافية، وذكرت حجم عمليات التهريب في كل منها وفقاً للترتيب الآتي: الولايات المتحدة الأمريكية 290 بليون دولار، آسيا (21 دولة) 188.18 بليون دولار، أوروبا (19 دولة) 93.6 بليون، دول الأمريكتين (عدا الولايات المتحدة) 68.66 بليوناً، الشرق الأوسط (4 دول) 4.73 بليونات، وإفريقيا (5 دول) 893.3 مليون دولار.

الدواء المهرَّب.. مزوَّر وكثير منه سام وقاتل والرقابة الشديدة في الدول المتقدمة تحصر انتشاره في أضيق مجال

وفي البضائع المهربة أحصي 37 صنفاً يفوق حجم كل منها 5 مليارات دولار واحتل صدارتها مخدِّر الماريجوانا بـ 141.80 بليون دولار، منتجات تكنولوجية مقلدة 100 بليون دولار، مخدر الكوكايين 70.45 بليوناً، مخدر الأفيون والهيروين 64.82 بليوناً، قرصنة أفلام الإنترنت 60 بليوناً، الأدوية المقلدة 40 بليوناً، الاتجار بالبشر 32 بليوناً، السجائر المهربة 27.75 بليوناً، تهريب الحيوانات البرية 20 بليوناً، قرصنة الأفلام 18.2 بليوناً، قطع السيارات المقلدة 12 بليوناً، النفايات المهربة (عادة تكون نفايات سامة) 11 بليوناً، و10 بلايين دولار لكل من تهريب البشر وتهريب قطع الآثار.

وتراوح قيمة المهرب من باقي الأصناف بين 5.2 بلايين و3.7 بلايين دولار. وتشير المصادر الإحصائية إياها إلى عدم القدرة على تقدير حجم المعلومات المهربة وجوازات السفر المزورة. أما الدول العشر الأولى المعنية بالسوق السوداء فهي: الولايات المتحدة الأمريكية 290 بليون دولار، اليابان 84 بليوناً، الصين 79.5 بليوناً، ألمانيا 32.25 بليوناً، كندا 30 بليوناً، روسيا 21 بليوناً، المكسيك 20 بليوناً، المملكة المتحدة 19.5 بليوناً، و14.2 بليوناً لكل من كوريا الجنوبية والبرازيل.

بلايين الاستغلال

وإذا كانت السوق السوداء كممارسة مدانة أخلاقياً، (عدد كبير من الناس يرفض شراء سلع مهربة لهذا السبب، أو بسبب صعوبة مساءلة البائع في حال الخطأ الصناعي)، وموضع ملاحقة قانونية تقضي بمصادرة البضائع وتغريم صاحبها وأحياناً سجنه، فإن الاتجار بالبشر والاتجار بسلع تلحق بهم أذىً مادياً وجسدياً ومعنوياً، حمل المنظمات الدولية على التحذير من خطورة هذه الممارسة وتعريض من تمارس في حقهم للاستغلال والابتزاز. وفي هذا السياق حذرت الأمم المتحدة من تجارة المخدرات وأثرها في الأشخاص والمجتمعات، ليس فقط بسبب الأذى المباشر على المتعاطين بل أيضاً لارتباطها بالمافيا والعنف والجريمة.

ولا يقل عن خطر المخدرات خطر بيع الأدوية المزورة لأنها لا تحتوي على مواد فاعلة بل إنها تحتوي في كثير من الأحيان على مواد سامة تؤدي إلى الموت. هذا الواقع استدعى تدخل منظمة الصحة العالمية التي عملت على وضع قانون نموذجي وحض الدول على تعديل قوانينها بما يتلاءم معه بهدف التخفيف من خطر هذه الأدوية إذا تعذر القضاء عليها. وتقدِّر المنظمة بـ 50% نسبة الأدوية المزورة المبيعة عبر الإنترنت، وبـ 30% حجم الأدوية المزورة المبيعة في دول إفريقيا جنوب الصحراء ودول أمريكا اللاتينية، وبـ 20% في دول الاتحاد السوفياتي السابق، فيما تتدنى هذه النسبة إلى 1% في الدول المتطورة حيث الرقابة شديدة.

ومن التلاعب بصحة الناس إلى التلاعب بهم مباشرة عبر تهريبهم من الدول الفقيرة إلى الدول الصناعية المتقدمة لقاء كلفة باهظة، حيث يقيمون بصورة غير شرعية ويتعرضون لشتى أنواع الاستغلال والقهر، وهم الهاربون في معظمهم من بطالة وفاقة وقهر يمارس عليهم في بلدانهم. وتشكِّل إفريقيا ودول العالم الثالث عموماً مصدراً مربحاً لممتهني تجارة البشر. ورُصِدت جزر الكناري أخيراً كمركز لتهريب البشر بين إفريقيا والعالم الغربي.

إلى ذلك يشكِّل مواطنو الدول الفقيرة، لا سيما في شرق آسيا والبرازيل وإفريقيا، منجماً للأعضاء الحية التي يطلبها



corbis

المرضى من أثرياء العالم المتقدم (يقدَّر عدد المرضى الأوروبيين الذين ينتظرون كلية بنحو 40 ألف شخص).

«كل شيء قابل للبيع» وفقاً لمنظمة الصحة العالمية، كُلَى، صمامات قلب، عيون، أجزاء من الدماغ، الخ... وينخرط في مافيا هذه السوق أجهزة طبية متكاملة بدءاً من سائق سيارة الإسعاف إلى الممرضين والأطباء ومديري المستشفيات وأقسام الطوارئ فيها وتجار الأعضاء الذين لم يوفِّروا حتى الأموات من ضحايا تسونامي عام 2004م في دول شرق آسيا فاستأصلوا أعضاءهم.

بضائع السوق السوداء منوَّعة: من المخدرات إلى المصنوعات المزوَّرة فالمواد الفنية المنسوخة، إلى: الأعضاء البشرية المسروقة من أصحابها!

وتقف السلطات الأمنية والشرطة عاجزة عن الحد من نشاط هذه السوق لأن الأطباء يتذرعون بأخطاء طبية لتبرير موت مريض أو استئصال أحد أعضائه السليمة. وتختلف أسعار «قطع الغيار البشرية» وكلفة زرعها باختلاف الدول المصدِّرة والدول المستوردة. فبين الهند ومولدافيا مثلاً، يراوح سعر الكلية بين 200 و3000 دولار، وتراوح كلفة الزرع بين 10 آلاف دولار و200 ألف دولار بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. غير أن هذه الكلفة لا تتعدى بضعة آلاف من الدولارات في الدول النامية التي اشتهرت بهذه التجارة. والأسوأ من كل ما تقدَّم هو أن بعض الدول الفقيرة تسجل فيها عمليات تبنٍ مزيفة بهدف استغلال الأطفال المتبنين في تجارة الأعضاء أو لاستغلالهم جنسياً. ويقدَّر حجم الاتجار بالبشر وتهريبهم وبيع أعضائهم في هذه السوق السوداء بـ 42.5 بليون دولار.

في مجال المعالجة القانونية تبدو فرنسا الدولة التي تتبع تشريعاً وصف بأنه الأكثر إنسانية في العالم، كونه يمنع بشدة بيع الأعضاء لكنه يسمح للمستشفيات باستعمال أي عضو حي من شخص متوفى ما لم يكن قد أوصى بغير ذلك. وكذلك فعلت كندا بالنسبة إلى الاتجار بالبويضات لأزواج لا ينجبون فسمحت بالتبرع بها ومنعت بيعها تحت طائلة معاقبة من يدان بهذه التهمة بالسجن 10 سنوات. ويراوح سعر البويضة بين 5 آلاف و10 آلاف دولار أمريكي. وتبرر النسوة تصرفهن بالحاجة إلى المال. «نحن لا نقتل ولا نتاجر بالمخدرات، نحن نسعى إلى تحسين أوضاعنا المالية وننقذ في الوقت نفسه أزواجاً يئسوا من الإنجاب، وهذا أفضل من ترك البويضات تضيع في المجاري الصحية».

وللسجائر أيضاً قصة كبيرة مع السوق السوداء. 200 بليون سيجارة تُباع في هذه السوق سنوياً حول العالم، على الرغم من أن إحصاءات المنظمة العالمية للجمارك تشير إلى أن تهريب السجائر تراجع بنسبة 50% منذ عام 1997م نتيجة



corbis



corbis

لتشديد المراقبة. وتعد الصين في طليعة الدول التي تقلِّد علب شركات كبيرة، وتصل قيمة هذه التجارة هناك إلى 100 مليون دولار. وثمة مصانع كبيرة متخصصة في هذا المجال في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وعدد من الدول العربية في الخليج والمغرب العربي.

ولعل العمالة غير الشرعية هي أحد مظاهر السوق السوداء الأكثر تعبيراً عن استغلال البشر إلى حد الاستعباد. من خصائص هذه العمالة عدم استمرار العمل والصرف الكيفي والعمل لمدة محددة لساعات عمل طويلة قد تصل إلى 16 أو 18 ساعة يومياً، بالإضافة إلى غياب الضمانات الصحية والاجتماعية وظروف سكن غير صحية ونظام عمل صارم وأجور متدنية. وغالباً ما تفرض هذه الشروط غير الإنسانية على عمال أجانب يقيمون في البلد المعني من دون أوراق ثبوتية وتمارس عليهم ضغوط بإفشاء أمرهم للسلطات وترحيلهم من البلاد. وثمة من يحمِّل السوق الشرعية تبعة وجود سوق عمالة سوداء لأن وجودها يعني أن السوق الشرعية تعاني تشنجاً يحول دون نمو العمالة الشرعية. ومن المعوقات التي تؤخذ عليها كلفة العامل الشرعي التي تفوق قدرة صاحب العمل، وفتح الحدود أمام المنافسة غير الشرعية.

العمالة السوداء تغزو أوروبا

تشكِّل أوروبا الموطن الأول للعمالة غير الشرعية، وهي التي عرفت بأنها تحقق العدالة للجميع. وتؤكد الدراسات منذ مطلع الألفية الثالثة أن هذه العمالة تزداد بدلاً من أن تتراجع. ويعزو المراقبون هذه الظاهرة إلى انفتاح الأسواق والعولمة التي سرَّعت السوق السوداء بكل أشكالها، التي تتيح للدول الغنية أن تضغط على اليد العاملة الآتية من الدول الفقيرة بعد ما ضغطت وما زالت تضغط على مواردها. ويشكِّل الاقتصاد الخفي، وعماده المؤسسات الصغيرة التي تعمل لحساب مؤسسات كبيرة تحرص على أن تبدو وكأنها غير متورطة في هذه الممارسة، المستقطب الأساسي لهذا النوع من العمالة، وهي لم تستثن منها حتى الأطفال والنساء الذين يشكِّلون حلقتها الأضعف. وتشير الدراسات إلى أن حجم الاقتصاد الخفي تضاعف 3 مرات منذ 1974 إلى 1994م في دول أوروبا الغربية وهو ما زال يتصاعد. وفي طليعة الدول المعنية به: إيطاليا حيث ارتفعت نسبته من 10.7% عام 1970م إلى 25.8 عام 1994م ووصل في إسبانيا إلى 22.3% وارتفع في بلجيكا من 10.4% إلى 21.4%. وتأخذ الأمور منحىً مماثلاً حتى في الدول التي تقل فيها أهمية هذا الاقتصاد، ومنها ألمانيا، حيث ارتفع في الفترة نفسها من 3.4% إلى 13.1% وارتفع في فرنسا من 4% إلى 14.3% وفي الولايات المتحدة من 3 أو 4% إلى 9.4%. وهو ازداد نمواً بعد الجمود الاقتصادي الأخير، وباتت المؤسسات المعنية به تهدِّد بالانتقال إلى دول العالم الثالث، حيث كلفة الإنتاج أقل، إذا تعرضت لأي ضغوط بسبب ممارساتها. وسُجِّل في أمريكا أخيراً نوع من التهديد لشركات كبرى شرعية باتخاذ إجراءات في حقها إذا انتقلت للإنتاج في دول العالم الثالث لأن خطوة مماثلة ستقضي على عشرات ألوف فرص العمل.

أما القطاعات الأكثر استقطاباً للعمالة غير الشرعية التي تفتقر إلى أي مؤهلات علمية أو تقنية فهي البناء والزراعة والألبسة والنسيج والمطاعم والفنادق. ومن المناطق الجغرافية المعنية بهذه العمالة دول أوروبا الشرقية التي باتت تخضع لسيطرة رأس المال الأجنبي بعدما تحررت من سيطرة الاتحاد السوفياتي. ولدول أوروبا الوسطى أيضاً نصيبها من هذه السوق، إذ تفيد دراسات لجامعة لنتس «LINZ» أن الاقتصاد الأسود يشكل 23.8% من الناتج المحلي القائم في بولونيا، و31% من الناتج المحلي في المجر، و22.3% في سلوفاكيا.

العمالة غير الشرعية.. من الدول الفقيرة إلى الغنية.. وتهريب السلاح.. من الغنية إلى الفقيرة: الضحايا في الحالين بشر بعضهم استغلالاً والآخرون.. قتلاً!

أسلحة خفيفة وأسرار نووية

ويبقى للأسلحة الخفيفة نصيبها الوافر من السوق السوداء لا سيما وأن لها علاقة بالجريمة والمافيا وتجارة المخدرات. ويصل حجم هذه التجارة إلى 10 بلايين دولار سنوياً وفقاً لتقديرات الأمم المتحدة، أي ما يشكِّل بين 10 و20% من سوق تجارة الأسلحة الخفيفة. وتحظر بعض الدول استعمال هذه الأسلحة على الأشخاص العاديين وحتى على رجال الشرطة. وتشير التقارير إلى أنه بين عامي 1970 و1980م كان معظم هذه الحركة يتم بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية لإمداد زبائنهما في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بالأسلحة.

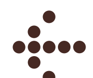
وفي هذا السياق، يسجل أن العائدات من تهريب الماس في إفريقيا تستعمل في تمويل شراء الأسلحة وغسل الأموال. وتقدر قيمة هذه السوق بنحو 280 مليون دولار. ومن المواد المتداولة في السوق السوداء، وإن على نطاق محدود قياساً على غيرها من السلع، والتي تثير اهتماماً خاصاً نظراً إلى خطورتها في تهديد الأمن العالمي، التكنولوجيا النووية المهربة، ويقدر حجم هذه التجارة بـ 100 مليون دولار.

معالجة مأمولة قد لا تأتي

وبغض النظر عن أضرار السوق السوداء ومساوئها على الصعيد الإنساني لجهة الاستغلال الفاضح للأشخاص إلى حد الإذلال في عملهم وتعريض حياتهم للخطر، يبقى خطرها الاقتصادي يثير قلق الدول المعنية بها لأنها تعيش على حساب الاقتصاد الشرعي، وتلحق أذىً كبيراً بالاقتصاد الوطني من خلال إيجاد فوضى اقتصادية تقلِّص وارداتها الضريبية، فيلحق هذا ضرراً بالخدمات العامة التي تقدمها حكومات هذه الدول إلى مواطنيها، وكذلك على الإعانات التي تسهم بها لدول فقيرة من خلال برامج حكومية أو من خلال منظمات ومؤسسات دولية. غير أن هذا الكلام لا يعفي حكومات الدول المتضررة من الاقتصاد الخفي من مسؤولية تشريعه بطريقة غير مباشرة بغض الطرف عن نشاط الضالعين فيه أو بعدم اتخاذ إجراءات قادرة على ضبطه إذا تعذر منعه. وقد أثبتت الأيام عدم القدرة على ضبطه.

على أي حال، فقد استنفر الاتحاد الأوروبي كل طاقاته ووضع نفسه في حال حرب مع هذه السوق، فأنشأ نظام تبادل معلومات بين الجمارك الوطنية لكل دولة من دوله فيما يتعلق بنشاط المهربين. ويهدف هذا النظام إلى كشف أي خرق للقوانين وملاحقة مرتكبيه بتعزيز المراقبة والتعاون بين الجمارك في الدول الأعضاء رغم حواجز اللغة، والسماح للتجار الشرعيين بملاحقة التجار غير الشرعيين والمهربين ومقلدي العلامات التجارية. ويشمل هذا النظام أيضاً جمع المعلومات عن البضائع والسلع وعن وسائل النقل والأشخاص والشركات المعنية بالتهريب ووجهات البضائع المهربة والإمكانات والكفايات المتوافرة لشبكات التهريب.

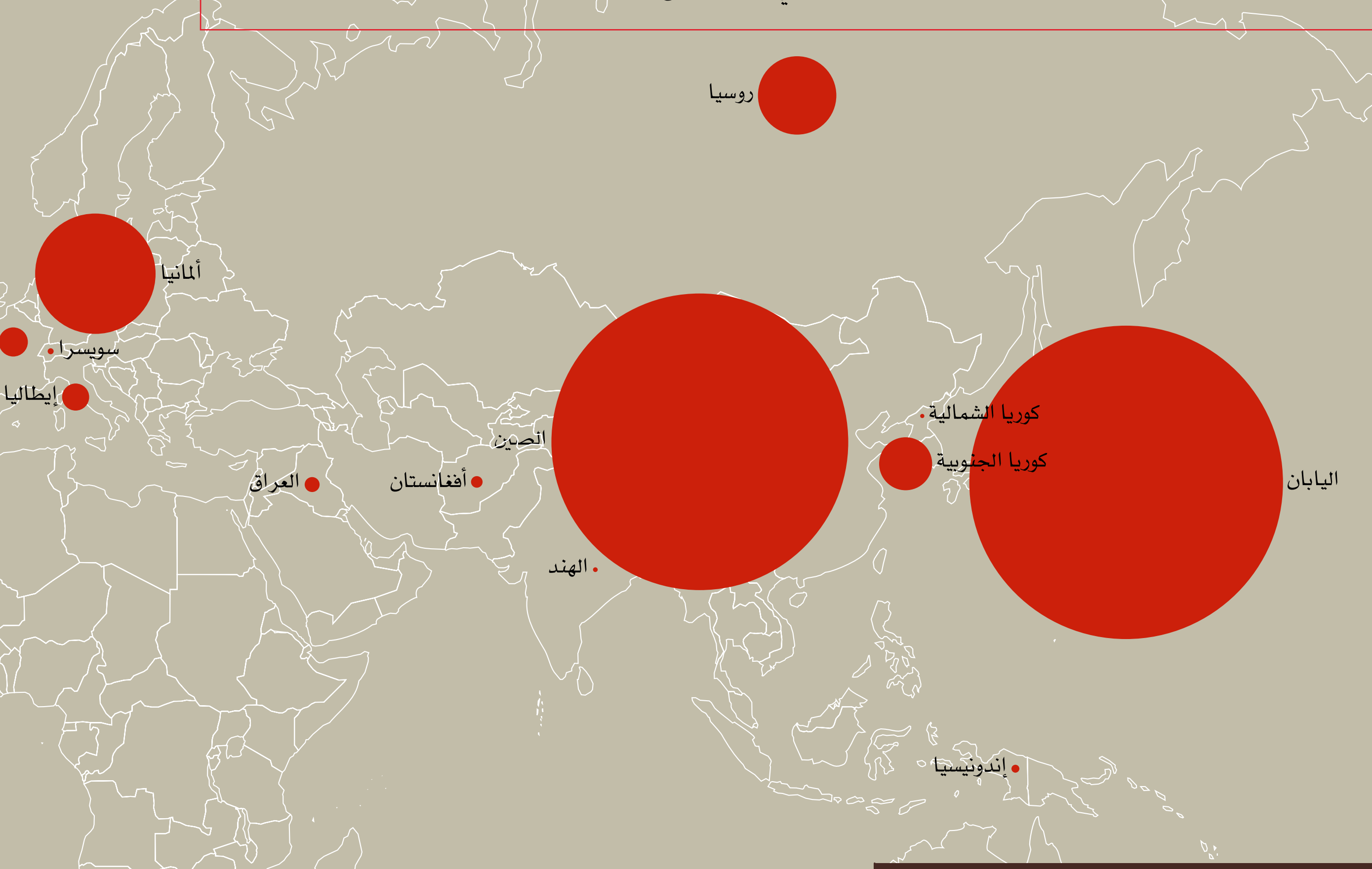
وفي محاولة لمعالجة هذه الظاهرة الخطرة وتخفيف أثرها في المجتمعات والاقتصاد، قدمت مجموعات من الاقتصاديين والباحثين حول العالم مقترحات حلول تمحورت في شكل أساس حول اعتماد الليونة الضريبية طالما أن أساس السوق السوداء تهريب الأموال تهرباً من الضرائب، وتخفيف إجراءات المنع فتتوافر السلع ويتراجع سعرها وتتحسن نوعيتها وتالياً تنكسر حدة السوق السوداء، وأيضاً اعتماد أنظمة عمل مرنة تخفف عن أصحاب العمل كلفة العمالة الشرعية واعتماد قوانين مرنة تشجِّع الاستثمار في السوق الشرعية. لكن ثبت حتى الآن أن المعالجة مهما اختلفت لجهة التشدد في القوانين أو ليونتها أو تجاهل تطبيقها، عمداً أو عجزاً، تظل السوق السوداء تنمو وتزدهر بإغراءات المال وباستعمال أدوات لم يفلح إلى الآن أي نظام اقتصادي أو أمني أو قضائي في اختراقها، لكن العالم لم يفقد الأمل بعد في الوصول إلى بداية طريق للتصحيح المنشود.





ترتيب الدول بحسب قيمة السوق السوداء فيها حتى مبلغ مليار دولار

1 – الولايات المتحدة الأمريكية 290 مليار دولار.
2 – اليابان 84 مليار دولار.
3 – الصين 79.5 مليار دولار.
4 – ألمانيا 32.25 مليار دولار.
5 – كندا 30 مليار دولار.
6 – روسيا 21 مليار دولار.
7 – المكسيك 20 مليار دولار.
8 – المملكة المتحدة 19.5 مليار دولار.
9 – كوريا الجنوبية والبرازيل 14.2 مليار دولار لكل منهما.
10 - فرنسا 7.8 مليارات دولار.
11 - إيطاليا 7.25 مليارات دولار.
12 – العراق 4 مليارات دولار.
13 – أفغانستان 3.1 ميارات دولار.
14 – البيرو 2.30 مليارا دولار.
15 – إندونيسيا 2.12 مليارا دولار.
16 – سويسرا 1.60 مليار دولار.
17 – الهند 1.26 مليار دولار.
18 – إسبانيا 1.15 مليار دولار.
19 – كوريا الشمالية 1.12 مليار دولار.
20 – كولومبيا مليار دولار.
بالاضافة إلى 40 دولة تقل قيمة السوق السوداء في كل منها عن مليار دولار.



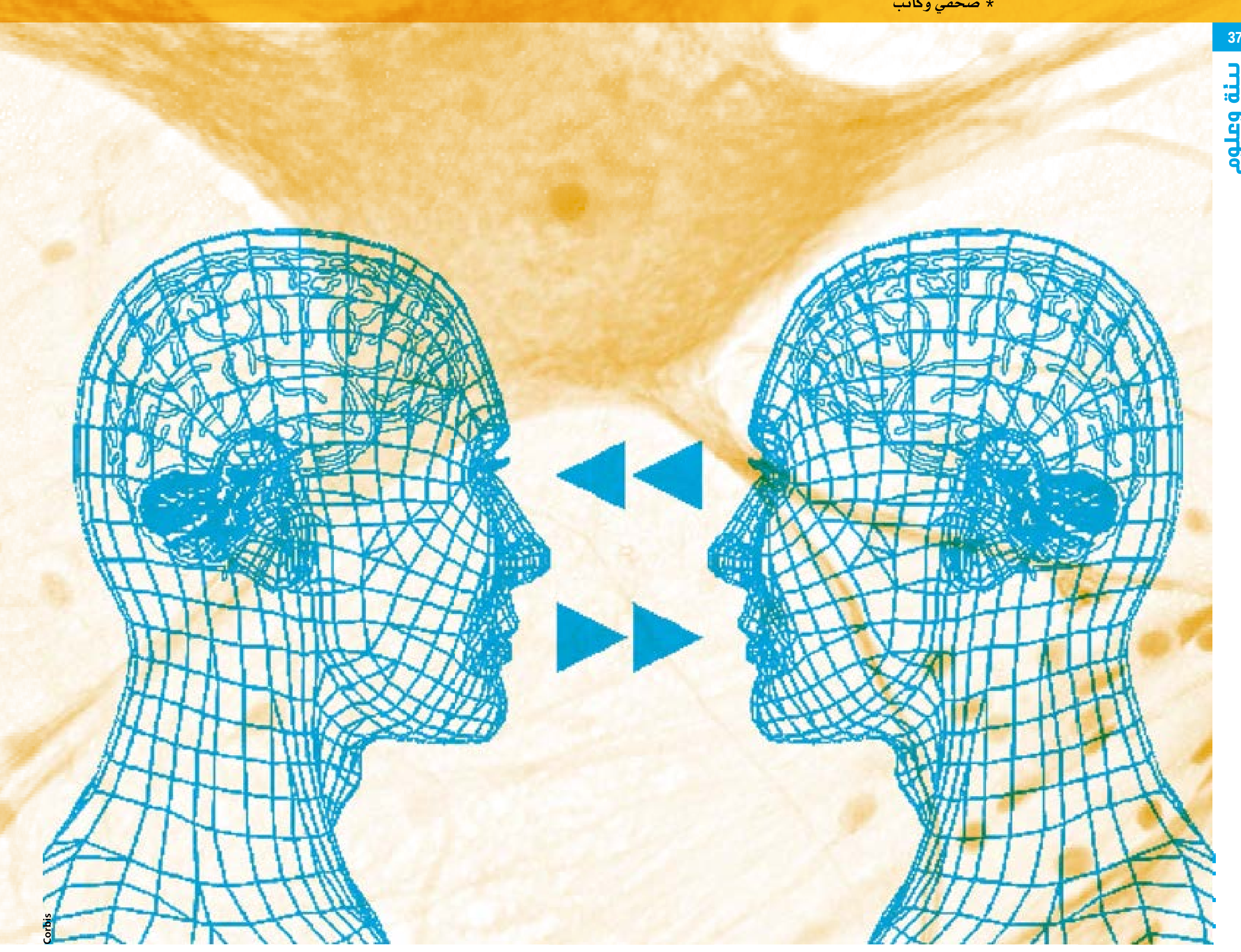
مصادر التهريب جغرافياً

1 - الولايات المتحدة الأمريكية 290 مليون دولار.
2 - آسيا 188.18 مليار دولار (21 دولة).
3 - أوروبا 93.60 مليار دولار (19 دولة).
4 - دول أمريكا ما عدا الولايات المتحدة 68.66 مليار دولار (11 دولة).
5 - الشرق الأوسط 4.73 مليارات دولار (4 دول).
6 - إفريقيا 893.3 مليون دولار (5 دول).


كندا
المملكة المتحدة
إسبانيا
الولايات المتحدة الأمريكية
المكسيك
كولمبيا
البرازيل
البيرو

على الرغم من أن دراسة المخ البشري ووظائفه هي من عمر الطب، ولأهميتها شغلت الكثيرين من غير الأطباء، فإن ما تشهده اليوم هذه الدراسة من مكتشفات يشكِّل خطوات غير مسبوقة في معرفة عمل المخ ودوره في تشكيل الوعي عند الإحساس.
آخر هذه المكتشفات هي الخلايا المرآة التي يحدثنا عنها الدكتور مدحت مريد صادق*، والتي لا يتردد الكثيرون في مقارنة أهمية اكتشافها باكتشاف الخريطة الجينية التي هي بصدد قلب مسار الطب رأساً على عقب.

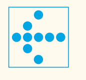
* صحفي وكاتب



Corbis

الخلايا المرآة

الأساس البيولوجي للتواصل الإنساني



ما الفرق بين المخ البشري ومخ الحيوان؟ سؤال قد يبدو ساذجاً، لكن المعروف أن أهمية المخ في حياة الحيوان ليست كأهميته للإنسان، فاستئصال المخ من رأس بعض الحشرات مثلاً لا يمنعها من العيش، ولا يقعدها عن استخدام أرجلها لدفع الأذى أو للركض هرباً من المخاطر.

وإذا قطعت رأس فراشة أثناء التزاوج فإن الجماع قد يستمر حتى يكتمل، ثم تنفصل الأنثى عن الذكر وتبدأ في وضع البيض وممارسة حياتها العادية وهي مقطوعة الرأس، وكأن شيئاً لم يضرها. بل ان بعض القواقع إذا قُطِعت رأسها يمكن أن تنبت لها رأس أخرى تتمتع بكل مواصفات الرأس القديمة. أما الإنسان فحياته ترتبط بدماغه ارتباطاً لا ينفصم، فضلاً عن أن المخ مسؤول عن أهم ما يميز البشر وهو الوعي والإدراك، لدرجة أننا نصف الشخص الذي يصاب بإغماءة مثلاً نتيجة تعطل بعض وظائف المخ، بأنه «غاب عن وعيه»، فما هو ذلك الوعي؟

ظل العلماء زمناً طويلا يعتقدون أن المخ البشري يحتوي على مادة ذات سحر خاص تميزه عن مخ الحيوان، لكن مخ الإنسان مركب تقريباً من الوحدات نفسها التي يتألف منها مخ الحشرات وغيرها، ونعني «الخلايا العصبية» (أو العصبونات) neurons و«خلايا الغراء العصبي» neuroglia cells وما تكونه تلك الأخيرة من مواد تحفظ تماسك نسيج المخ وتمنحه شكله المألوف. فكيف يتشكَّل العقل الواعي من ذلك الكيان المادي ذي البنية التشريحية المعروفة؟

من المادة إلى العقل

كانت معضلة انبثاق العقل من المادة هي الشغل الشاغل لأجيال من العلماء والفلاسفة على مر العصور. وانقسم العلماء بشأنها فريقين، أحدهما رأى عدم جدوى البحث في علاقة العقل بالدماغ. واستند هذا الفريق إلى التناقض الحاد بين حرية الإرادة التي يتصف بها العقل البشري -والتي تبدو حرية مطلقة- وبين أن الدماغ مكبل بقيود مادته التي يتألف منها، وبقوانين الفيزياء والكيمياء التي تحكم عمله، فتجعل أي محاولة للحصول على حل علمي لمعرفة كيف يتَوَلد العقل فيه محاولة لا طائل تحتها، إما لعدم وجود الحل أصلاً أو لأنه خارج نطاق البحث العلمي.

وأما الفريق الثاني فيرى أن قوانين الطبيعة تتحكم فعلاً في سير الأمور، لكنها لا تنبئ دوماً بالنتائج ولا تمليها، فمثلاً ليس في قوانين الطبيعة ما ينبئ بإمكان الحصول على مادة تطفئ الحرائق من خلط مادتين إحداهما سريعة الاشتعال والأخرى ضرورية للاشتعال. لكن هذا ما يحدث في حال اتحاد الهيدروجين مع الأكسجين لإنتاج الماء. وعلى ذلك يرى هذا الفريق أن الخصائص المعنوية المتصلة بنشاط العقل، كالوعي والإرادة والضمير والعواطف، كلها يمكن أن تكون محصلة لتفاعل في شبكات الخلايا العصبية في أدمغتنا، وأن كون هذا التفاعل خاضعاً لقوانين الطبيعة لا يعني بالضرورة استحالة بزوغ العقل الواعي من نواتجها.

ولقد كان العالم الشهير فرانسيس كريك من أبرز المنتمين إلى ذلك الفريق الطموح، فبعدما اكتشف مع زميله جيمس واطسون تركيب الحمض النووي (DNA) عام 1953م، وأسهم في اكتشاف الخريطة الوراثية في ستينيات القرن العشرين، انصرف بقية حياته (توفي عام 2004م) إلى دراسة الخلايا العصبية. وفي



كتابه المعروف «الفرضية المدهشة: التنقيب العلمي عن النفس» The Astonishing Hypothesis: the Scientific Search for the Soul بين أن دراسةً وافيةً لشبكاتنا العصبية، شأنها أن تمكننا حتماً من الوقوف على مكامن النفس البشرية، كذلك أعطى الانطباع بأن اكتشاف سر انبثاق العقل من الدماغ ما هو إلا مسألة وقت. ولم يكن كريك يعلم قطعاً فيما كان يخط مسودة كتابه أن ثلاثة علماء في جامعة بارما الإيطالية كانوا يقفون على أطراف أصابعهم مشدوهين بعدما اكتشفوا أن وظائف عقلية غير مادية كالتعاطف والتواصل والإحساس بالغير إنما تتولد من نشاط مجموعة خلايا عصبية في إحدى زوايا المخ.

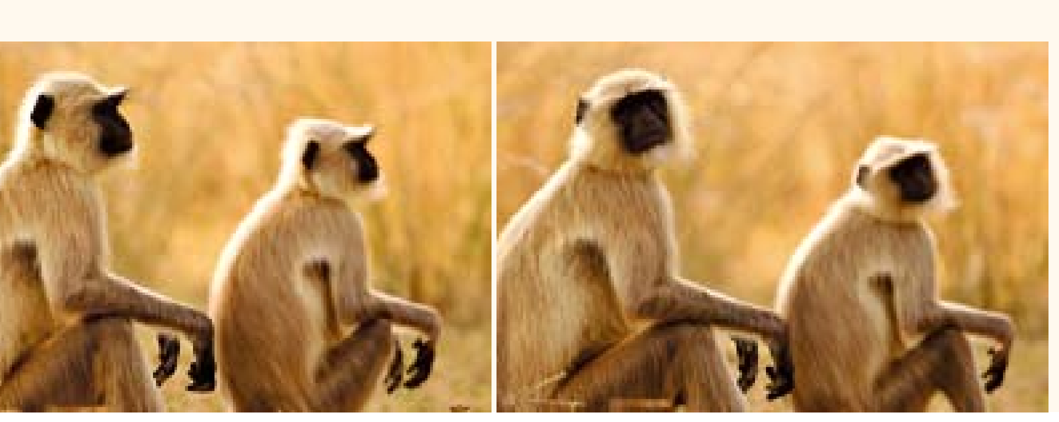
مخ القرد يتعلم

يقر العلماء الثلاثة، وهم جياكومو ريدزولاتي G. Rizzolatti وليوناردو فوجاسي L. Fogassi وفيتوريو جاليسي V. Gallese، أن اكتشافهم الخطير كان صدفة، لكن صدفة لا تؤاتي سوى الجديرين باقتناصها. كان ريدزولاتي وزميلاه يجرون أبحاثهم على قِرَدَة المكاك، وكانوا قد استعدوا لفحص نشاط خلايا الحركة motor neurons المسؤولة عن استخدام القرد يديه في تناول الأشياء. وكالعادة تضمن الاستعداد تجهيز أقطاب كهربية electrodes ذات أطراف دقيقة لغرسها في الخلايا العصبية في دماغ القرد.

الطريف أن المخ على الرغم من مسؤوليته عن معالجة الإشارات التي ترد عليه من أعضاء الإحساس في الجسم، إلا أنه بذاته يفتقر إلى الإحساس، ومن ثم فإن غرس الأقطاب فيه لا يؤلم الحيوان ولا الإنسان. ما يؤلم فقط هو إحداث فتحة في الجمجمة لإدخال الأقطاب، وهو أمر يحدث عادة تحت التخدير.

المهم أن القطب المغروس بأي من خلايا المخ يلتقط أية بادرة نشاط في تلك الخلية. ونقصد بالنشاط هنا نبضةً كهربيةً تتولد وتسري في غشاء الخلية. وبواسطة أجهزة خاصة تكبر هذه النبضات فوراً وتعرض على شاشة رقمية ليتسنى للعلماء ملاحظة نشاط الخلية وتسجيله، بل غالباً ما تترجم أيضاً هذه النبضات إلى صوت يصاحب الإشارة المرئية، ليسمع الباحث بجانب ما يراه على الشاشة صوت استجابة الخلية وصوت اضطرابها، بل صوت احتضارها إن حدث! إنها تقنية معروفة في البحث العلمي وتسمى التسجيل من داخل الخلية Intracellular recording.

بعدما غرس العلماء أقطابهم في منطقة تسمى F5 بالقشرة الجبهية الدنيا في مخ القرد، وهي المنطقة المعروفة بإدارتها حركة اليد في القردة والبشر على السواء، أخذوا يقدمون للقرد أشياء ليمسكها بيده، بينما تعلقت أبصارهم بشاشة العرض. وكما هو متوقع، نشطت خلايا عصبية



-أي أصدرت نبضات كهربية شاهد العلماء رسماً لها على الشاشة وسمعوا صوتها- عند كل حركة أداها القرد بيده. فمثلاً وجد أن خليةً بعينها تنشط عندما يمسك القرد بحبة فول سوداني بين أصابعه، وأن خليةً أخرى تنشط عندما يرفع القرد حبة الفول إلى فمه، وأن خليةً ثالثةً مختلفةً عن الخليتين الأوليين تنشط فقط عندما يحرك القرد كرة صغيرة من مكان إلى آخر، فوق منضدة موضوعة أمامه.

التعلم بالمرآة

إلى هنا كانت الأمور عادية وشبه متوقعة، لكن المفاجأة حدثت عندما دخل أحد الطلاب إلى المختبر وبيده كوب من الآيس كريم. التفت القرد بعينيه نحو الطالب، وحالما رفع الطالب الآيس كريم إلى فمه، لوحظ أن الخلية التي يُفترَض أنها تنشط عندما يضع القرد حبة فول سوداني في فمه قد نشطت فجأة، ولم يكن القرد يأكل شيئاً. ظن العلماء أن هناك خللاً فنياً بأجهزتهم، ولكن سرعان ما فطنوا إلى أن هناك علاقة بين حركة يد الطالب وبين ما يجري في دماغ القرد، فأعادوا ترتيب الأمور وغيَّروا سير التجربة، وبدلاً من أن يعطوا القرد الأشياء ليحركها بنفسه وقف أحدهم أمام القرد وأمسك بحبة الفول فإذا بالخلية المسؤولة عن إمساك الأشياء تنشط في دماغ القرد. رفع العالِم حبة الفول السوداني إلى فمه هو، لا إلى فم القرد، فنشطت الخلية الأخرى المسؤولة عن تناول الفول في دماغ القرد.

حرَّك العالِم الكرة الصغيرة فوق المنضدة، فنشطت في دماغ القرد خلية ثالثة هي الخلية التي كانت تنشط عندما يحرك القرد بنفسه الكرة! لم يحرك القرد ذراعه ولا يده على الإطلاق، وإنما تابع فقط حركة يد العالم فنَشَطت منظومات خلايا الحركة العصبية في دماغه، كما لو كانت يد القرد نفسه هي التي تتحرك، أي إن القرد كان يرصد حركة العالم ويحاكيها في دماغه دون أن يحرك أطرافه.

يجب ألا ننسى أن العالم الذي وقف قبالة القرد أثناء التجربة كان له مخ أيضاً، وبافتراض أن مخه لا يقل تطوراً عن مخ القرد، فلابد أن خليةً عصبيةً مسؤولة عن إمساك الأشياء كانت تنشط في دماغه عندما كان يرى القرد يقبض على حبة الفول السوداني، ولا بد أن خلية أخرى في مخه مسؤولة عن التهام الطعام كانت تنشط عندما كان القرد يرفع حبة الفول السوداني إلى فمه، وهكذا.

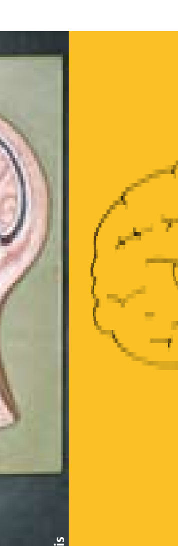
وطالما كان العالِم والقرد يراقب كل منهما الآخر، فإن نشاط خلايا الحركة العصبية في مخ أحدهما كان

خلايا الدماغ التي تسيِّر الحركة تتأثر بما تراه العين حين يتحرك الآخرون أيضاً. وهذا يعني أن في خلايا الدماغ خلايا مرآة «تقلِّد» ما تشاهده العينان. وما يجري في دماغ شخص يتجاوب إذن مع ما يجري في دماغ الشخص الذي أمامه..

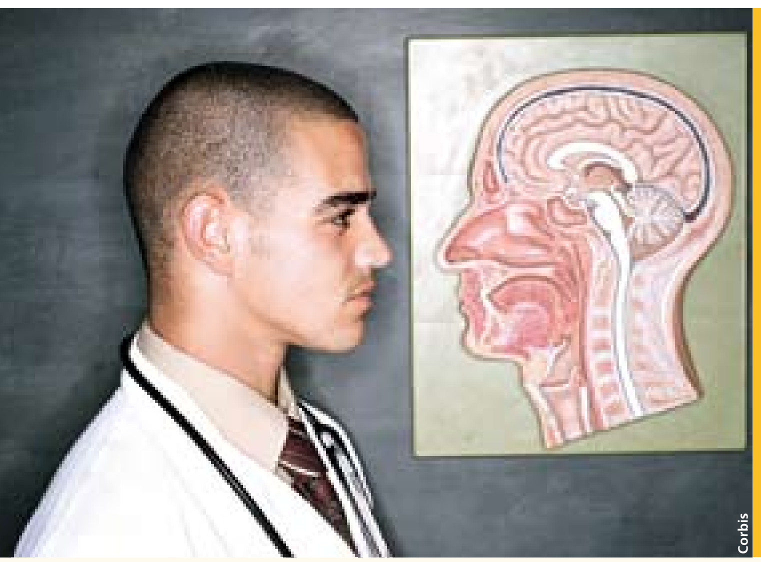


Corbis

بعض الخلايا المرآة تتأثر أيضاً بالصوت والعاطفة والتعلُّم والألم.. بل ثمة خلايا سُمِّيت: الخلايا المرآة السمعية البصرية!







يتجـاوب تماماً مع نشاط الخلايا المناظرة في مخ الآخر. أي ان مـا كان يجـري فـي دمـاغ أحدهما كان صـورة لما يحـدث في دماغ الآخر، بغض النظر عن أيهما كان يقبض علـى حبة الفول أو أيهما يحـرك الكرة على المنضدة. ولو كانت الأقطاب مغروسـة في دماغ العالِم لا القرد لما تغير من الأمر شيء.

وماذا عند الإنسان؟

لذلـك كان طبيعياً أن يطلق العلمـاء على هذه الخلايا اسم الخلايا المرآة Mirror neurons، فهي الخلايا التي تنشط فـي دماغك عندما تجلـس أو عندما تـرى شخصاً يجلس، وهـي التي تنشـط إذا رفَعْتَ يدك بتحية العلـم أو إذا رأيت تلميـذاً يرفـع يده بتحية العلم، وهي التـي تنشط إذا فتحت باب سيارتـك أو شاهدت شخصاً يفتح بـاب سيارته. ليس مهمـاً إن كنت تشاهد هؤلاء علـى الطبيعة أو من خلال فلم سينمائي، المهم أن كل حركة تشاهدها سوف تُنَشِّط خلايا المرآة الخاصة بهذه الحركة في دماغك، كما لو كنت أديت الحركة بنفسك.

نُشِـرَ اكتشاف الخلايـا المرآة أول مرة نشـراً موجزاً، عام 1992م، وفـي بحث لاحق قـدم المكتشفـون الثلاثة مزيداً مـن التفصيل حولها، وبسرعـة أدرك العلماء أن الاكتشاف سيكون نقطـة تحول مهمة في تاريخ العلم، حتى إن بعضهم توقـع أن يُحدِث هذا الاكتشاف في مجال علم النفس وعلوم الأعصـاب، ثـورة لا تقل عـن تلك التـي أحدثهـا اكتشاف تركيـب الحمـض النووي (DNA) فـي مجـال البيولوجيا. إذ كان اكتشـاف تركيـب الحمـض النووي مفتاحـاً لدخول عالـم الهندسة الوراثية وكشف تفصيـل الجينوم البشري، واكتشـاف الخلايا المرآة سيكون فـي رأي كثير من العلماء مفتاحـاً لفهـم تفصيـل الأدوات التـي تنظـم عمـل العقل البشري.

بالطبع لم يكـن اكتشاف الخلايا المرآة في دماغ القرد في ذاتـه، دليلاً كافياً على وجودها فـي دماغ الإنسان، حتى مع افتراض أن مخ الإنسان أكثـر تطوراً من مخ قردة المكاك، بل كان ضروريـاً البحث عن الخلايا المرآة في مخ الإنسان مباشرة قبل الإقرار بوجودها. وكانت العقبة الكبرى في هذا صعوبـة إخضـاع الإنسان لتقنية التسجيـل من داخل خلايا المخ. ولذلك استخـدم العلماء وسائل أخرى أهمها التقنية المعروفـة باسم التصويـر الوظيفي بالرنيـن المغناطيسي Functional Magnetic Resonance Imaging أو مـا يسمى اختصاراً FMRI، وهـي تقنية تتيح رصد نشاط المخ وتصويـر ما يحدث فـي أي ركن فيه، دون حاجـة إلى ثَقب الجمجمة أو غرس أقطاب. ولم يمض وقت طويل حتى تمكن العلماء من تصوير نشاط الخلايا المرآة في دماغ الإنسان، ووجـدوا أنهـا تقـع فـي المنطقة نفسهـا (F5) مـن المخ. وسرعـان ما توالت الأبحاث والمكتشفـات التي تؤكد أهمية هذه الخلايا في التعلم والتعاطف والتواصل الاجتماعي بين البشر.

وفـي عامـي 2001 و2002م اكتشف العلمـاء أن هناك نوعاً مـن الخلايا المـرآة لا يحتاج تنشيطـه إلـى أداء حركة أو ملاحظتهـا، بـل يكفي سماع الصوت الـدال على حركة ما، فسمـاع صوت ارتشـاف مشروب ساخن مثـلاً يثير الخلايا المـرآة الخاصة بالشراب. وقد سميت هـذه الخلايا باسم الخلايا المرآة السمعية البصريـة audio-visual mirror neurons.

وفي عام 2003م الذي صادف أن تسلَّم فيه العالِمان اللذان لهما فضل ابتكار تقنية FMRI وتطويرها جائزة نوبل، رَصَد أكثـر من فريـق علمـاء طائفة أخـرى من الخلايـا المرآة تقـدح بالنشاط فقط عندما يتكلم الإنسان أو عندما يراقب شخصاً يتكلـم. ووجد أيضاً أن رؤية حركـة الشفاه وحدها

دون صـوت مسمـوع تكفي لبـث النشاط في تلـك الخلايا. والمهـم في هذا الأمـر أن هـذه الخلايا تقع فـي المنطقة المعروفة باسم منطقة بروكا في المخ، وهي منطقة اتخذت اسمهـا من الطبيـب الفرنسي بيير بروكا الـذي اكتشف أن عطـب هذه المنطقة يؤدي إلى فقـدان القدرة على الكلام. وكان الاستنتاج الحتم أن هـذه الطائفة من الخلايا المرآة هـي المسؤولة عن الكلام والتواصل، ومـن هنا أُطلِق عليها اسم الخلايا المـرآة الخاصة بالتواصل communicative mirror neurons.

الثقافة والشعور في الخلايا

وهكـذا عـرف العلماء الـدور الحاسم الذي تلعبـه الخلايا المرآة في انتقال الثقافة البشرية، فهي الخلايا التي تمكننا من تعلم اللغة وفهم الإيماء. فبالإضافة إلى ما تساعدنا تلك الخلايـا على تعلمه في المدارس من قواعد النحو والبلاغة والإنشاء وما إلى ذلك، تتكـون حصيلتنا اللغوية الأساسية، كما بيـن العلماء أيضاً بالمحاكاة، عندمـا كنا صغاراً نتابع آباءنـا ونقلـد أصواتهـم وتحـرك شفاههم، ونحـاول ربط تلك الحـركات والأصوات بمدلولاتها. يمكـن القول إذن إن الخلايا المرآة هي المسـؤول الأساس عن تعلم لغة الأبوين والانطبـاع بعادات المجتمـع وإدراك الفرق بين هوية المرء الثقافيـة وهوية الآخرين. ليست الثقافـة إذن منفصلةً عن البيولوجيـا، فلـولا الخلايا المرآة ما أمكـن للبشر اقتناص الثقافة أو نقلها من جيل إلى جيل.

وفي دراستين حديثتين أيضاً وُضعتا في العام 2004م ثبت أن وخز الإنسان بإبرة مؤلمة يثير الخلايا المرآة في دماغه على نحـو لا يختلف عما يحـدث إذا شاهد شخصـاً آخر يتعرض للوخز، وأن شعور المرء مثلاً بالتقزز من شيء ما ومشاهدته لشخصـ آخر تبـدو علـى محياه علامـات التقـزز، يكونان مصحوبين بالنمط نفسه من النشاط في الخلايا المرآة.

وسرعـان ما ثبت مـن دراسة أحـدث أن معظـم العواطف الاجتماعية كالشعور بالذنب أو الخجل أو الكبرياء وغيرها، كلهـا مبنية على جهاز مـرآة بشري متفرد يوجد في منطقة مـن المـخ تسمـى الجزيـرة insula، ووجـد أن خلايا هذه الجزيـرة تسجل الألـم الاجتماعي للرفض، عندما يراقب صاحبهـا يداً تمتـد للمصافحة ويداً أخـرى تتعمد العزوف عن مصافحتها مثلاً، وتبين كذلك أن القراءة عن الآخرين أو حتى مجرد التفكير فيهم، يؤثر في نشاط الخلايا المرآة تماماً مثل الملاحظة أو السمع المباشر.

استدل العلماء من ذلك على أننا عندما نشاهد الآخرين أو نسمعهـم، أو حتى نقرأ عنهم، فـإن دور الخلايا المرآة في مخنا لا يقتصر على رصـد أفعالهم، بل يجعلنا أيضاً نشعر بـذات شعورهـم، ونعيش معهـم خبرتهم بحلوهـا ومرها، سـواء أعبَّرنا عن ذلك أم لم نعبر، ومـن ثم يمكننا بالتالي قراءة أفكارهم والتنبؤ بتصرفاتهم. ويقول العلماء أيضاً إن قدرتنا على الشعور بالغير تزداد كلما اجتزنا تجاربهم، لأن خبرتنـا الذاتية تقـوي شبكة الخلايا المـرآة لدينا وتجعلنا أسـرع إحساسـاً بغيرنـا، وهو ما يعـرف علميـاً بالتعاطف empathy أو التقمصـ العاطفـي، أي قدرتنـا علـى وضع أنفسنـا في موقف من نراهم. فإذا رأيت شخصاً يتلوى من الألـم ثم قلت له: «أنا أحس بألمـك» فإنك في حقيقة الأمر



لم تنطق بعبارة مجازية، بل وصفت ما يحدث تماماً في دماغك.

والطريف أن الخلايا المرآة في «جزيرة» المخ عند الإناث أنشط منها عند الذكور، ويفسِّر هذا شيئاً من أسباب تميز المرأة بالرقة وسرعة التعاطف مع الغير. وينبغي ألا يفهم الرجال أن العلم يعطيهم ذريعة بيولوجية للقسوة، فلقد وصف العلماء التقمص العاطفي عند الجنسين على السواء بمصطلح آخر لا تنقصه الشاعرية، ألا وهو التوافق بغير وسيط unmediated resonance، أي انتقال المشاعر دون حاجة إلى وسيط مادي.

لعلنا نفهم الآن لماذا يكون الضحك أو التثاؤب مُعدياً، وكيف أن ابتهاج المرء يشيع الإحساس بالراحة عند من يخالطونه.

مرض التوحد والخلايا المرآة

بيد أن أبرز نتائج اكتشاف الخلايا المرآة، هو أنه قدم تفسيراً جيداً لأسباب مرض التوحد، ذلك المرض الذي اكتشفه العالم الأمريكي ليو كانر L. Kanner في أربعينيات القرن العشرين، مع اكتشاف طبيب الأطفال النمسوي هانز آسبرجر H. Asperger المرض عينه في الوقت نفسه. وعلى الرغم من أن أحداً من العالمين لم يكن يعلم شيئاً عن اكتشاف الآخر، إلا أن الغريب أن كلاً منهما أطلق على ذلك الخلل في نمو الأطفال الاسم ذاته autism أي التوحد، مع الذات أو الانطواء، لأن أهم أعراض المرض هي الانسحاب من الحياة الاجتماعية والعزوف عن التفاعل مع الآخرين وتجنب النظر المباشر إليهم، وضعف القدرة اللغوية. وغير العلماء أخيراً اسم المرض ليصبح Autism Spectrum Disorders أي اضطراب طيف التوحد، للدلالة على تنوع أشكال التوحد واختلاف أعراضه وإن اشتركت جميعها في سمات أساسية.

علاقة مباشرة بين مرض التوحد وعمل الخلايا المرآة.. والاكتشاف يعزِّز الأمل لإمكان معالجة هذا المرض في المستقبل القريب..

حالما اكتُشفت الخلايا المرآة ودورها في التواصل الاجتماعي، أدرك العلماء العلاقة بين عملها وبين مرض التوحد، وسرعان ما اكتُشِف أن الأطفال المتوحدين يعانون فعلاً خللاً أو ضعفاً في نشاط جهاز الخلايا المرآة في أدمغتهم، وأن ذلك الضعف يكون أوضح في الخلايا المرآة الخاصة بالتواصل. لهذا يعجز هؤلاء الأطفال عن تكوين انطباع عن شعور الآخرين بالخوف أو الغضب أو السرور، على الرغم من أنهم يخافون ويغضبون ويُسَرّون. ولقد أعطى هذا الكشف أملاً في علاج بعض أشكال التوحد أو على الأقل تخفيف آثاره، فتبين أن الخلايا المرآة قابلة للتدريب واكتساب الخبرة، إذ تحسن أداء الرياضيين المحترفين كلما استخدموا جهاز الخلايا المرآة لديهم، ربما دون أن يعلموا، وذلك بالدأب على مشاهدة المباريات أو القراءة عن أساليب اللعب. ويأمل العلماء في وضع برامج تدريب لتنشيط الخلايا المرآة عند المصابين بالتوحد، لتمكينهم من التواصل تواصلا أفضل.

إيمو كانت على حق!

ومن الآثار الجانبية الطريفة لاكتشاف الخلايا المرآة أيضاً، أنه أعاد إلى ذاكرة العلماء قصة قديمة وأدى بهم إلى مراجعة موقف متعسف إزاء القردة. ففي العام 1953م لاحظ العلماء أن واحدة من قردة المكاك، كانوا يسمونها إيمو، تلتقط حبة البطاطا وتمضي بها إلى شاطئ قريب فتغسلها قبل أن تأكلها. لم يعرف العلماء إن كانت إيمو تعلمت هذا السلوك صدفة أم بعد تفكير وتدبُّر. لكن المهم أن هذا السلوك سرعان ما انتقل إلى بقية أفراد القطيع. وبعد وقت قصير لوحظ أن إيمو تنقي حبوب القمح من الرمال بوسيلة مبتكرة لا تقل ذكاءً عن طريقتها لغسل

البطاطا. كانت إيمو تقبض على حفنة من القمح المختلط بالرمال ثم تقصد إلى الشاطئ وهناك تلقي بالخليط كله إلى الماء وتنتظر برهة ريثما تغوص حبات الرمل سريعاً بسبب كثافتها العالية بينما تغوص حبّات القمح في بطء، عندئذ تمد يدها لتغرف حبات القمح قبل وصولها إلى القاع. ولم يمض وقت طويل أيضاً حتى كان معظم أفراد القطيع يستخدمون الماء لغربلة القمح مثلما تفعل إيمو.

ومع ذلك ظل معظم العلماء حينذاك على موقفهم أن قردة المكاك لا تستطيع التعلم من طريق محاكاة الغير أو تقليدهم، لأن ذلك النوع من التعلم يحتاج في رأي هؤلاء إلى قدرة عقلية لا تتوافر إلا في مخ الإنسان، وربما القردة العليا فقط كالشمبانزي على أحسن تقدير.

ولكن بعد نحو أربعين عاماً من رصد إبداع إيمو الموهوبة فوق جزيرة كوشيما اليابانية، اكتشفت الخلايا المرآة في إيطاليا في دماغ واحد من بني جنسها، بل ربما كان من حفدتها، ليعيد إليها الاعتبار وليقنع العلماء بما سبق وأنكروه على قردة المكاك. ربما تكون الخلايا المرآة إذن أحد الفوارق المهمة بين مخ البشر والقردة من ناحية ومخ الحيوانات الدنيا من ناحية أخرى، ويعيدنا هذا إلى بداية المقال، فالحشرات مثلاً تستطيع التعلم بالمحاولة والخطأ، وتستطيع التعلم بالربط، لكنها لا تستطيع التعلم بالمحاكاة أبداً، وهي قطعاً لا تشعر بما يحسه الغير، وإن دماغاً يفتقر إلى هاتين الصفتين لهو دماغ يمكن الاستغناء عنه دون خسران كبير.

بالطبع يظل اكتشاف الخلايا المرآة مجرد خطوة على طريق الألف ميل نحو اكتشاف كيف انبثق العقل من المادة، وكيف يمكن للعقل أن يولد من رحم المادة ثم في الوقت ذاته يؤثر فيها، فبديهي أن الإدراك والتعاطف وقراءة أفكار الغير ليست هي أهم خصائص عقل الإنسان، بل هناك الأخطر والأجل، ألا وهو سيطرة العقل على المادة، تلك السيطرة التي تجعل الإنسان سيد نفسه وتتيح للمرء أن يصوغ حياته بما يتفق مع نظم الأخلاق والتكليف الديني، وأن يلزم مسالك روحية تعاند في الغالب نوازع الجسد وغرائزه.

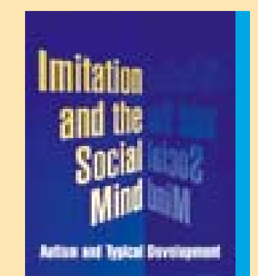
ربما يبدو الأمر عصياً على الاكتشاف، بيد أن العلم لا يأبه للعوائق، والعلماء يبدون على يقين من أن من سار على الدرب وصل.

اقرأ للخلايا المرآة



«الخلايا المرآة وتطور المخ واللغة»

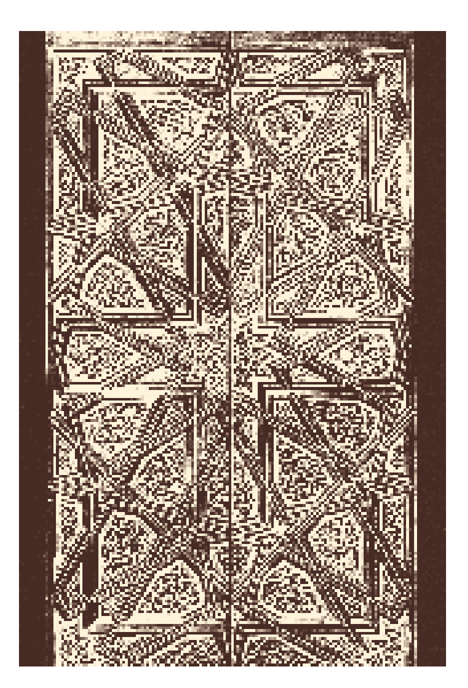
يتضمن هذا الكتاب الكلمات التي ألقيت في ندوة «مرآة الخلايا العصبية وتطور المخ واللغة» التي عُقدت في عام 2000م في ألمانيا. هدفه هو مناقشة وضع المكتشفات العلميه المعاصرة في ما يسمى «الخلايا المرآة العصبية» والعواقب المحتملة.
بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب، لمؤلفيه مكسيم ستامينوف وفيتوريو غالليسي يقع في 390 صفحة، ويحتوي على خمسة فصول. يستعرض في البداية نظام الخلايا المرآة قديماً والآن، إلى جانب آخر التطورات في دراسة الخلايا المرآة، دور الأجسام في التقليد، نظام المرآة والعمل المشترك، وأخيراً الخلايا المرآة وبناء النفس.



«التقليد والاعتبارات الاجتماعية: التوحد والنمو النموذجي»

منذ الطفولة المبكره، لا بد من أن يشمل نمو الأطفال النموذجي تقليد تعابير الوجه والمواقف والإيماءات، والسلوك العاطفي لدى الآخرين. ولكن من أين تأتي هذه المقدرة، وما هي الوظيفة التي تخدمها؟ وما الذي يحدث عندما يعاق العضو المسؤول عن التقليد؟
مؤلفا الكتاب هما سالي روجرز وجوستن ويليامز، وهو في 466 صفحة ويحتوي على 18 فصلاً ويناقش أهم المواضيع المتعلقة بالتقليد والخلايا المرآة بتعمق كبير. يبحث هذا الكتاب دور التقليد في كل من الأطفال ذوي النمو النموذجي والأطفال المتوحدين. ويشمل العناصر العصبية والتطورية في أسس التقليد، وتطوير اللغة والعلاقات، وكيف يظهر العجز عن التقليد عند الأطفال المتوحدين. وقد يساعد فهم أدوات التقليد في توضيح أسباب أكثر المشكلات الاجتماعية ومعوقات الاتصال لدى هؤلاء الأطفال والكبار أيضاً.

1 الزخرف الإسلامي سبق الهندسة



الزخارف الإسلامية الهندسية التي بلغت ذروة نضوجها الفني بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين، كانت موضع دراسة علمية نشرت مجلة «العلم والحياة» الفرنسية ملخصاً عنها في عدد شهر أبريل الماضي.

واستناداً إلى هذه الدراسة التي أعدها العالمان بيتر لومن من جامعة هارفرد وبول ستاينهاردت من جامعة برنستون، فإن الفنانين المسلمين اعتمدوا في تصميم هذه الزخارف على حسابات هندسية لم يتوصل إليها العلماء الغربيون إلا في سبعينيات القرن العشرين.

ورأى العالمان الأمريكيان أن الانطلاق من شكل هندسي بسيط في رسم امتدادات له تتقاطع وتتشابك لتشكّل جملة أشكال لا تتكرر أكثر من مرة في رسم يبقى محافظاً على وحدته وتجانسه، يقترب كثيراً من اكتشافات العالم البريطاني بانروز، الذي وضع في العام 1973م قوانين معقدة ومتطورة جداً لهذه الغاية.

2 أسماك المزارع لنصف استهلاك العالم



ناصر صفوت

لأن مخزون السمك في البحار والمحيطات يتدهور بسرعة كبيرة، ازداد اتكال العالم على المزارع المائية لتزويده سمكاً وقشريات وأصدافاً ونباتات بحرية.

وأخيراً، كشفت منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة أن العالم استهلك في العام 2004م نحو 59.4 مليون طن من السمك والحيوانات والنباتات المائية والبحرية المنتَجة في مزارع مائية، مقابل 96.4 مليون طن تم جمعها من الصيد.

فمنذ ظهور المزارع المائية الأولى في خمسينيات القرن الماضي، وحجم هذه الصناعة يزداد بنسبة 8.8% سنوياً. وفي الوقت الحاضر، أصبح نحو 50% من الأسماك و23% من الطحالب و22% من الأصداف و6% من القشريات المستهلكة في العالم هي من إنتاج هذه المزارع. أما عدد الأنواع المنتجة فيها فقد وصل إلى 336 نوعاً في العام 2004م.

وتحتكر الصين وحدها 70% من الإنتاج العالمي لهذا المزارع المائية، التي تنتشر أيضاً في إندونيسيا والهند والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وإسبانيا والتشيلي واليابان.


StockXchange

3 الذهب يتغير.. لا يتغير

المعروف عن الذهب أنه غير قابل للتغير ولا للصدأ، ولا للتحول إلى أي مادة أخرى، والأحماض المؤثرة فيه قليلة جداً. ويبدو أن هذا أثار حفيظة بعض العلماء الذين سعوا إلى إثبات العكس.

وبالفعل، أطلق فريق من العلماء في غرينوبل بفرنسا، إنذاراً للمختبرات العلمية يقول بأن الذهب يفقد طابعه الثابت ويصبح قابلاً للتحول إذا تعرض لضغط كبير. إذ تتحول ذراته من ترتيبها المكعب، إلى ترتيب مثمَّن الزوايا، فيصبح قادراً على التفاعل مع مواد أخرى.

أما التفصيل الذي يجعل هذا التحذير كأن لم يكن، فهو في الضغط اللازم ليفقد الذهب ثباته، وهو 2,400,000 مرة الضغط الجوي.. ومثل هذا الضغط غير متوافر لا حول الذهب في خزائن مقتنيه، ولا في أي مكان طبيعي آخر على وجه الأرض.

4 مكر أفعى..

لا تزال دراسات علم الحيوان تسجل كل يوم مزيداً من المكتشفات المذهلة عن وسائل الدفاع المختلفة التي تعتقدها هذه المخلوقات للدفاع عن نفسها. وآخرها عن نوع من الأفاعي غير السامة في اليابان، وتدعى «رابدوفيس تيغرينوس».

فقد اكتشف عالِمان من جامعة فيرجينيا أن هذه الأفعى هي في بِعض الأماكن ذات لدغات قاتلة على الرغم من أن جسمها لا يفرز سماً. وبعد دراسة مستفيضة، تبين لهما أن هذه الأفعى تجمع السم من بعض أنواع الضفادع التي تقتات منها، وتخزنه في غدة خاصة قرب بلعومها، لتستخدمه لاحقاً في الدفاع عن نفسها. ولذا، فإن سلوكها في الجزر اليابانية التي تحوي هذا النوع السام من الضفادع غالباً ما يتسم بالجرأة والعدواني.

أما في الجزر التي لا توجد فيها هذه الضفادع، فيتسم سلوك الأفاعي بالخوف والحذر من الإنسان والهروب منه.



قصة ابتكار

آلة البيع

آلـة البيـع التـي تبتلع قطعة نقديـة لتعطي صاحبهـا سلعة محـددة بكبسة زر واحـدة، ابتـكار قديـم جـداً، غيـر أنـه تطـور وراج عالمياً بدءاً مـن أواخر القـرن التاسـع عشر. إذ يروي المؤرخون أن عالم رياضيات يونانياً يعرف باسم هيرو الإسكندرانـي ابتكـر آلة لبيع المياه في المعابد الوثنيـة الفرعونية في مصر. وبعد ذلك انقطعت أخبار هذا الابتكار حتى القرن التاسع عشر.

ففـي العـام 1880م، ظهر أول إعلان فـي لندن لآلة تبيع البطاقـات البريدية، وتعمل بواسطـة القطـع النقديـة المعدنية. ومن هـذه الآلـة استوحى البريطانـي ريتشارد كارلايـل، الذي كان يعمل ناشراً وصاحـب مكتبة، فكرة ابتكار آلة تبيع الكتب. فابتكر آلـة تعرض 6 كتب مختلفة للبيع الآلي، وهي أم الآلة التي راجت في وقت لاحق لبيع المجلات والجرائد.

وفـي عـام 1888م، وصل هذا الابتـكار إلى أمريكا. ولكن أشهـر تطبيقاته هناك، كانت أولاً آلـة بيع العلكة التي صممتها شركة توماس آدمز للعلكة، ومن ثـم أضيفت إليها الألعـاب لتحفيز المستهلكين علـى شراء العلكة، وذلك عام 1897م.

مـع حلول القـرن العشرين، شهد هذا الابتكار تقدماً كبيراً، عندما ابتكـر الأمريكيـان جـوزف هـورن وبـول هـاردارت عـام 1902م آلـة سمياها المطعم الآلي، وهو عبارة عن آلة تضم في جهتها الخلفية مطعمـاً لتحضيـر وجبات الطعـام، وأمامهـا مقاعد يتنـاول عليها الزبائـن أطباقهـم المختـارة، وقـد انتشرت هـذه المطاعـم الآلية انتشـاراً واسعـاً في حقبة الركود الاقتصـادي. وشيئاً فشيئاً، صارت هذه الآلات التي تغني عن البائعين ورواتبهم تعرض كل شيء بدءاً بطوابـع البريـد وصـولاً إلى السجائر والحلويات. وما إن حل العام 1920م، حتى كانت المشروبات الغازية هي الأكثر مبيعاً من طريق هذه الآلات.



وفـي منتصـف القرن العشرين انتشرت المصانـع التي تصنِّع هذه الآلات أينما كان في العالم. واستوحت من الابتكار الأساسي جملة مبتكـرات مشابهـة تقـدم أنواعـاً مختلفة مـن الخدمـات، لا السلع المختلفـة فقـط. إذ صُنعـت آلات حلاقـة الذقـن، وأخـرى لقياس ضغط الدم، ومسح الأحذية وما إلى ذلك.

أمـا الرواج الأكبر لهـذه الآلات على الصعيد العالمي، فقد كان في اليابـان، حيـث توافـرت العناصـر الضرورية لهذا الـرواج، وهي: كثـرة المستهلكين، وارتفـاع أجـور الباعة، وحسن السلـوك الاجتماعي الذي يضمـن سلامة هذه الآلات غيـر المحروسة من السرقة والتخريـب. ولذا تنوعت السلع في آلات البيع اليابانية تنوعـاً لا مثيـل لـه، لتشمـل الوجبات الخفيفـة، والأطعمـة المقليـة، والخضراوات، والأزهار، والألعاب، وحتى.. المجوهرات.

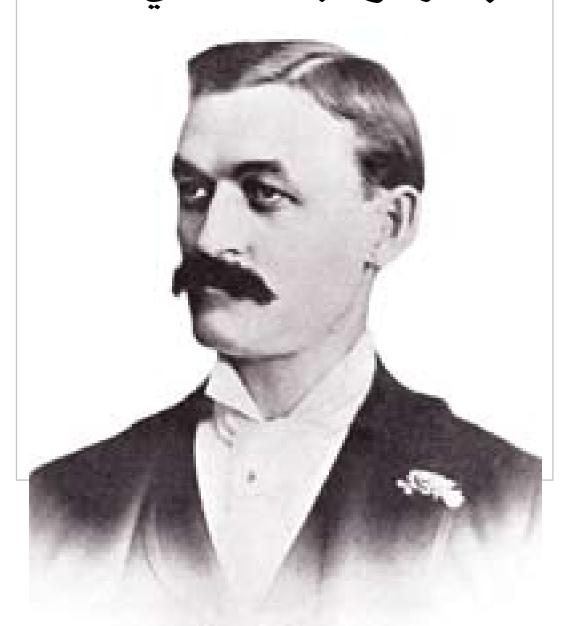
تكاد سيرة المبتكر جورج واشنطن فريس أن تلخص سِيَر جيل كامل من المبتكرين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر: طفولة متواضعة جداً، وطموح كبير، وعزيمة لا تلين أمام المصاعب.. غير أنه يختلف عن البعض في أنه أضاع فرصة الاستفادة من ابتكاره، فلم يحصد منه غير خلود اسمه.

ولد جورج فريس في جاليسبورغ بأمريكا عام 1859م، من أب مزارع، وعندما كان في الخامسة من عمره انتقل مع ذويه إلى نيفادا، حيث أمضى السنوات التسع اللاحقة في مساعدة أبيه في أعمال المزرعة. وفي العام 1873م، انتقل فريس إلى إحدى مدارس كاليفورنيا، ومنها إلى معهد رينسلر للتكنولوجيا في نيويورك، ليتخرج مهندساً في العام 1881م. عمل المهندس الشاب في الهندسة المدنية بمدينة بيتسبورج، حيث تخصص ببناء الهياكل الفولاذية للجسور والأنفاق. ومن ثم أنشأ شركة تحمل اسمه وتُعنى بدراسة المواد المعدنية اللازمة لبناء الجسور والسكك الحديدية ومراقبتها.

قصة مبتكر

جورج فريس

مبتكر دولاب الملاهي

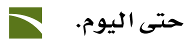


في العام 1893م، كان فريس في الثالثة والثلاثين من عمره، عندما أقيم معرض كولومبيا العالمي في شيكاغو. وطلب القائمون عليه من المهندسين الأمريكيين التقدم بمقترحات لابتكار قطعة تكون علماً للمعرض. كان فريس آنذاك مشدوهاً ببرج إيفل الفرنسي الذي كان تحفة المعرض العالمي الذي أقيم في باريس قبل أربع سنوات فقط (1889م). ولهذا، تقدَّم خلال الإعداد لهذا المعرض الأمريكي بمخطط لدولاب معدني يحمل عربات ضخمة. فكانت النتيجة الرفض القاطع وطرده من المنافسة كما لو كان شخصاً مجنوناً. والسبب أن مثل هذا الدولاب كان معروفاً منذ ما قبل ربع قرن، ولكنه كان من الخشب وبمقاييس معقولة، أما دولاب فريس فبدا بمقاييسه وهيكله الفولاذي غير قابل للتطبيق.

ولكن المبتكر لم ييأس. فبعد بضعة أسابيع، عاد فريس إلى اللجنة نفسها التي طردته سابقاً، ولكنه كان هذه المرة مصحوباً بمهندسين يؤيدون فكرته، ومستثمر مغامر مستعد لتحمل كل التكاليف اللازمة. فرضخت اللجنة، وبدأ فريس العمل على نقل مشروعه من الورق إلى أرض الواقع. ارتفع الدولاب 80 متراً، وحمل 36 عربة على شكل باص مدرسي، ويستوعب 40 شخصاً جالساً، أو 60 واقفاً، ويعمل هذا الدولاب بمحرك بخاري تبلغ قوته ألف حصان، ويتوقف عن العمل بواسطة مكابح هوائية. وبالفعل ،كان دولاب فريس تحفة معرض شيكاغو في عام 1893م، تماماً كما كان برج إيفل في معرض باريس. فقد زاره مليون ونصف مليون شخص. ودفع كل زائر نصف دولار ليركب دولاب الملاهي هذا المرة عشرين دقيقة.

ولكن فريس واجه مالم يكن في الحسبان. فأصحاب المنتجع الذي أقيم على أرضه المعرض، سرقوا فكرته وصنَّعوها بأنفسهم، كما أن القائمين على المعرض سرقوا حقوقه وحقوق المستثمر البالغة 7.5 ملايين دولار!

قضى فريس السنتين التاليتين في أروقة المحاكم يحاول استرداد حقوقه، ولكنه توفي قبل أن يتحقق له ذلك في عام 1896م، بعد إصابته بحمى التيفوئيد وقصور في وظائف الكلى. ولم يترك خلفه غير البسمات والضحكات على وجوه أطفال العالم وهم يستمتعون بركوب دولاب الملاهي حتى اليوم.



اطلب العلم

مسيرة الاختراع

إسماعيل وضَّاح العسكري*

لتسارع وتيرة المنجزات العلمية سمة قلَّما نلتفت إليها، ألا وهي أن هذا التسارع بات يسمح لنا بمراقبة مسيرة اختراع معين بين ظهور فكرته الخيالية، وصناعته، وتطوير هذه الصناعة وصولاً إلى الاكتمال.

في الماضي، كان يستحيل على جيل واحد أن يشهد بنفسه كل مراحل هذه المسيرة، فما بين الطائرات الأولى والطائرات النفاثة أكثر من جيلين، وما بين آلة التصوير الأولى وآلة التصوير الرقمية أربعة أجيال أو خمسة. أما اليوم، فإن الجيل نفسه الذي شهد ولادة الهاتف الخلوي مثلاً، هو نفسه الذي يشهد وصول هذا الاختراع إلى مرحلة مابعد الاكتمال.. إلى الترهل.

فقبل عشرين سنة كانت أجهزة الهاتف الخلوي ضخمة وتحتل حقيبة يحملها صاحبها في يد والسماعة في اليد الأخرى. ولكنه كان يستجيب إلى حلم أو حاجة، ألا وهي القدرة على الاتصال من دون التقيد بمكان معين.

وظهرت أجهزة الجيب الصغيرة. كلنا نذكر أنها كانت تعاني بعض المتاعب في بدايتها، وبشكل خاص سرعة نفاد الطاقة من بطاريتها، ولكن هذه الأجهزة راحت تتطور شيئاً فشيئاً حتى صارت طاقة البطارية تكفي عدة أيام، وتحسن الإرسال والاستقبال. وتوسعت الذاكرة التي تحفظ الأرقام وتتلقى الرسائل المكتوبة.. وبذلك، وصل هذا الاختراع إلى الاكتمال. والمقصود بالاكتمال، هو القدرة على أداء وظيفته الأساسية كاملة.

ولكن «تطوير» هذا الاختراع لم يتوقف. فراحت الإضافة تتوالى عليه: ألعاب للتسلية، آلة تصوير، اتصال بالإنترنت، عدسة فيديو، وأخيراً حاسوب شخصي.. والكل في جهاز لا يزيد حجمه على علبة سجائر.. وإذا استمرت الأمور على المنوال نفسه، فقد نشهد جيلاً رابعاً من الجوال يضم فرن ميكروويف وغسالة ملابس.

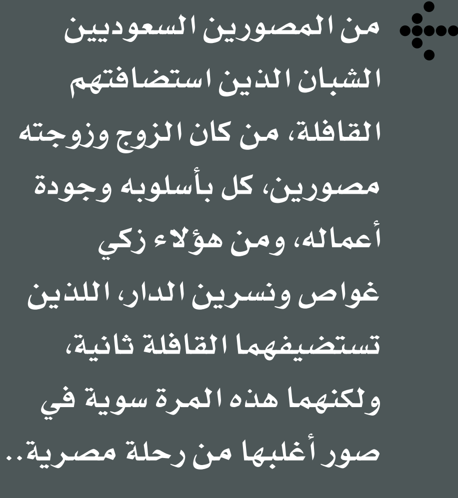
المهم أن الجوال في النماذج التي تُسوَّق اليوم هو حفيد اختراع وليس اختراعاً في ذاته. ولعل ما صاحب إطلاق آخر نماذج الجوال من حملة إعلامية عالمية تظهره وكأنه حدث لم يسبق له مثيل (اصطفاف الألوف أمام أبواب المتاجر منذ عشية يوم تسويقه)، يؤكد أن هذا الاختراع أصبح مجرد نتاج يقبل الناس عليه بدوافع عديدة وتكاد الغاية الأساسية من اختراعه أن تصبح في آخر قائمتها.

هل يمكن القول إن المخترعات تترهل؟
نعم، إذا جردنا مفهوم الترهل من النكهة السلبية التي يتضمنها. لأن مهارة التسويق، وهي اليوم أقوى من أي وقت مضى، قادرة على إبقاء هذا الاختراع لمَّاعاً وجذاباً، ومثيراً للدهشة المستحقة فعلاً.. إذ لا يهم المستهلك في شيء إذا كان الاختراع الأساس هو المدهش أم التطوير والإضافة، التي تبقى الأبواب مفتوحة أمامها، طالما أن هنالك مستهلك.

* كاتب من العراق

الملف المصور

زكي غواص ونسرين الدار



من المصورين السعوديين الشبان الذين استضافتهم القافلة، من كان الزوج وزوجته مصورين، كل بأسلوبه وجودة أعماله، ومن هؤلاء زكي غواص ونسرين الدار، اللذين تستضيفهما القافلة ثانية، ولكنهما هذه المرة سوية في صور أغلبها من رحلة مصرية..

أما الأحمر،
أفليس القلب موقعه؟
رآه المصور..
فلم يتردد..
والانطباعيون..
أكان عفواً أم عمداً
وضعوه هنا.. ليخطف
النظر..
يأتي من القلب.. إلى
القلب..
إلى القلب..
اللون ناقص بلا أحمر
الأحمر نصف الألوان

نسرين الدار



نسرين الدار

نسرين الدار

زكي غواص





زكي غواص


الله أكبر

حكمةٌ حَكَمَتْ!

شيئاً فشيئاً، أصبحت هناك ظاهرة طاغية على حياتنا يمكنك أن تطلق عليها اسم «التشابهية». فقد أخذت الأشياء تتشابه إلى درجة حرمت الناس من الاستمتاع بالتنوع والاختيار. وأصبح الإنسان وكأنه مخيرٌ بين أصناف على شيء من الاختلاف البسيط ضمن منتج واحد.

فإذا نظرنا إلى السيارات الجديدة في السنوات الأخيرة، نجد شبه اختفاء لأي تفرد في الشكل من الخارج أو الداخل، أو حتى في الأداء ضمن الفئات المختلفة، أي حسب قوة محرك كل واحدة. وبالنظرة المتفحصة إلى جموع السيارات التي تتحرك أمامك على الطريق، تكاد تعجز عن معرفة الواحدة من الأخرى، بدءاً بماركتها، وانتهاءً بالبلد الذي تنتمي إليه. لا تستطيع أن تقول إلا بالصدفة إن هذه السيارة يابانية أو ألمانية أو فرنسية أو أمريكية، وخاصة في الطرز المتوسطة الأكثر رواجاً. وإذا وُجد أي فرق من أي نوع كان، فهو لا يشكِّل خصوصية أصيلة بقدر ما يشكِّل اختلافاً طارئاً، بمعنى أنك نادراً ما تستطيع عزوه إلى الأسلوب الخاص للشركة المصنعة. وهذه مسألة محيِّرة في مرحلة من التاريخ يكثر فيها الكلام عن الابتكار والأسلوب وفنون التصميم المختلفة. إذ فقدت أصناف السيارات كثيراً من نكهتها حتى الفاخرة منها، ومن الصعب أن نعزو ذلك إلى أسباب أخرى عدا الأسباب التجارية. وكأن هناك حكمة حكمت وأمرت بتقليد «الموديل» الناجح بهدف تحسين القدرة التنافسية، واتباع الشكل الذي «راج». طبعاً هناك مقاييس التكلفة، فالأكثر مبيعاً هو أيضاً أقل تكلفة. وبالتالي، فإن المطلوب هو اللحاق بالأنموذج، والتهافت دائماً نحو صاحب أكبر فرصة للرواج.

أصبح التنافس في التشبه بالأكثر رواجاً. وهذا يؤدي بالتالي إلى إسقاط أي «منتج» كان يمكن أن تكون له فرصة لدى أصحاب الذوق المختلف أو الرغبة المختلفة. وهذا القانون ينجرُّ على أشياء كثيرة تتفاوت في أهميتها مثل محطات التلفزيون ولعب الأطفال والأجهزة الالكترونية وربما نمط الغناء! والحقيقة إذا وضعنا جانباً بعض الاستثناءات، فإننا نكاد لا نكون أمام مئة محطة تلفزيون نختار منها، بل أمام تلفزيون واحد علينا أن نختار إحدى قنوات بثه. أسلوب الأخبار، فبرامج المقابلات، المراسلون، الحفلات، المسلسلات.. كل شيء متشابه، ولا ينافس إلا في تقديم اختلاف بسيط.

وحين يدخل المرء أحد المحلات الكبيرة للعب الأطفال، وفيها مئات الأرفف، لا يجد بعد جولة متفحصة أي لعبة جديدة مختلفة بشكل لافت: سيارات «الريموت كونترول»، الدمى الوبرية المنتفخة، الألعاب الإلكترونية.. إلى آخر العدّة المعروفة. أشياء مكررة ومكررة منذ سنين طويلة، والعنوان واحد: «لن تجد هنا إلا الكثير الرواج»، ولن يُنتج أو يُستورد إلا ذاك الذي يبيع كثيراً! وكأن في جميع هذه المنتجات، انتفى المتلقي الفرد، بل أعطيت اختياراته تعريفاً مسطحاً بناءً على نمطٍ واحد نجح ثم ألغى الباقي.

عليك أن تقبل بالنوع الواحد الذي اختاره صندوق البيع. وأصبحت الأشياء التي تتمتع بشيء من الفرادة تمر من أمامك كشهب السماء وتختفي، ليسود ويطغى المشهد الأحادي.

منذ ثلاثة عقود، كان لكل صناعة سيارات طعم ونكهة.. الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأمريكية. ثم جاءت السيارة اليابانية. بدأت وكأنها بلا شكل، ثم اتجهت لتقليد بعض الأنماط الناجحة الشكل، ثم في لحظة ما أو في غفلة من الزمن، أصبح «الشكل» الذي بدأ مقلِّداً وكأنه هو الشكل. ومع الوقت، أصبحت جميع السيارات وكأنها وليدته، من دون أن تقول، وأصبحت جميع السيارات وكأنها يابانية، وإن اختلفت من عام لآخر، فلا تختلف بتصميم فريد بقدر ما تختلف باتجاه واحد.

ولكل قاعدة استثناء، وما عليك إلا أن تبحث عنه..

كميل حوا 



نعمة لا يعرف قيمتها إلا من يفتقدها..

الأمان الاجتماعي في المدن العربية



لو وضعنا جانباً أعمال العنف لأسباب سياسية أو حربية، التي يمكنها أن تندلع فجأة في أية مدينة في العالم لتحول الحياة فيها فجأة إلى جحيم، ولو تطلعنا إلى جانب الأمن الاجتماعي، ونعني به غياب المخاطر التي يمكنها أن تتهدد الحياة اليومية لسكان المدن على أيدي «جيرانهم» في المدينة الواحدة، للاحظنا أن المدينة العربية كانت ولا تزال عموماً آمنة أكثر من غيرها من المدن في العالم، وخاصة المدن الكبرى في أمريكا وأوروبا الغربية على سبيل المثال. الصحافيان شوقي الدويهي وعامر الصومعي يؤكدان صحة هذه الملاحظة، ويحاولان تفسيرها بعدد من خصوصيات المدينة العربية المعاصرة.

يندر، بل يستحيل، أن نقع على مجتمع خالٍ تماماً من العنف. فجميع المجتمعات، سواء القديمة أو الحديثة، شهدت وتشهد أشكالاً من العنف بهذا القدر أو ذاك.

وإذا كان هناك من فرق بين مجتمع وآخر على هذا الصعيد فهو، في الحقيقة، فرق يطال مدى تفشي هذه الظاهرة واتساعها أو ضمورها والأشكال التي تعتمدها والأغراض التي تسعى وراءها. وعليه، فمن الواضح أن المجتمعات الغربية، سواء الأمريكية أو الأوروبية هي مجتمعات يتجلى عنفها بطرق هي بعددها ونوعها غير الطرق التي يتجلى فيها العنف في مجتمعاتنا العربية. وهذا الاختلاف أفضى إلى القول إن مجتمعاتنا، وبالتالي مدننا، تتمتع بهذا القدر أو ذاك بنوع من الأمان النسبي قياساً على ما هو عليه حال المدن الغربية بعامة. والأمر صحيح.

الأرقام الدموية.. صعبة على القراءة

من الممكن للقارئ المهتم بالأرقام أن يجد الكثير منها على شبكة الإنترنت. ولكن قراءة هذه الأرقام تتطلب تمحيصاً دقيقاً لإدراك ما تمثله فعلاً. فما يسمى «جريمة» في التقارير الرسمية يشمل كل أشكال خرق القانون بدءاً بجنايات القتل وانتهاءً بإعطاء شيك من دون رصيد أو تلقي رشوة أو حتى مشاكسة شرطي السير. ولذا، إن كانت الأرقام المتعلقة بالبلدان العربية تتحدث عن الجرائم بعشرات الألوف لكل دولة على حدة مما قد يثير قلق القارئ العربي، فإن التدقيق في هذه الأرقام سرعان ما يطمئنه.

فلو أخذنا جرائم القتل مثلاً، لوجدنا أن إحصاءات الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية تشير إلى وقوع جريمة قتل كل 31 ثانية. أما في الهند حيث يبلغ عدد السكان أكثر من ثلاثة أضعاف سكان أمريكا، فتقع جريمة قتل واحدة كل 16 دقيقة.

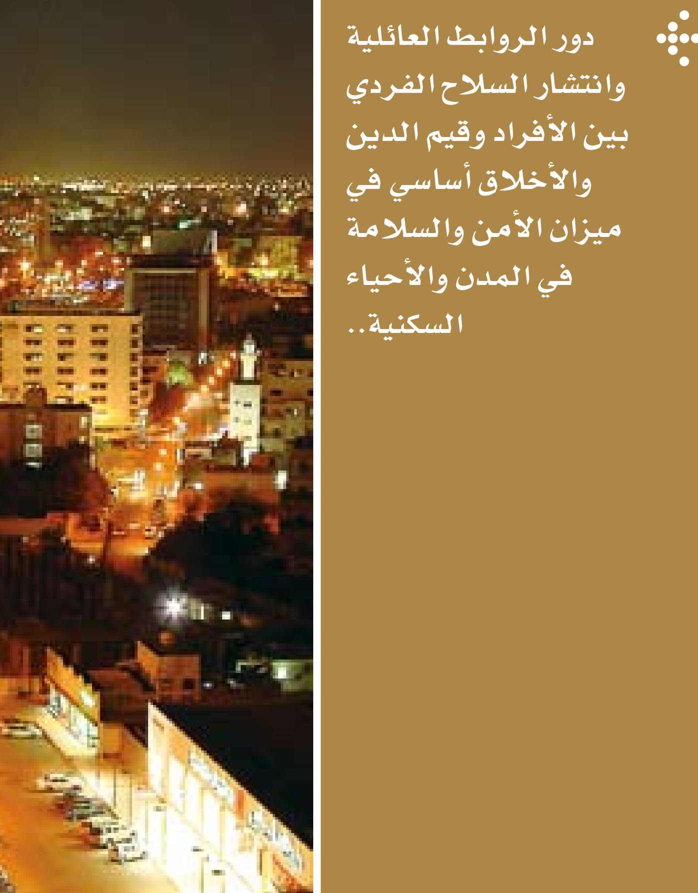
المسألة إذن مسألة اختلاف المجتمعات. ولكن هل يعود تفشي الجريمة إلى الحداثة ونمط الحياة الغربية كما هي اليوم.. لا شيء يؤكد ذلك. فالوضع في أمريكا الجنوبية ليس أفضل حالاً منه في أمريكا. ولعل المثل الأشد فجاجة يأتي من جنوب إفريقيا حيث أحصيت 19,000 جريمة قتل خلال العام 2006م، مقابل 426 جريمة قتل في سوريا سنة 2004م!!

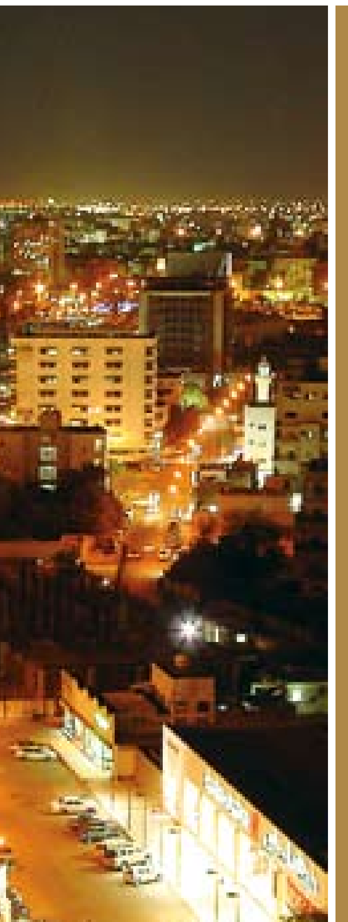
ولهذا لم يكن مستغرباً أن يعبِّر مهندس جنوب إفريقي يعمل في البلاد العربية عن دهشته الكبيرة للشكل الذي تُعرض فيه الحلي الذهبية والجواهر في المتاجر المشرعة أبوابها للمارة، قائلاً: لو ان متجراً واحداً تصرَّف هكذا في جوهانسبرغ لتعرض للسطو وقُتل صاحبه خلال دقائق.. ثم يصحح كلامه: «خلال دقيقة واحدة».

وفيما يقول رئيس الندوة الدولية لمكافحة الجريمة والإرهاب، الجنرال أناتولي كوليكون، إن هناك 400,000 جريمة ترتكب يومياً في العالم، وإن الجريمة قد نمت خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة حوالي 8 مرات في أمريكا، و7 مرات في بريطانيا والسويد، و4 مرات في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، ومرتين في اليابان، نجد أن البلدان العربية بقيت، والحمد لله، بعيدة عن هذا النمو المرعب. لا بل يمكن القول إنها، رغم ازدياد معدلات الجريمة عموماً بقيت نسبياً بمنأى عن هذا المسار العام. ففي حالة سوريا التي أشرنا إليها أعلاه انخفض عدد جرائم القتل في العام 2005م عما كان في العام السابق، ليصل إلى 340 جريمة فقط استناداً إلى مركز الإحصاء المركزي بدمشق.

الإحساس أوضح من الأرقام

والواقع أنه يمكن للقارئ أن يستغني عن هذه الأرقام جملة وتفصيلاً بمجرد الالتفات إلى حياته اليومية في المدينة العربية التي يعيش فيها.





دور الروابط العائلية وانتشار السلاح الفردي بين الأفراد وقيم الدين والأخلاق أساسي في ميزان الأمن والسلامة في المدن والأحياء السكنية..

ففي القاهرة على سبيل المثال، يمكن لأية سيدة أن تستقل بمفردها سيارة أجرة ليلاً لتنتقل من خان الخليلي في وسط القاهرة إلى أطراف مصر الجديدة، من دون أن تخشى التعرض لأذى السائق. فهي والسائق يعرفان أنها بمجرد ظهور أول بادرة خطأ، فإنها ستلقى الدعم الفوري من كل المارة ومن في الجوار.. رغم كل الأرقام التي تتحدث عن ارتفاع نسبة جرائم التحرش والجريمة عموماً في مصر.

ورغم كل الأرقام أيضاً التي تتحدث عن وجود 10 آلاف قضية جنائية في المملكة العربية السعودية ينظر فيها 674 قاضياً في 266 محكمة، يعرف المرء في الرياض أن بإمكانه التجول أينما شاء في العاصمة بعد منتصف الليل بكل ما يحمل من نقود من دون أي إحساس بوجود خطر تعرضه للسلب.

ومما لا شك فيه أن التعديات التي تطال الأفراد في المدن العربية لا تشكل، في الحقيقة، ظاهرة بكل معنى الكلمة على غرار ما في المدن الغربية. فالمعروف أن في هذه الأخيرة يتجنب المرء قدر المستطاع التنقل وحيداً في الشوارع، وبخاصة أثناء الليل، خوفاً من أن يتعرض للسرقة، أو للضرب لسبب يعزى إلى هويته التي يفضحها لون بشرته. وفي هذا الصدد يروى أن إحدى أهم النصائح التي تعطى للمواطن الأمريكي، أو للذي يزور أمريكا، وهو يتسكع ليلاً في الشوارع أن يبقي دوماً في حوزته ولو كمية صغيرة من الأموال يبذلها طوعاً إذا تعرض للسرقة. ذلك أن عدم توافرها في جيبه قد يؤدي به إلى الموت. أما من يزور أية مدينة عربية فلا بد له من أن يلاحظ أن الناس تتنقّل من مكان إلى آخر وترتاد المقاهي والأندية خلال الليل كما في النهار من دون الشعور أنها يمكن أن تتعرض لأي مكروه.

المدينة العربية
الوافدون إليها مختلفون

تتميز المدن الغربية عموماً، ولا سيما الأمريكية، في كونها تضم خليطاً كبيراً من الأقليات العرقية التي وفدت إليها تباعاً من بلدان عديدة سعياً وراء تحصيل عيشها. أدى هذا الخليط المتنافر ثقافياً، من ضمن ما أدى إليه، إلى تشكيل نوع من «الغيتويات» المهمَّشة داخل هذه المدن، وهو تهميش دفع بها تاريخياً إلى اعتماد أساليب تتوسل العنف في كثير من الأحيان، وذلك لتحقيق ما تصبو إليه. وقد لا نكون بحاجة إلى التذكير بواقع السود في أمريكا



وما عانوه من اضطهاد وتهميش ونظرة عنصرية وبالتالي احتلالهم مرتبة دونية في السلّم الاجتماعي. ويفسِّر هذا الواقع النسبة العالية للجريمة على أنواعها في أوساطهم، الأمر الذي جعل من أمكنة تواجدهم في بعض المدن أمكنة خطرة مثل حي هارلم الشهير في نيويورك. والواقع نفسه هو ما يفسِّر اعتماد جاليات أخرى وفدت إلى أمريكا، وبصورة خاصة الجالية الإيطالية التي اعتمد بعضها جميع أساليب القتل والابتزاز والتهديد والاتجار بالممنوعات، وأعني هنا العائلات المافيوية التي أرعبت سنين طويلة المجتمع الأمريكي.

وشهدت المجتمعات الأوروبية هي أيضاً هجرة واسعة من بعض البلدان، وبخاصة من المغرب العربي وإفريقيا، وإذا أخذنا فرنسا مثلاً، فالواضح أن أبناء هذه الجاليات الذين استقر أهلهم في ضواحي المدن، لم يتوانوا في الكثير من الأحيان وبفعل التهميش الذي يتعرضون له عن اعتماد أساليب عنف. وما شهدناه في الآونة الأخيرة في فرنسا من حرق للسيارات والاعتداء على الناس والمحال خير دليل على ما يعانيه هؤلاء. إلى هذا ثمة ظاهرة بدأت تتجلى في بعض الدول الإفريقية وأمريكا اللاتينية قوامها اللجوء إلى العنف من قبل أهل البلد الأصليين ضد الجاليات الأخرى التي يعتبرون أنها تستغلهم وتسرق خيراتهم. هذا كله يجعل من هذه البلدان وتحديداً مدنها مدناً لا تتمتع بالأمان.

هذا العنف وما يستتبعه من عدم استقرار وأمان نتيجة وجود جماعات وافدة من بلدان أخرى لا وجود له، في الحقيقة، في مجتمعاتنا العربية. ذلك أن تركيبة مجتمعاتنا، خاصة في المدن، تختلف كثيراً من هذه الزاوية.

وللإيضاح يمكننا أن ندخل في شيء من التفصيل. فهناك عدد كبير من الدول العربية مثل مصر وسوريا والمغرب والجزائر والسودان والأردن، لم تشهد أية هجرات تستحق الذكر إليها لوافدين ساعين إلى العمل والاستقرار فيها، كما شهدت أمريكا الأفارقة والإيطاليين والصينيين.. وهناك من جهة أخرى دول الخليج العربي، التي شهدت في العقود الأخيرة نهضة تنموية واقتصادية عملاقة استدعت الاتكال جزئياً على عمالة وافدة.

ولكن ما بين المجتمعات الخليجية والعمالة الوافدة عقد صريح. فالعامل هنا هو لعمل معين ومحدَّد بدقة مقابل مكافأة محددة بدقة. فهو ليس في موطن بديل كما هو حال الإيطالي في أمريكا، ولا هو في القاع وفوقه أفق مفتوح للصعود الاجتماعي بمختلف الوسائل، كما كان حال السود في أمريكا.. وحزم المجتمعات الخليجية في التطبيق الصارم لهذا العقد، يبقي العمالة الوافدة (مهما بلغت في تجاوزاتها) بعيدة جداً عن أن تقارن بالجماعات التي وفدت إلى أمريكا للاستيطان والاستقرار من حيث زعزعة الاستقرار الاجتماعي في البلد المضيف.

الأحياء الشعبية.. ماذا عنها؟

باستثناء القاهرة، حيث تفشَّت في العقود الأخيرة ظاهرة الأحياء العشوائية عند أطرافها، يمكن القول إن المدينة العربية التقليدية كانت ولا تزال من دون أحياء شعبية خارجة عن نسيجها العام. فمفهوم الحي الشعبي هو الحي المخصص للفقراء والمهمَّشين اجتماعياً، ويعاني من لا مبالاة مؤسسات المجتمع فيبقى منسلخاً عن النسيج العام للمدينة ومنعزلاً عنه وشكَّل بالتالي موطناً ملائماً للجريمة، كما هو حال «هارلم» في نيويورك والـ «غوت دور» في باريس، هذا المفهوم هو غير موجود في المدينة العربية. فما يرادف الحي الشعبي في المدينة المعاصرة هو «البلد القديم»، أي النواة القديمة للمدينة، وهذا هو حال دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وطنجة والرباط وتونس وجدة وحتى القاهرة نفسها. وهذه الأحياء القديمة التي كانت موطن كل سكان المدينة من أثرياء وفقراء حتى بدايات القرن العشرين، لن تُخلى تماماً من سكانها الأصليين. فإن



> السبيكة الاجتماعية في المدن العربية مختلفة عنها في الغرب. ورغم العمالة الوافدة في الخليج فالاستقرار بعيد جداً عن المقارنة مع الوضع المزعزع في مجتمعات الوافدين إلى أمريكا..

كان بعضهم قد انجذب إلى السكن في العمارات الحديثة التي راحت تتكاثر في ضواحي المدينة القديمة لتشكِّل لاحقاً المساحة الكبرى من المدينة كلها. فإن الكثيرين بقوا في أحيائهم القديمة هذه.

طبيعي أن يحرص هؤلاء على الأمن الاجتماعي في مناطقهم هذه من خلال جملة أعراف وتقاليد وقوانين غير مكتوبة، ولكنها تبقى نافذة ومطبَّقة. ولذا، يمكن للمرء أن يشعر وهو يتجول في أزقة باب قنسرين في حلب القديمة ليلاً من دون أن يصادف أي شخص من حوله، بالأمان نفسه الذي يشعر به في ميدان سعدالله الجابري حيث الأضواء والناس والشرطة.

حجم المدن يلعب دوره

وفي هذا الصدد، لا بد من التطرق إلى عامل آخر يتعلق بحجم المدن وما لهذا الحجم من تأثير على الأمن أو عدمه. ففي هذا الصدد تشير الدراسات التي تناولت هذا الموضوع إلى أن نسبة الجريمة في المدن الكبرى هي نسبة عالية قياساً على المدن الصغيرة الحجم. وهذا الأمر ليس بمستغرب، ذلك أن ضبط الأمن وملاحقة الجريمة في المدن الكبرى هما من الصعوبة بمكان. ذاك أن طابع الغفلة يطغى على مميزات هذه المدن، أي ان الناس فيها لا يعرف بعضها بعضاً. والغفلة تسهم بصورة من الصور في نشوء عصابات تمتهن الاحتيال والسرقة والجريمة.

أما فيما يتعلق بمدن العالم العربي، فالواضح أن في معظمها كثافة سكانها ضئيلة، هذا إذا استثنينا مدينة القاهرة التي تشبه من هذه الزاوية كبرى المدن الغربية. ففي المدن العربية ضوابط على صعيد ما يسمى بحياة الأحياء والحارات حيث ينخرط الناس في علاقات يومية، وبالتالي يعرف بعضهم بعضاً، الأمر الذي يجعلهم حراس أمكنتهم. ففي دراسة عن مدينتي بيروت وعمَّان تناولت حياة الأحياء والتزاور بين الجيران هناك فصول تتكلم عن الدور الذي يلعبه الأولاد في «محاصرة» الغريب الداخل إلى الحيّ، وهي محاصرة تأخذ شكل الدليل الذي يساعد الغريب وإرشاده إلى المكان الذي يقصده. إذن يمكن القول إن المجتمع الأهلي في المدن العربية يقف حاجزاً أمام الكثير من التعديات التي يمكن حصولها.

الخوف على الجار لا منه

وفي هذا الإطار يروي رجل أعمال من أصل عربي نشأ وترعرع وعمل في أمريكا أنه قرر العودة إلى الاستقرار



فـي موطن آبائه نتيجة حادثـة صغيرة يرويها بنفسه قائلاً: «كنـت خارجاً مـع ابنة عمي في نزهة للتعـرف إلى المدينة التـي أزورهـا أول مرة. وما إن خرجنا، حتـى أغلقت الباب وأعطـت المفتاح للجـارة، وطلبت إليهـا أن تعطيه لوالدتها إن حضـرت أثناء غيابنا. وعندما ابتعدنا قليلاً عن الجارة، سـألـت قريبتـي: ألا تخافيـن من جارتك أن تسـرق البيت؟ فضحكـت وقالـت: الجيـران كلهـم عائلة واحـدة. ولا أحد يخاف من جاره بل يخاف عليه».

دور الروابط العائلية

هذه العوامل على أهميتها ليست الوحيدة التي تعزِّز الأمان النسبـي فـي مدننـا العربيـة. إذ ان هناك عوامـل أخرى لا تقل عنها أهميـة. فالمعروف عن المجتمع الغربي غياب الوسائط بيـن الدولة والمجتمع، وهـي وسائط تتجسَّد في مؤسسـات، فيمـا لا تزال للوسائط هذه بعض الفعالية في مجتمعاتنا.

فأشـكال التضامـن القائمـة على مـا يسمى بـ «العلاقات الأوليـة»، أي كل ما يمت بصلة إلـى علاقات القربى، سواء داخـل الأسرة النواة أو الأسـرة الموسَّعة أو حتى العشيرة، وما ينجـم في هذه العلاقـات من هيئات وروابـط أحياناً، هذه الأشكال فقدت الكثير من فعاليتها، إن لم نقل تلاشت تمامـاً، في المجتمعات الغربية حيـث ينهض المجتمع على ثقافـة قوامهـا النزعة الفرديـة. وإذا وضعنـا جانباً بعض فضائـل هذه النزعـة على أكثر مـن صعيد يبقـى أنها في النهايـة تعـرِّي الفرد مـن بعض روابطـه المجتمعية التي لعبـت تاريخيـاً دوراً مهماً فـي تماسك العائلـة التي تشكِّل المدرسة الأولى في تنشئة أفرادها. وفي هذا الإطار تجمع الدراسات التي تناولت مشكلات الانحراف في الغرب على أن أحد أهم أسبابـه إنما هو التفكك الذي يصيب مؤسسة العائلـة. وتؤكـد هذه الدراسـات أيضـاً أن معظم الجرائم التي ترتكب مـن صنع هؤلاء. إذن هذه الحلقة التي تشكِّلها العائلة وما يتبعها من تضامن بين أفرادها أو عدم تضامن تدفع بهؤلاء إمـا إلى الانخراط في المجتمع بصورة سوية، أو الجنـوح إلـى تشكيل عصابـات تتوسل العنـف وبالتالي تهديد الاستقرار.

ومن هذه الزاوية، لا بد من الاعتراف بأن مؤسسة العائلة فـي مجتمعنـا العربـي لا تـزال تلعـب إلى حـد بعيد دور الضابـط النفسي والمجتمعي. وهـذا الأمر يؤثر مباشرة في سلوك أفرادها، هـذه السلوكات، ويلجم هذا السلوك إلى حد بعيد أساليـب العنف وما يترتب عليها من تدمير لقواعـد الحيـاة السوية التـي يرعاها القانـون. ولا يغيِّر بشـيء في المنحـى العام بعض الاستثنـاءات التي تظهر هنا وهناك.

تفشي اقتناء الأسلحة أيلعب دوراً أم لا؟

إلـى كل ما تقدم، هناك مسألة لا بد مـن الإشارة إليها، ألا وهي تفشي ظاهـرة اقتناء السلاح، وأثـره في ازدياد نسب الجريمة وتهديد الأمن الاجتماعي.

الحالـة الأمريكيـة واضحة. شـراء السلاح النـاري في أية لحظة ممكن في معظم الولايات. وبسبب الشعور العام بعدم الأمـان، فإن معظم المنـازل والمكاتـب الأمريكية تتضمن قطعة سلاح واحدة على الأقل. وسهولة الوصول إلى السلاح والتنقل به تعزِّز فرصة استعماله.

أما البلاد العربية فهي عموماً أكثر تشدداً بكثير من أمريكا فـي مسألة اقتناء الأفراد الأسلحـة النارية، وتشترط لذلك رخصـة قانونية تُعطى فقط إذا أمكن تسويغ اقتناء السلاح النـاري. واقتناء السلاح من دون رخصة قانونية معطاة من السلطات الرسمية يشكِّل جرماً خطيراً على صاحبه.

ولكـن، حتى ولو تركنـا الضابط القانونـي، وتطلعنا إلى ما يحصـل عملياً على أرض الواقـع، للاحظنا أن تفشي اقتناء السـلاح الفردي فـي بعض الـدول العربية مثـل لبنان، لم

تقع في الولايات المتحدة جريمة كل 31 ثانية وتقع في الهند جريمة كل 16 دقيقة.. مع ان عدد سكان الهند يزيد أكثر من ثلاث مرات على عدد سكان الولايات المتحدة. وفي جنوب إفريقيا 19 ألف جريمة في مقابل 426 جريمة فقط في سوريا..



يُحدث ارتفاعاً في معدلات الجريمة الاجتماعية مقارنة بحالته في أمريكا. والمثال الأوضح في هذا المجال يأتي من اليمن، حيث يتفشى اقتناء السلاح على نطاق واسع، سواء أكان سلاحاً نارياً أم أبيض كالخناجر. ومع ذلك فإن ما تشهده اليمن على صعيد معدلات الجريمة هو الأدنى في البلدان العربية بأسرها. وهذا يدعم التفسير القائل إن العربي ينظر إلى السلاح على أنه «زينة الرجال» أكثر مما هو أداة من أدوات الحياة اليومية وتصريف أمورها.

القيم الدينية والأخلاقية

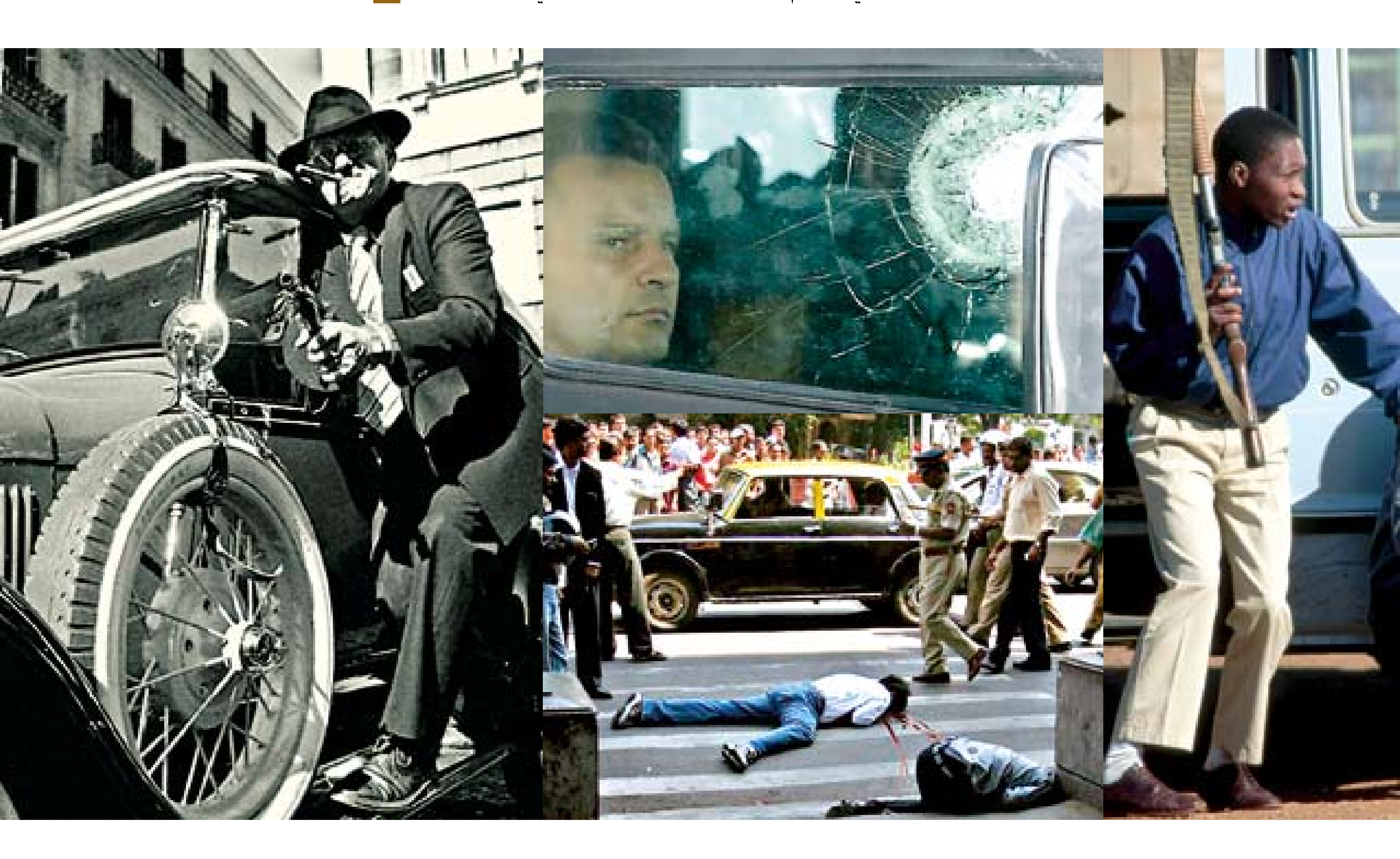
أخيراً، لا بد من الاعتراف بأن القارئ لو شاء تفنيد كل نقطة على حدة من النقاط التي أشرنا إليها سابقاً، لأمكنه ذلك.

يمكن لهذا القارئ أن يقول إن السلاح موجود فعلاً، بشكله القانوني وغير القانوني.. وقد يطيب للبعض مقارنة المناطق العشوائية في القاهرة بـ «الغيتوات» في المدن الأمريكية.. وقد يقول البعض إن الهجرة من الأرياف العربية إلى المدن العربية لا بد وأن تشكِّل عامل ضغط يسهم في تفشي الجريمة.. وإلى ذلك يمكن أن يضيف البعض البطالة المتفشية في معظم الدول العربية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية في العديد منها، وغير ذلك الكثير.

ولكن الواقع اليوم، وما يشعر به أي منَّا تجاه مدينته، وغياب الإحساس بالخطر تجاه كل من فيها وأينما كان فيها يدحض كل ما تقدَّم.

فثمة رادع عن الجريمة يقبع في أعماق أبناء هذه المدن. وهذا الرادع تشكل أساساً من جملة قواعد وأعراف متوارثة، ولا شك في أن ما هو ديني يقع في صميمها.

مهما اشتدت الضغوط على ابن المدينة العربية، ومهما اتسع أمامه المجال لارتكاب «الجريمة»، أية جريمة، ومهما كانت علومه الدينية قليلة، هناك حضور قوي في وجدانه لمقاييس حددها الدين، تفصل بين السلوك الحسن والسلوك الجرمي بخط أحمر واضح لأبسط البسطاء.. واجتياز هذا الخط لا يزال، والحمد لله، يتسبب برهبة، لا فقط من العقاب في الآخرة، بل أيضاً من وضع المكانة الاجتماعية لهذا المتجاوز على المحك. فلا تعود الجريمة مجرد مغامرة تقاس بعوائدها وعواقبها، بل مقامرة تطيح بصاحبها في الأولى والآخرة.





خلال أيّام الإجازة ولا سيما الإجازة الصيفيّة الطويلة، يكثر النشاط العام من مهرجانات ومعارض وما شابه. وغالباً ما يتضمن الحديث عن هذا النشاط تصنيفاً له بين تثقيفي وترفيهي، وكأن الواحد منهما مختلف بالضرورة عن الآخر، أو كأنه نقيضه.

فراس عبدالله* يتناول هذين المفهومين، وما طرأ عليهما من تبدّل، ويرى ألاّ ضرورة لفك ارتباط الاثنين قسراً.

الترفيه والتثقيف هل هما نقيضان؟



نبدأ بالإشارة إلى ألاّ أحد يؤكد علناً أو رسمياً أن «الترفيه» نقيض «التثقيف». ولكن الاستعمال الشائع لهذين التعبيرين يوحي ذلك. وأكثر من ذلك، فهو قد غرس في وجدان المثقفين شعوراً بوجود تنافر بين المفهومين.

فالترفيه أصبح في وجدان العامة، ولا سيما الشبَّان، مرادفاً للمرح والتسلية وتمضية الوقت، وهذا ما ينظر إليه البعض الآخر، ومنهم المربون وجيل الآباء، على أنه هدر للوقت. أما التثقيف الذي يراه المربّون والآباء على أنه نشاط مفيد، فالراجح أن يراه الشبان نشاطاً مملاً لا مرح فيه ولا متعة، لا بل قد يحسُّون تجاهه وكأنه امتداد لنشاطهم المدرسي الذي انتظروا فصل الصيف بفارغ الصبر للابتعاد عنه.

الواقع أن الحقيقة ليست في هذا ولا في ذاك. بل في منطقة ضبابية بين الاثنين، تحددها قيمة النشاط في ذاته، والبراعة في صياغته.

* كاتب وباحث

جذورها في التربية.. المدرسية

طبيعي أن يولي الآباء جلَّ اهتمامهم للتحصيل العلمي عند أبنائهم. وعلى رأس مجالات هذا التحصيل، هناك بالطبع المدرسة. ولكن جيل الآباء هذا درس وتعلّم وفق رؤية للتربية تبدَّلت تبدلاً ملحوظاً بمرور الزمن. ومن دون الغوص في مفاضلة التربية قديماً عما هي اليوم، يكفي الإقرار أن ما طرأ على التعليم من متغيرات في مناهجه ومواده وحتى أهدافه، يضعنا أمام «مدرسة» بالمعنى الواسع للكلمة تختلف تماماً عن المدرسة التي تخرَّج فيها آباؤنا، وكانت في عصرهم موطن العلم والمعرفة الوحيد في محيطهم. بدليل أن ما يسمى اليوم «نشاطاً خارج المنهاج» ويشمل عدداً لا يحصى من أبواب النشاط الذي يقوم به الطلاب خارج المدرسة ويرمي إلى تعزيز علاقاتهم بمحيطهم وتطوير نظرتهم إلى العلوم من حولهم، هذا النشاط كان غير معروف على الإطلاق في مدارسنا قبل جيل واحد.

فلو شئنا اختصار التحول الذي طرأ على التربية والتعليم خلال السنوات الأخيرة في البلاد العربية (وقبل ذلك في بلدان الغرب) لقلنا إن هناك اعترافاً جديداً وشاملاً



corbis

عالمياً، بأن العلم يُكتسب في مكانين لا في واحد، المدرسة والخارج أيضاً.

قرارات جديدة تستحق الثقة

إلى ما تقـدَّم، وفَّرت أدوات الاتصال من تلفزيون وحاسوب ومطبوعات مصادر معلومات للجيل الجديد لم تكن متوافرة للجيـل السابـق. والكل يعـرف ذلك. ولكن مـا يصعب على أبناء الجيـل السابق الإقرار به، هـو أن مصادر المعلومات هذه أثـرت في عقول الشبّـان وجعلتهم يتمتعـون بقدرة لم تكن لجيـل الآباء. فعندما كان أحدهـم يتجول في الطبيعة قبل نحو ربع قرن، كان الأمر على الأرجح نزهة تريح جسمه ونفسه من عناء العمل. أما النظرة الحادة التي تميِّز الجيل الجديد، فقد تجعل من نزهة أحدهم في موقع طبيعي فرصة للسؤال عن جيولوجية المكان، وقد تسترعي الحشرات التي يصادفها اهتمامه أكثر مما قد يكون مهتماً بالاستلقاء على العشب وترك الوقت يمر.

ويمكننـا أن نعطـي مثلاً أوضـح.. فعندما كان جيـل الآباء يشاهـد فِلمـاً سينمائيـاً، كان جـلَّ اهتمامـه منصب على الشحنـة الميلودراميَّة للقصة العاطفية.. أما هذا الاهتمام فقـد بـات في أسفـل اللائحة عنـد شبَّان اليـوم. بدليل أن الأفـلام التي تهمهم تكاد لا تمـت بصلة إلى ما كان آباؤهم يميلـون إليه. فهم قـد يناقشون الفلم وقيمتـه الأدبية، وقد يعجبـون بفكرة اختـراع ظهرت فيـه، وقد يقارنـون قصته بالعالم الحقيقي الذي يحيط بهم.

سُقنـا هـذا الحديث المطول عـن التحوّل الذي طـرأ على وعـي جيل الشباب اليوم لتأكيد أن هذا الجيل يستحق الثقة بقدرته على استخلاص المعرفة والثقافة من مصادر كان جيل الآباء يعدها هدراً للوقت. وبات التحوّل الذي طرأ على مفهوم التعليم والتربية يفرض خلط أوراق الترفيه والتثقيف وإعادة فرزها من جديد.

يكمِّلان بعضهما ولا يعوِّض أحدهما من الآخر

عندمـا نقـرأ اليوم عن وقائـع مهرجان كبير معيَّـن، غالباً ما نسمـع أنه جمع أبـواب النشاط الثقافية إلـى الترفيهية. وكأن أحـد هذين اللونين أشبه برشوة لاستقطاب جمهور معيَّن غير

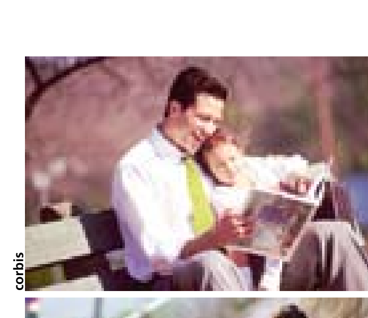


corbis

معني باللون الثاني. فالمهتم بالألعاب النارية مثلاً سيجد ضالته، والمهتم بالأمسية الشعرية أو بالندوة الفكرية أو بمعرض الرسم سيجد ضالته أيضاً. والأسوأ من ذلك هو اعتقاد بعض القائمين على النشاط العام أنهم بحجة الترفيه سيتمكنون من استدراج الشبَّان واللامبالين إلى النواحي الثقافية التي تسهم في صقل شخصيتهم وتوسعة مداركهم. والواقع أن التثقيف الحقيقي لا يمكنه أن ينجز بواسطة خديعة، وقد باتت هذه الخديعة من السذاجة بحيث لم تعد تمر على أحد. فاللامبالي بنشاط ثقافي بحت، قد يذهب إلى مهرجان معيَّن، فيشاهد الألعاب النارية ويلهو بأدوات اللهو من دون أن يعرج على أي أمور ثقافية. والعكس صحيح أيضاً.

الترفيه ضرورة وحق

لم يعد هناك من يتطلع للترفيه على أنه مجرد هدر للوقت لا طائل تحته. فالترفيه السليم حاجة نفسية وجسمانية بات الطب وعلم النفس يسلِّمان بأهميتها لإعادة شحن الجسم بالطاقة، وتصفية الذهن المرهق بمتاعب الحياة اليومية. وعندما نضيف إلى متاعب الحياة اليومية المجهود المبذول خلال أيام الدراسة، يصبح الترفيه حقاً من حقوق الشبان المطالبين به.


corbis

في كثير من بلدان العالم يستدعي هذا الموقف الإيجابي من الترفيه حذراً من كثرة المنزلقات التي يمكن للبعض أن يجمعها تحته. أمّا في المملكة العربية السعودية حيث تضمن الضوابط الاجتماعية والتقليدية إخلاء هذا المفهوم من كل المنزلقات التي يمكن أن تحوِّله إلى ما هو أسوأ من هدر للوقت ليصبح عبثاً خطراً، فيمكن الاطمئنان إلى سلامة النشاط الترفيهي، ويبقى الإقرار بأهمية دوره الذي يمكنه أن يكون على تماس مع الثقافة.

ويبدو النشاط الرياضي في ظاهره مفيداً فقط لممارسيه، ومجرد تسلية ممتعة لمتابعيه. ولكننا لو تطلعنا إلى مفهوم الثقافة بمعناها العميق، للاحظنا أنها تتضمن اشتراك مجموعة بشرية في مكان معيَّن باهتمام معيَّن. وفي كل بلدان العالم، أصبحت أخبار الفرق الرياضية جزءاً من ثقافة المجتمعات. فإذا سلَّمنا جدلاً أنه يجوز لبعض المثقفين إسقاط عالم الرياضة بأسره من اهتمامهم، فلا يجوز لنا أن نجرِّد المعرفة بعالم الرياضة من جانبها الثقافي أو من قيمتها الثقافية عند المهتمين بها.

فمتابعة مباريات كرة القدم، تنقل للمتابع الكثير غير الاستمتاع بمهارة الفريق الذي يؤيده، فهو يكتشف الفريق المنافس، والبلد المضيف وهويته الثقافية والحضارية، ولو عرضاً، ولو على نحو جزئي. بدليل أن افتتاح الدورات الرياضية الكبرى صار أقرب إلى المهرجانات الثقافية منه إلى الدورات الرياضية.

الأمر نفسه يصح في سباق السيَّارات. فالمولعون به، كما نعرف، يتجاوزون في متابعتهم المشاهدة والنتائج، ليجمعوا إلى معلوماتهم الكثير المتعلق بهندسة الميكانيك وجوانبها التي لا يعرفها الكثيرون غيرهم. والألعاب الجماعية للأطفال والكبار تنمِّي عند ممارسيها الإحساس بالمشاركة وروح الفريق.

ويمكن بشيء من التأني ضرب الكثير من الأمثلة التي يمكنها أن تكون أعمق وموفقة أكثر من الأمثلة التي ضربنا.

يهمنا هنا التوكيد أن التطلع إلى الترفيه على أنه هدر للوقت قد ولَّى إلى غير رجعة.

التثقيف حاجة بغنى عن التسلل

ما من شك في أن النشاط الثقافي البحت يحتل مكانة على صعيد توسعة المدارك لا تقل عن المدرسة والمناهج التعليمية. وهناك تصور شائع -وخاطئ- يقول إن الشبَّان غير مبالين بهذا النشاط، وأن استدراجهم إليه يجب أن يصحبه إغراء الترفيه. والحقيقة أن مفهوم الثقافة العامة تغيَّر بدوره. وعلينا إدراك هذا التغير لفهم إشاحة نظر بعض الشبَّان عن هذا النشاط الثقافي أو ذاك.



corbis

فحتى وقت قريب مضى، ربما حتى جيل آباء اليوم، كان مفهوم الثقافة العامة يقول بجمع أكبر قدر من المعرفة والمعلومات تمهيداً للتخصص في مجال واحد منها، واتخاذ الفائض منها رصيداً احتياطياً يستخدم في صقل الشخصية، ومساعدة صاحبها في احتلال مكانة أرفع في محيط متنوِّع الاهتمام.

أما اليوم، فإن توافر أدوات التثقيف العام، وجمع المعلومات في أي موضوع مهما كان نوعه وموقعه على العالم، قد صار متوافراً أمام الشبَّان بكبسة زر، بدلاً من المجهودات الكبيرة التي كانت تُطلَب من ذويهم للحصول على جزء يسير منها. وبالتالي فإن الاهتمامات الثقافية للجيل الناشئ تتجه إلى أن تكون متخصصة في سن مبكرة جداً مقارنةً مع ما كانت في الماضي. وبالتالي، ألاَّ يكون أحدهم مهتماً بمعرض للفن التشكيلي، على سبيل المثال، لا يعني أنه يفضِّل البقاء في جهله، بل يعني أن اهتمامه يتجه في مجال آخر.

بعبارة أخرى، إن مفهوم القسريَّة -حتى ولو كانت هذه القسرية ذاتية- التي كانت تميِّز التطلع إلى النشاط الثقافي، مع ما يتضمنه ذلك من ضغط خفي على الجمهور للمشاركة فيه، هذا المفهوم لم يعد صالحاً اليوم، والضغوط الخفية لم تعد مجدية.

طبعاً هذا لا يعني على الإطلاق تقليل قيمة النشاط الثقافي العام، ولا دوره، ولكن المقصود هو أن يعي هذا النشاط حقيقة العلاقة بينه وبين جمهوره، بعد أن يعرف حقيقة هذا الجمهور. وكل ما يتطلبه ذلك عندما يصوغ هذا النشاط نفسه تمهيداً لاستقطاب الجمهور.

لا بل يمكن للنشاط الثقافي البحت أن يثق بنفسه وبجدواه وبقيمته أكثر مما في الحالات التي يسعى فيها للتزاوج مع الترفيه لتمرير ذاته، أو لجعل الآخرين يتقبَّلونه. فوظيفته حاجة ماسة للمجتمع. ولكن عليه أن يعرف أن في كل وقت من الأوقات، هناك في المجتمع من ليس في الظرف الملائم نفسياً ومزاجياً على الأقل للتفاعل معه. والأمر لا يعني مطلقاً انتقاصاً من قيمته، أو مقياساً لنجاحه أو فشله. فمن الظلم أن نطلب من تلاميذ المدارس الخارجين من الامتحان أن يتابعوا سلسلة محاضرات فكرية في قضية معينة.. لأن حاجتهم النفسية والجسمانية تميل في هذا الوقت المحدد إلى لون آخر من النشاط. تماماً كما لا يجوز أن يُمضي هؤلاء ثلاثة أشهر على شاطئ البحر، لا يغادرونه إلا لمشاهدة الألعاب النارية. وإن بدت من خلال هذا المثال المحاضرات الفكرية بصفتها نشاطاً ثقافياً، نقيضاً متطرفاً للألعاب النارية التي هي بالفعل نشاط ترفيهي مجرَّد، فإن ألوف الأعمال تقع في منطقة وسطى ما بين هذين الطرفين، كما يمكن تدوير الزوايا في معظمها لا ليتحول الثقافي إلى ترفيهي أو العكس، بل ليخاطب النشاط الواحد أكبر قدر من الأمزجة المختلفة في الوقت نفسه.

فالمطلوب من النشاط الثقافي والترفيهي ألا يتطلعا أحدهما إلى الآخر وكأنهما في منافسة. وألا يحاول أحد منهما نصب فخ للجمهور لاستدراجه إليه من خلال تطعيم نفسه بشيء من نكهة الآخر.

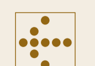
فالتثقيف والترفيه متكاملان. وفي هذا وذاك، تكمن القيمة في جدية النشاط والقيمة الفعلية لفحواه. والنشاط القيِّم سواء أكان ترفيهياً أم تثقيفاً له جمهوره. فالمسألة برمتها هي مسألة وقت مناسب ومكان مناسب.


corbis

صورة شخصية

في مطلع شهر أبريل المنصرم، توفي في فرنسا الكاتب والروائي المغربي إدريس الشرايبي عن عمر ناهز الواحدة والثمانين، ونُقل جثمانه إلى المغرب ليدفن في الدار البيضاء. الكاتب محمد القاضي يسلِّط الضوء على صورة هذا الأديب العربي الكبير الذي حظي بشهرة في المغرب وحتى في فرنسا، تفوق تلك التي حظي بها في المشرق.

إدريس الشرايبي.. الذي حمل المغرب معه على الدوام



ولد إدريس الشرايبي في 15 يوليو 1926م، بمدينة الجديدة، أحبِّ المدن المغربية إلى قلبه، نظراً إلى تاريخها الخاص، فخلَّدها في أعماله الروائية الكثيرة وفي مجموعته القصصية «من كل الآفاق».

تلقَّى تعليمه بالكُتَّاب في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى الدار البيضاء لمتابعة دراسته في ثانوية «ليوطي»، وسافر بعدئذ إلى فرنسا عام 1946م ليدرس الكيمياء. فدخل تاريخ المغرب المعاصر كأول مهندس مغربي يحصل على دبلوم الدراسات العليا في الهندسة الكيميائية، وكان ذلك في العام 1950م.

إلا أن هذا الشاب سرعان ما شعر بالملل من وظيفته مهندساً، فما كان منه إلا أن غادرها من دون أسف كبير ليتابع دراسات متقطعة في الطب النفسي. وراح في سبيل تأمين معيشته يعمل في عدد من المهن المتواضعة من دون أن يستقر على حال. فعمل حارساً ليلياً وحمَّالاً وعاملاً في أحد المصانع، ثم مدرِّساً للغة العربية ومنتجاً في الإذاعة الفرنسية، وأخيراً وليس آخراً مدرساً للأدب المغربي في جامعة «لافال» بكندا.

كان الشرايبي يعشق السفر والترحال، لكنه انتهى مقيماً في فرنسا. ورغم ذلك، لم تبعده المسافات عن حب وطنه الذي حمله معه في وجدانه وأحاسيسه أينما حل وارتحل. هذه التجربة الغنية كان لها إسهام مؤكد في تمكين صاحبها من تقديم إنتاج متميز بعمقه وواقعيته.

من الهندسة الكيميائية إلى الكتابة الأدبية

استهواه العمل الصحافي والأدب، وتفرغ للكتابة والإبداع الأدبي في القصة والرواية منذ الخمسينيات الأولى. فكان رائداً على أكثر من مستوى.

كان من المغاربة الأوائل الذين كتبوا بلغة المستعمر (الفرنسية) بعد رواية (موزاييك) لعبدالقادر الشطي التي صدرت سنة 1932م، من دون أن ينجرف نحو إرضاء الآخر عن طريق التصوير الفلكلوري للواقع المغربي، كما فعل الكثيرون من أبناء جيله. يضاف إلى ذلك أن الكاتب يعتبر واحداً من مؤسسي الرواية المغربية، كما يشهد على ذلك مؤلفه «الماضي البسيط»، فضلاً عن أنه كان سباقاً إلى كتابة الرواية البوليسية من خلال نصه الناضج والمشوق «المفتش علي». وأخيراً، فقد ظل الكاتب والأديب إدريس الشرايبي من بين الكتَّاب الذين حظيت أعمالهم بإقبال كبير من طرف جمهور القرَّاء في العالم الناطق بالفرنسية، وظلت روايته «الماضي البسيط» التي كتبها سنة 1954م تحافظ على ارتباط قوي بالكاتب، وأصبحت تدرَّس في عدة جامعات، على الرغم من ردود الفعل التي جابهها بها عند إصدارها أغلب المثقفين

المغاربة، فيما قوبلت بالاحتفاء في أوساط المثقفين بفرنسا، كما حظي الشرايبي بعدد من الدراسات النقدية في المغرب وفرنسا وبلجيكا والجزائر، وترجمت أعماله إلى عدد من اللغات.

تواصل إنتاجه الغزير منذ الخمسينيات من القرن الماضي وحتى نهاية عمره، وحصل على جوائز أدبية من بينها جائزة إفريقيا المتوسطية على مجموع أعماله عام 1973م وجائزة الصداقة الفرنسية-العربية سنة 1981م، ثم جائزة «مونديللو» على ترجمته لكتاب «ولادة في الفجر» في إيطاليا. وانضم إلى اتحاد كتَّاب المغرب في 17 مايو 1961م.

وفي تكريم للراحل إدريس الشرايبي، حيَّا الكاتب الطاهر بنجلون ذكرى رجل «ملتزم وشجاع، فتح الطريق أمام عدد من أجيال الكتاب المغاربة».. وأضاف: «إنه الأفضل بيننا، لقد كان أستاذنا. إنه كاتب كبير».

الكاتب المزعج

لُقِّب الكاتب إدريس الشرايبي بالكاتب المزعج نظراً لأسلوبه الساخر وتناوله العميق. تميز قلمه بالشغب الجميل والجرأة دون مهادنة والكلمة الصافية الصادقة، واللغة الساحرة والعميقة التي تشدك إليها، تلك اللغة الواصفة التي تضم في أحشائها الفكرة إلى الجمال، ويمتزج داخلها الإبداعي بالاجتماعي والسياسي والتاريخي والفكري. ثم القدرة على إثارة فضول القرَّاء وانتقاداتهم القوية، وذلك بسبب ما تميزت بها الكتابة الروائية لديه من جرأة فكرية وأدبية، ونقد قوي وقاس للمجتمع وعاداته وتقاليده، ولما اعتبره ركوداً وجموداً ثقافياً غير مسوَّغ، فأثار الانتقاد بعد صدور روايته الأولى «الماضي البسيط» بسبب ما اعتبره أثراً إيجابياً للاستعمار المقترن بأفكار أوروبية جديدة، والقادر على أن يسهم في نهضة المغرب وتقدمه.

تدور هذه الرواية حول أزمة الشباب المغربي مع مجتمعه التقليدي، هذه الأزمة التي تتجلى من خلال ثورة الابن على أبيه المتسلِّط الذي لن يخجل من قتل ابنه الأصغر الرافض للانصياع له. فالأب يُخضِع كل الأسرة للخوف والصمت والعبودية. وحول هذه الرواية يقول طاهر ابن جلون إنها «ظهرت حين كان المغاربة يقاومون من أجل الاستقلال، فاستقبلوا بشكل سيئ هذه الرواية التي تجرأت على نقد المجتمع التقليدي، فيما كانوا يريدون طرد فرنسا من المغرب باسم هذه الهوية الوطنية بالذات».

لقد استقبل النقاد الفرنسيون الرواية بترحاب كبير في مقابل اتهام كاتبها بالخيانة لبلده من طرف مواطنيه المغاربة الذين رفضوا نقده اللاذع للمجتمع التقليدي. ويرى الدكتور الأديب أحمد المديني: «أن إدريس الشرايبي لم يذنب إلا في عرف من سطحوا الأدب منذ فجر الاستقلال».

كان على إدريس الشرايبي أن ينتظر سنوات طويلة، أي 13 سنة، لتخصص له المجلة الثقافية (أنفاس) التي كان يديرها الشاعر عبداللطيف اللعبي بين سنتي 1966 و1971م عددها الأول ليرد له الاعتبار لدى نخبة مثقفة كانت تفضل الغرب الغازي على مقاومة المحافظة والاستبداد السياسي الذي بدت ملامحه في ذلك الوقت. وحاول بعد ذلك أن يخفف لغته اللاذعة وكتب روايات قربته أكثر من المغاربة من بينها «إرث مفتوح».

كان إدريس الشرايبي يعلن في كل لقاءاته أنه لا يتخلى عن ثقافته في كل ما يكتب، ولا عن مغربيته حاملاً معه تلك الثقافة وهو على يقين من أنها تفيد ثقافة أناس آخرين، عندما تنقلها إليهم بلغتهم، منطلقاً من أن الإنسانية في ذاتها، ثقافة كبيرة تتكلم أكثر من لغة، وتعبِّر عن الأشياء بأكثر الصيغ اختلافاً، لكن الأشياء التي تعبِّر عنها تلك اللغات والألسنة، واحدة لا تتغير، ولا تحكي غير القيم الإنسانية النبيلة والأبدية.

لا تأخذوا أحداً على محمل الجد

ظلَّت كتابات الشرايبي التي ولجت الفن الروائي العالمي من بابه الواسع محكومة إلى حد كبير بالسخرية الجادة والتهكم من الواقع. ونذكر مثلاً من الكلمات البليغة التي ترمز إلى فلسفة السخرية المعهودة في خطاباتها ما قاله في أحد لقاءاته بمدينة الجديدة (مسقط رأسه) «لا تأخذوا أبداً أحداً على محمل الجد ولا حتى أنا». ورغم تنوع المواضيع والقضايا التي طرحها، بقيت كتاباته مطبوعة على عقود من الزمن بالجرأة الأدبية والفكرية والنقد الصريح اللاذع. وربما هذا ما جعل بعض النقاد يصفونه بالكاتب المزعج.

ويبدو هذا الوصف طبيعياً بالنسبة إلى مبدع متمرد ومفكر ثائر اختار الكتابة الروائية أداة لمناهضة كل أشكال الاستلاب ومظاهر التخلف، معتمداً في ذلك على أسلوب أدبي رائع وقلم سيال يروم أساساً إيقاظ الوعي الاجتماعي لدى القارئ.

وفي إعادة قراءة لمجمل أعماله، تقول جريدة «لوموند» الفرنسية، إن الشرايبي نقل الأدب المغربي إلى عصر الحداثة. مشيرة إلى أن روايته «الماضي البسيط» لا تزال حتى اليوم موضوع عدد كبير من الأطروحات الجامعية.. رغم مرور أكثر من نصف قرن على ظهورها.

أشهر أعماله الأدبية

1 - الماضي البسيط (غاليمار 1954م)
2 - الحمار (غاليمار 1956م)
3 - من كل الآفاق (1958م)
4 - الجمهرة (1961م)
5 - إرث مفتوح (غاليمار 1962م)
6 - صديق سيأتي لرؤيتك (1967م)
7 - الحضارة أمي (غاليمار 1972م)
8 - موت في كندا (1975م)
9 - مولد في الفجر (1986م)
10 - أم الربيع (1995م)
11 - رجل الكتاب (1995م)
12 - المفتش علي والمخابرات الأمريكية (غاليمار 1995م)
13 - أم الربيع (سوي 1995م)
14 - المفتش علي (دونويل 1996م)
15 - قرأ، سمع، شاهد (دونويل 1998م)
16 - تحقيق في البلد (سوي 1999م)
17 - العالم التائه (دونويل 2001م)
18 - العالم جانبا والرجل القادم من الماضي (2004م).


corbis

أشعب كان رائده عند العرب..

الإيماء.. يستحق أضواءً أكثر



«إن اللبيب من الإشارة يفهم»..
«ما لك تتكلّم بالومى؟»..
«وساد في الجمع صمت بليغ»..
عبارات ربما سمعناها أو استعملناها ولم ننتبه إلى كونها تعتمد على أهمية الإشارة والومى (الإيماء) والصمت لإيصال فكرة ما. وإيصال فكرة ما هو إلا ضرب من الفنون، وفن إيصال المعلومة بالإشارة والومى والصمت هو «فن الإيماء». الكاتب المسرحي فائق الحميصي يحدثنا عن هذا الفن وتاريخه وموقعه في العالم العربي.

corbis

الإيماء فن مسرحي يتميز بكونه فن إيصال المعلومات والأفكار والمشاعر إلى جمهور المشاهدين من دون الحاجة إلى لغة اللسان، أي الكلام، وبالاعتماد فقط على التعبير بحركات الجسم.

تاريخ الإيماء في العالم

يعود تاريخ الإيماء إلى بداية تعبير الإنسان عن نفسه وعن مشاعره وعن حوادث عاشها. ويمكننا الاستدلال على ذلك من رسوم الإنسان البدائي في المغاور التي كان يقطنها (مغارة لاسكو في فرنسا على سبيل المثال) ومن الاحتفالات الراقصة لدى شعوب وقبائل حافظت على أشكال احتفالاتها التقليدية حتى اليوم كما الحال لدى بعض القبائل الإفريقية. فتلك الرسوم والرقصات تروي بالشكل والحركة والإيقاع أحداثاً يرغب المجتمع في تخليدها. ولا أدلّ على تبني الحضارات القديمة لفن التعبير بالحركة (الإيماء) إلا كونه جزءاً لا يتجزأ من رقصات الحروب، حيث تؤدى حركات القتال، إيمائياً، في احتفال الاستعداد للمعركة، وتستعاد ملاحم البطولة، إيمائياً، في احتفال


google

الانتهاء من المعركة. كما نجد فن الإيماء في روايات الصيد البطولية، حيث تمثّل إيمائياً حركات الصيَّاد والحيوانات الطريدة، وغير ذلك.

أمّا الإيماء، بصفته فناً مستقلاً أو نوعاً من أنواع العرض المسرحي. فقد عرفته الحضارات القديمة. لكن تطوره اختلف بين حضارة وأخرى. ففي حضارة الشرق الأقصى القديمة عرفت الهند فن الإيماء في الدراما الراقصة الطقوسية «بهاراتا تانيتا». كما اعتمده اليابانيون في فن «الكابوكي» ومسرح «النو» والصينيون في عروض أوبرا بكين، حيث يؤدي الممثل الأحداث بالحركة والرقص والإيماء، ومازالت هذه العروض تحافظ على أسلوبها وشكلها حتى عصرنا هذا.

أما في أوروبا فقد ظهر فن الإيماء في الحضارة اليونانية القديمة ثم الرومانية ضمن الطقوس الوثنية، ثمّ تحول إلى عرض إيمائي تهريجي مستقل تؤخذ موضوعاته من الحياة





اليومية وتؤديها مجموعة من الممثلين المقنعين بأقنعة نمطية ترمز لشخصيات محددة وهم يرتدون ملابس مضحكة. حافظت هذه العروض على نمطها وأسلوبها الساخر واستخدامها الواسع للحركة والبهلوانيات، إلى أن تحولّت إلى عرض إيمائي محدد قوامه الرقص والحركة يؤدي فيه ممثل واحد أدواراً متعددة بمرافقة الجوقة التي تغنّي النص، والفرقة التي تعزف الموسيقى وعرف تحت اسم «بانتوميموس» (القرن الأول قبل الميلاد).

مع زوال الإمبراطورية الرومانية في القرن السادس الميلادي، تحوّل هؤلاء الإيمائيون إلى منشدين في القصور وإلى مؤدي حركات بهلوانية وتهريجية في الشوارع، إلى أن أصبحت عروضهم جزءاً أساساً في العروض الجوالة (السيرك فيما بعد). لكن هذا التحول انحسر مع السنوات ليزول مع بداية عصر النهضة في أوروبا (القرن السادس عشر الميلادي) فعادت العروض الإيمائية تغني المسرح الأوروبي الكوميدي كـ «الكوميديا ديل آرتي» في إيطاليا والكوميديا «الإليزاباتية» في إنجلترا.

في القرن الثامن عشر، أدّت القوانين، التي أصدرها البلاطان الإنجليزي والفرنسي، فمنعت الفرق المسرحية، غير المعتمدة في البلاط الملكي، من عرض مسرحيات ناطقة، إلى إعادة الحياة للعروض الإيمائية الشعبية، التي أصبحت لها شخصياتها المحببة لدى الجمهور مثل شخصية «أرلكان» التي انبثقت عنها شخصية «بيارو» بقناعه الحزين وهو المتيَّم الدائم.

في نهاية القرن التاسع عشر، عادت الروح إلى العروض الإيمائية الصرفة، الضاحكة والجادة معاً، خاصة مع سطوع نجم إيمائي فرنسي هو «غوستاف دي بورو» الذي برع في أداء شخصية «بيارو». ومع بداية القرن العشرين نشأت في فرنسا مدرسة الصمت وكان مُنظِّرها الإيمائي «إتيان ديكرو» الذي تناول الإيماء لغة لها قواعدها، ففتح المجال أمام تصنيف الإيماء وسيلة من وسائل التعبير في



المســرح لا تعتمــد التقليد إنما هي تقبــع على كرسي خاص بها، بيــن الرقص ومسرح الكلام. تأثـر بنظريات «ديكرو» تلميـذاه «جـان لوي بـارو» و«مارسيـل مارسو». لكـن بينما ذهب الأول نحو مسرح إيمائي شامل يستخدم باقي عناصر الإخـراج المشهدية من دون حـرج، نحا الثاني نحو عروض إيمائيــة فرديــة في فضــاء مسرحي خــالٍ إلاّ مــن إيماءات الممثل، وقد نالت عروضه شهرة عالمية ولا تزال، وتأثر بها معظم الإيمائيين في العالم حتى أيامنا هذه. كما استفادت السينما الصامتة من قوة أداء الفنَّانين الإيمائيين وتمثيلهم فاستعانت بهم لتصوير أول أفلامها، أما أبرز الذين شاركوا في أفـلام السينما الصامتة فهو بلا شـك الممثل الإيمائي شارلي شابلن.

العرب والإيماء

عــرف العرب حتــى القــرن الثاني للهجــرة عروضــاً لفرق عرفـت بفرق «السماجة»، لم تكن عروضهــا إيمائية صرفة وإن تخللتهــا حــركات وأشـكال تعبير مسرحــي تعتمد على الرقص والمحاكاة الصامتة. كما عرفوا عروضاً لمهرِّجين ومقلِّديــن كانوا يصبغون وجوههم أو يرتدون أقنعة ليقدِّموا مشاهد ساخرة في بلاطات الخلفاء وفي الساحات كما ورد فــي كتاب «الأغاني» للأصفهاني. ومــن أشهر من ورد ذكره فــي كتاب «الأغاني» واحد ممن عرفناه كأحد ظرفاء العرب وهــو «أشعب» المعروف بنــوادره المبنية على شراهته. لكن يبــدو أن هذه النوادر ليست في الحقيقة إلا فصولاً مما كان يؤديــه هذا الظريف. فقد ورد في كتــاب الأغاني (جزء 19 صفحة –159 الهيئة العامة للكتاب 1972) ما يلي:

«بلغ أشعــب أن الغاضري قد أخذ في مثـل مذهبه ونوادره، وأن جماعــة قد استطابوه، فرقبه حتى علـم أنه في مجلس من مجالس قريش يحادثهم ويضحكهم، فصار إليه ثمّ قال له: لقد بلغني أنك نحوت نحوي وشغلت عني من كان يألفني، فــإن كنت مثلي فافعــل كما أفعل، ثمّ غضــن وجهه وعرّضه وشنّجه حتى صار عرضه أكثر من طوله، وصار في هيئة لم يعرفــه أحد بها، ثمّ أرسل وجهه وقال له: افعل هكذا، وطوّل وجهه حتى كاد ذقنه يجــوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر إلى سيفه.. ثم تحادب فصار في ظهره حدبة كسنام البعير وصــار مقدار شبر أو أكثر.. ثــم قام فتطاول وتمدد وتمطى حتــى صار أطول ما يكون مــن الرجال، فضحك والله القوم حتــى أغمي عليهم وقطع الغاضري فما تكلّم بنادرة، ولا زاد على أن يقول، يا أبا العلاء لا أعاود ما تكره، إنما أنا تلميذك وخرّيجك، ثم انصرف أشعب وتركه».

يحمل هذا النص، بوضوح، وصفاً دقيقاً لفن أتقنه «أشعب» وغيــره من ظرفــاء العرب كان يقــدَّم في الساحــات وأمام جمهــور الشــارع، وسمــة هــذا الفــن الأساسية أنــه يعتمد علــى المبالغــة فــي حركــة الجسم بغيــة إضحــاك جمهور



المشاهدين. بالإضافة إلى نص «الأصفهاني» هذا، وردت في دراسات بعض الباحثين أحاديث كثيرة عن مظاهر مسرحية في نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية عند العرب، قبيل ظهور الإسلام وبعيده، والتي لا يمكن إلا أن تكون قد تأثرت بالحضارتين اليونانية والرومانية نظراً لكثرة المسارح من الطرازين في سورية ولبنان والأردن وفلسطين. وتحدث الجاحظ عن ظرفاء ومضحكين يُدعون الميامس، كان ذكرهم قد ورد عند أحد شعراء القرن السادس الميلادي، القرن الذي ازدهر فيه فن الإيماء في أوروبا، ومنه هذه الأبيات:

وابلغ كل منتخب هواء
رحيب الجوف من عبد مدان
ميامس غزة ورماح غاب
خفاف لا تقوم بها اليدان

وحار اللغويون العرب في تفسير كلمة «ميامس»، الواردة في البيت الثاني، وردّها إلى جذورها. وقد جاء في شرح الديوان أن الميس، أحد الميامس، هو الذي يُسخر منه.. فهل للميس علاقة بكلمة ميموس اليونانية أي الممثل الهزلي المحاكي؟ (د. محمد يوسف نجم، الحياة المسرحية،ع 2 سنة 1977). كذلك ورد في شعر عبدالله بن المعتز في القرن الثالث للهجرة وصف ومدح لرقص وتنكر السمّاجة:

تميل في رقصهم قدودهم
كما تثنّت في الريح سروات
وركب القبح فوق حسنهم
وفي سماجاتهم ملاحات

وبالرغم من دقة هذه الملاحظات، لا يمكننا الركون إليها لنستنتج ما يفوق كونها ظواهر فقط يصعب تحديد مدى انتشارها وتواصلها أو تطورها، ولا مجال في بحثنا هذا إلى أن نخوض فيها وفي أسبابها.

الإيماء في الحركة المسرحية المعاصرة

اتخذ الإيماء مركزاً مهماً بين فنون العرض المسرحي وتفاعل معها، فتأثر بها وتأثرت به منذ بدايات القرن العشرين وحتى أيامنا هذه. ففيما لمع نجم إتيان ديكرو ومدرسته الإيمائية ومنهجه في إعداد الممثل الإيمائي خاصة عبر تلاميذه ومعاصريه أمثال مارسو وجان لوي بارو وجاك لوكوك الذين أسس كل منهم على حدة، محترَفات لتدريس فن الإيماء بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانتشر تلاميذ هذه المحترَفات ليؤسسوا حركة مسرحية إيمائية، في مجمل أوروبا والعالم. وبالتالي، أصبح الإيماء جزءاً أساسياً في مناهج إعداد الممثل لدى كبار مخرجي بداية القرن العشرين أمثال فيسفولد ماير خولد الروسي وغوردن كريغ الإنجليزي وبرتولد بريشت الألماني الذين أدخلوا تمارين التمثيل بالقناع المحايد في تدريباتهم، بغية مساعدة الممثل في التعبير بجسمه بدلاً من الاعتماد على النص الكلامي وتعبيرات الوجه. إلى ذلك عمد بعض المخرجين التجريبيين إلى اقتباس مسرحيات عالمية وحوَّلوها إلى إيمائيات.

أدى هذا التفاعل بين المسرح الكلامي والإيماء إلى تأثره بفن الرقص وتأثيره فيه. فنشأ العرض الإيمائي الإيقاعي الذي تؤدى فيه الحركات على إيقاع موسيقي. كذلك تأثر مدربو الرقص بالإيماء فأدخلوه في تدريبهم وتصميمهم ليتخلّصوا من قواعد الرقص الكلاسيكي أمثال إيزادورا دانكن ومارتا غراهام وم.كوننغهام وج. روبنز، ونشأ بفعل ذلك ما يسمى «الباليه بانتوميم».

لم يقتصر تأثير الإيماء على فنون العرض فقط، بل تعداها إلى فن الكتابة المسرحية. وقد عمد الكثير من المؤلفين إلى كتابة مسرحيات صامتة لتؤدى إيمائياً ومنهم صموئيل بيكيت في مسرحية فصل من دون كلام، وجورج شحادة (لبناني كتب بالفرنسية) في مسرحية اللباس يصنع الأمير، كما كتب الشاعر الفرنسي جاك بريفير إيمائيات عديدة وبنى فِلمه أولاد الجنة على حياة ممثل إيمائي، أدى دوره جان لوي بارو وشارك في الفِلم إتيان ديكرو في شخصية دي بورو نجم الإيماء في القرن التاسع عشر.

الإيماء عند العرب المعاصرين

كما ذكرنا آنفاً، لم يتواصل فن المسرح عند العرب المعاصرين مع الظواهر المسرحية عند العرب الأقدمين، بل نلاحظ في هذا المجال انقطاعاً تاماً، نتمنى أن نعمد إلى دراسة مستفيضة وعميقة في أسبابه. إلا أن كتب تاريخ المسرح العربي الحديث تتحدث عن حركة مسرحية إيمائية نشطة مع بداية السبعينيات من القرن العشرين. ففي سنة 1972 قدِّمت في بيروت مسرحية إيمائية متكاملة

(فدعوس يكتشف بيروت، تمثيل فائق حميصي وإخراج موريس معلوف). تعدُّ هذه المسرحية أول مسرحية إيمائية تقدَّم بمستوى احترافي في الوطن العربي، وقد مثّلت لبنان في مهرجان دمشق الرابع للفنون المسرحية سنة 1972.

بعد نجاح عرض «فدعوس يكتشف بيروت» تابع كلّ من حميصي ومعلوف تقديم عروضهما الإيمائية إلى أن توقف معلوف (سنة 1975) وتابع حميصي، حتى أيامنا هذه، منفرداً ومشتركاً مع مجموعة من تلاميذه، تقديم عروض إيمائية تتوق إلى خلق شخصية خاصة بالعروض الإيمائية العربية تختلف عن عروض الغرب أسلوباً وفكراً، في لبنان وخارجه.

بدأت عروض الإيماء تنتشر في الوطن العربي مع نشوء مجموعة إيمائية في دمشق برعاية المخرج رياض عصمت، ومن أشهر ممثليها الإيمائية السورية ندى حمصي. أما في مصر فلم تتحدث كتب تاريخ المسرح المعاصر عن عروض إيمائية مسرحية تذكر، لكننا شاهدنا عروضاً في برنامج تلفزيوني لإيمائي يدعى أحمد نبيل برهن فيها عن دراية في فن الإيماء.

وبالرغم من اقتصار حركة العروض على ما ذكرنا آنفاً، إلاَّ أن الإيماء وتقنيات أدائه أصبحت مادة يدرسها كل منتسب إلى إحدى مدارس التمثيل في العالم العربي.

الإيماء في المسرح العربي

لجأ مخرجون عرب كثر إلى استخدام تقنية التمثيل الإيمائي لخدمة أهدافهم الإخراجية وإغنائها، ونذكر منهم على سبيل المثال، المخرج يعقوب الشدراوي (لبنان) الذي قدَّم مشهداً إيمائياً صرفاً في مسرحيته نزهة ريفية والمخرج محمد إدريس (تونس) الذي استعان بتقنيات الإيماء في مسرحيته إسماعيل باشا.

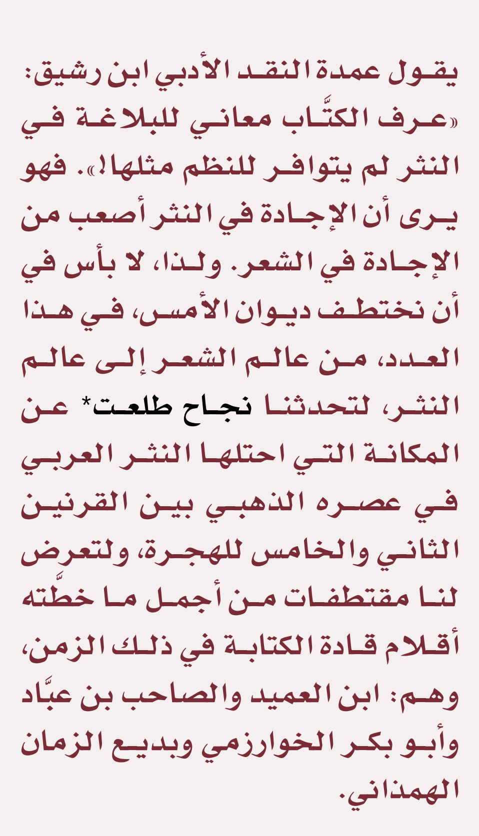
ومن الكتّاب المسرحيين العرب الذين خصّوا الإيماء بنصوصهم الكاتب عصام محفوظ، أول من كتب إيمائية باللغة العربية (سعدون - سنة 1961)، والكاتب بول شاوول والدكتور فاروق سعد الذي أغنى المكتبة العربية بعدة مسرحيات إيمائية لعل أكثرها جرأة وتجدداً مسرحية كارمن إيماء، المستوحاة من قصة بروسبير ميريمي ومن أوبرا كارمن التي لحَّنها جورج بيزيه.

ختاماً، يبدو أن الإيماء بتقنياته وأسلوبه قد أصبح رافداً أساسياً لديمومة الحياة في العروض المسرحية لتفرده في الاستغناء عن لغة اللسان لصالح لغة الجسم. وهذا ما حدا بمنظمة اليونيسكو (المؤسسة الدولية للمسرح) على تسمية يوم الثالث عشر من نوفمبر من كل عام، يوماً عالمياً للإيماء، يحتفل به المسرحيون في أرجاء المعمورة سنوياً.



ديوان الأمس ديوان اليوم

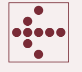




يقـول عمدة النقـد الأدبي ابن رشيق: «عـرف الكتَّـاب معانـي للبلاغـة فـي النثر لم يتوافـر للنظم مثلها!». فهو يـرى أن الإجـادة في النثر أصعب من الإجـادة في الشعر. ولـذا، لا بأس في أن نختطـف ديوان الأمس، فـي هـذا العـدد، مـن عالـم الشعـر إلـى عالـم النثـر، لتحدثنـا نجـاح طلعت* عـن المكانـة التـي احتلهـا النثـر العربـي فـي عصـره الذهبـي بيـن القرنيـن الثانـي والخامس للهجـرة، ولتعرض لنـا مقتطفـات مـن أجمـل مـا خطَّته أقـلام قـادة الكتابـة في ذلـك الزمن، وهـم: ابن العميد والصاحب بن عبَّاد وأبـو بكـر الخوارزمي وبديـع الزمان الهمذاني.

عندما يُستوزَرُ الأدباء

حين يرتقي النثر ليصبح شعراً



إنّ مَـن يراجـع الكتابـة النثريّـة مـن القـرن الثانـي إلـى القـرن الخامس للهجرة، يرى أنّ ابـن رشيق مصيب في قولـه: فلذلك النثر بلاغـة، أية بلاغة، وإحسان دونه كلّ إحسان!

لقد كانت بداية التطوّر في النثر العربي مع عبدالحميد الذي كان كاتباً لخلفاء بني أميّة. جاء بطريقة جديدة فـي الكتابـة شرّعهـا لكل من حمل القلـم بعده. فانتقل الإنشـاء مـن طور إلى طـور، ولم يكد يتغيّـر حتى عهد ابـن العميـد (ت 360هـ)؛ فشاعـت الكلمـة المأثـورة: «بُدئـت الكتابـة بعبدالحميـد وانتهـت بابـن العميد!».

* كاتبة وباحثة في الأدب العربي

لقـد كان ابن العميد حلقـة الوصل بين النثر المطبوع والنثـر المصنـوع، قبـل أن يهجـم السجـع ذاك الهجوم المريـع على الـكلام المُرسَل ويُضعف قـواه بعد القرن الرابع.

نكبِـر لعبـد الحميـد فضْلَ الرّيـادة، ولكنّنـا سنتكلّم عن عصرِ ابن العميد، عصرٍ وصل فيه النثرُ إلى قمّة التأنّق والزخرف والكتابـة الموشيّـة عـن طريـق فرسـان هـذا العصـر الأربعـة: ابـن العميـد والصاحب بن عبّـاد وأبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني. لم يكن هؤلاء الفرسـان كتّـاباً عاديّيـن. شكّلوا طبقة مـن الكتّاب يُشار إليها بالبنان. تميّزوا بشغفهم بالعلم والأدب وتقديرهم لهما. وإن أنت قرأت عن حياتهم وعرفت أنّ ابن العميد

والصاحب كانا وزيرين خيّرين على الأدباء فلا شك في أنك ستقول معي: ما أحسن أن يُستوزَرَ الأدباء! وما أفضلَ أن يتناظرَ الكتّاب! إن لفي ذلك نهضة عظيمة للأدب!

ابن العميد.. أكثرهم نثراً للشعر

كان أبو الفضل ابن العميد وزيراً لركن الدولة البويهي وكان أبو القاسم بن عبّاد (385هـ)وزيراً لمؤيّد الدولة البويهي. اتّصل الأخير بابن العميد شاباً، وأخذ عنه، واشتدّت صحبته له فلقّب من أجل ذلك بـ «الصاحب». وعلى الرغم من اضطلاع الوزيرين بأعباء الوزارة وشؤون الدولة، إلا أنهما كانا من المولعين بجمع الكتب، مُقبلين على قراءتها، يتفنّنان في ضروب الكتابة ويَنظمان الشعر. ليس هذا فقط، بل كانا صاحبَي جُود وإحسان. أغدَقا على الشعراء والأدباء والعلماء، فقصدَهما هؤلاء من بغداد والشام ومصر. وكانت مجالسهما لا تخلو ممّن يُحاضرون أو يتكلّمون ويَتناظرون، أو من رواة ومستفيدين، حتّى قيل إنهما كانا روحَ نهضة العلم والأدب، وبفضلهما ازدهر الأدبُ في عهد بني بويه ازدهاراً قلَّ أن يُصادِفه في عصر آخر.

وقد اخترنا من نثر ابن العميد سطوراً من رسالته لـ «ابن بلكا» عند استعصائه على ركن الدولة البويهي:

«كتابي وأنا مترجّحٌ بين طمَع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنّك تُدلّ بسابق حُرمةٍ، وَتَمُتّ بسالف خِدمة، أيسَرهما يُوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثمّ تشفعُهما بحادث غُلول وخيانة، وتُتبعُهما بآنف خلاف ومعصية... ولا جرمَ أنّي وقفت بين مَيل إليك، ومَيل عليك، أقدّمُ رِجْلاً لصدمك، وأؤخّر أخرى عن قصْدك، وأبسط يداً لاصطلامك (استئصالك) واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، فقد يغرُب العقلُ ثمّ يؤوب، ويعزُب(يغيب) اللبّ ثمّ يثوب، ويذهب الحَزم ثمّ يعود، ويَفسُد العزم ثمّ يَصلح، ويُضاع الرأيُ ثمّ يُستدرَك، ويَسْكرُ المرء ثمّ يصحو، ويَكدر الماء ثمّ يصفو».

الصاحب بن عبَّاد.. أستاذ الحلية اللفظية

وإن كان ابن العميد أرقّ معاصريه طبعاً، وأقلّهم سجعاً، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاً للأمثال والحكم، فإن الصاحب بن عبَّاد سار على نهج ابن العميد وزاد عليه في الحلية اللفظية ولا سيّما في السجَع والجِناس حتّى قيل فيه: «لو رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة المُلك، ويَضطرب بها حبلُ الدولة، لما هانَ عليه أن يتخلّى عنها».

و نختارفقرةً من رسالة كتبها الصاحب إلى القاضي الجرجاني حين نزوله بباب الريّ وافداً عليه:

«أحقٌّ ما قيل أمرُ القادم، أمْ ظنٌّ كأماني الحالم؟ لا والله، بل هو دَرك العَيان، وإنّه ونيل المُنى سَيّان. فمرحبًا أيّها القاضي براحلتك ورحْلك، بل أهلاً بك وبكافّة أهلك، ويا سرعَة ما فاحَ نَسيمُ مَسْراك! ووَجدْنا ريحَ يوسف من رَيّاك! فحُثّ المَطيّ تُزلْ غلّتي بسُقياك، وتزح علّتي بلقياك. وقصّ عليّ يومَ الوصول لنجعَله عيداً مشرّفاً، ونتّخذه موصماً ومعرّفاً، رُدّ الغلام أسرعَ من رجْع الكلام، فقد أمَرته أن يطير على جناح نسْر، وأن يترك الصّبا في عِقالٍ وأسْر:

سقى الله دارات مــرَرْتَ بأرضها
فأدّتّك نحوي يا زيادُ بن عامرِ
أصائلَ قربٍ أرتجي أن أنالها
بلقياك قد زحزحْن حَرَّ الهواجرِ

الخوارزمي والغيرة من الهمذاني

أمّا الفارسان الآخران، أبوبكرالخوارزمي (383هـ) وأبو الفضل الهمذاني (398هـ)، ولقبه بديع الزمان، فهما أديبان وشاعران ولغويّان! جرت بينهما مكاتبات أفضتْ إلى مناظرات ومساجلات، وانقسم الناس بين هذا وذاك، منهم من غلّب الهمذاني ومنهم من أيّد الخوارزمي. ويبدو أن الهمذاني تفوّق على نظيره مدفوعاً بحماسة شبابه، وزلاقة لسانه، وحاجته إلى الظهور، فنالت هذه النكبة من الخوارزمي واعتلّت صحّته، ولم ينقض عليه الحَولُ حتّى مات من حسرته!

اشتهر كلاهما بسرعة الحافظة وقوّة الذاكرة، حتى ليُخبر عن ذلك العجبُ العجاب. قيل إن الخوارزمي قصد الصاحبَ بن عبّاد، فلمَّا وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: «إن أديباً يستأذن في الدخول». فقال الوزير قُل له: «قد ألزمْت نفسي ألاَّ يدخل عليّ إلا أديبٌ يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب». فقال أبو بكر للحاجب ارجعْ إليه وقُل له: «هذا القدْرمن شعر الرجال أم من شعر النساء؟» فلمّا أُخبر بذلك الصاحبُ قال: «هذا أبو بكر الخوارزمي!».

فضلاً عن ذلك، كان الخوارزمي إماماً في اللغة والأنساب، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التركيب. بعض النقّاد يجعلونه، في النثر، من طبقة ابن العميد، وكثير من الناس يفضلونه على الصاحب. نختارمن نثره:

«أكبَرُ من الأسير مَن أسَرَه ثمّ أعْتقه، وأشجعُ من الأسد مَن قيّده ثمّ أطلقه. وأكرمُ من النبْت الزكيّ مَن زرعه، وأكرمُ من الكريم مَن اصطنعه. لا أصيدَ أعظمُ من إنسان، ولا شبكةَ أصيدُ من إنسان، وشتّان بين مَن اقتنص وحشياً بحبالته، وبين مَن اقتنص أنسياً بمقالته!».

أمّا الهمذاني، مبتدع فنّ المقامات، فعَن قوة ذاكرته تحدّثُ صفحاتُ كتب الأدب. فمما يُذكر أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يَسرُد ما فيه دون أن يُضيّع حرفاً واحداً مما قرأه. وأحياناً كان يبدأ مقامته أو رسالته بآخر سطر منها إلى أن يصل إلى أولها. فهنيئاً له ذلك! أفلا يحقّ لمن امتلك ناصية اللغة وشواردها أن يلعب بالألفاظ لعباً؟ ويلعب لعبته بمهارة؟! هذا، إلى جانب الاعتراف بأن نثره يستهوي القلوب ويمتلك الشعور، وهو أقرب إلى الشعر المنثور الذي لم يفسده التكلّف ولم يسده الغموض. وقد تصرّف هذا الكاتب في فنون الترسّل حتى قيل عنه إنه «فارس الطريقة العميديّة وابن بجدتها».

كنت أودّ لو نستطيع أن نمثّل على نثر الهمذاني بقطعة من مقاماته، وأحبّها إلى نفسي «المقامة المضيريّة» التي تجمع إلى ظرفها وطرافتها سباقاً لغوياً يقطع الأنفاس. غير أن المقامات وهي حكايات، اجتزاؤها لا يَفي بالمطلوب هنا. لذلك اخترنا سطوراً من رسائله:

« والله لولا يدٌ تحت الحَجَر، وكبدٌ تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حَبّب إليّ العَيش، لَشفختُ بأنفي عن هذا المقام، ولكن صبراً جميلاً والله المستعان».

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذّره ممّن يثق بهم:

«.... فللثقات، خيانة في بعض الأوقات. هذه العينُ تَريك السرابَ شراباً، وهذه الأذن تسْمعك الخطأ صواباً، فلستَ بمعذور إن وثقتَ بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دُخلته، الرديءُ نحْلته، السيّء وَصْلته، الخبيث جملته. وقد قاسَمْته في أزرك وجعلته موضع سرّك. ما أبعدَ غلطك عن غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيتَ تولياً (هارباً). وأبصر القمر، وأبصرتَ القدر. وغلط في الشمس وغلطتَ في الرمْس!».

هؤلاء هم الروّاد الأربعة الذين جعلوا السجع في عصرهم زيّاً من أزياء البلاغة، فجاء نثرهم أعلق بالنفس وأملك للوجدان من نثر من سبقهم لأنه بحقّ شعرٌ لا يعوزه إلاّ الوزن. كما أنّ من جاء بعدهم لم يستطع أن يلحق بركابهم لأنّ الفرق بين السجع الحسن والسجع المصنوع خيط رفيع قطعه من اقتفى أثر هؤلاء الروّاد من كتَّاب مصر والأندلس في القرن الخامس وما يليه. باختصار، هؤلاء هم الفرسان الذين أتوا بألفاظ مسجوعة حلوة حادة رنَّانة. والذي يستطيع أن يأتي بألفاظ مسجوعة تشبه نقش أثواب من الكرسف، أو ينظّم عقداً من الخزف الملون، بحسب رأي ابن الأثير، هو في «مقام تزلّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب الفنّ بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً».

نجمة الحبر..

لنا قمرٌ في اليمامة عالٍ ..

ولكننا حين نسهرُ يهبطُ من درجٍ في السماءِ

ليسهرْ.

لنا نجمةُ الحبر نكتبها والسماواتُ دفترْ

لنا في الحَمَامِ هديل اثنتين..

ولكن دمعهما قد تحجرْ..

لنا في الغرامِ فؤادٌ يتيمٌ

ولكنه حين يعشق أخضرْ.

لنا امرؤ القيسِ يبحثُ عن بلدٍ ضائعٍ

ثم يخسر.

لنا في الوقيعةِ يومان

زاهٍ وأغبر

لنا في الرصافة نايان

ينأى بنا الحزنُ حتى نؤلف أرواحنا

في كتاب الهجاء المبعثر

لنا في الندامة كأسان..

أُهريق أحلاهما ذات حزن

وثانيهما قد تكسّر..

لنا.. مالنا غير هذا الجحيم الذي قد أحاط بنا من جميع الجهات..

ولكنه عن ندىً سوف يُحسر.

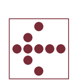
لنا الله.. والله أكبر.

عبدالله الصيخان*

* شاعر سعودي

معطف من فراء الأرانب

إنها قصة قصيرة جديدة، يرصد فيها الأديب السوري المعروف **فاضل السباعي**، بحساسية فائقة، واحداً من مشاعر الارتباك المصاحبة للبحث عن مكانة اجتماعية أعلى، وتحديداً في عالم الطبقة الوسطى التي يمثلها هنا صحافي وزوجته، يجدان نفسيهما في وسط اجتماعي أعلى وأداة تسمح لهما بدخوله، أو الزعم بالانتماء إليه، وهذه الأداة هي «معطف من فراء الأرانب»، مختلف قليلاً عن غيره من المعاطف. وهذا الاختلاف، هو ما يشد بصاحبته ظاهرياً إلى الأمام، أما حقيقة أمره فتشدها إلى الخلف.



كانـت تلك أول مـرّةٍ يتلقى فيها دعوة إلى حضور حفلـة تقيمها مؤسسة اجتماعية بهذا المستوى من العراقة. وهم أرادوه صحافياً يقوم بتغطية حفلتهـم الخمسينية؛ وهو، من جانبه، أراد أن يصطحب زوجته، فتكون هـذه المرة الأولى التي يدخلان فيها معاً عالماً قوامه سيِّدات متقدمات في الثقافة وفي النشاط الاجتماعي.

قالت زوجته أمام المرآة:
ـــ رهيف! ما دامت الجمعية تعمل في تبنّي المواهب الشابّة، فمـا رأيك في أن أنتسب إليهـا، لعلّي أغدو كاتبة يشار إليها بالبنان!
وغمزت بإحدى عينيها.
قال مشجِّعاً:
ـ ولم لا، يا حبيبتي! أعرف أنك تكتبين الخواطر والمذكرات مـذ كنت طالبـة في الثانـوي، ورسائلك إليَّ أيـام الخطبة، شاهد على مقدرتك في التعبير.
ضحكـت رَهَـفْ بصمـت، وهي تفكر فـي أولئـك السيدات المترفات ممن يطلقون عليهن اسم المجتمع المخملي..
ـ يخيَّـل إليَّ أن وجودي الليلة بيـن صاحباتك أولئك، سوف «يعقّدني»!
استغرب:
ـ ولِمَ، يا رَهَفْ؟
ـ إنَّ أيّاً منهن تلبس في خنصرها خاتماً تزيد قيمته على كل ما جنيناه في بيتنا مِن أثاث!
اعتَرَض بشدة:
ـ لا تدعـي الإحساس بالنقص يسيطـر عليك! أنت خريجة جامعة، تسهمين في بناء جيل، فعملك هذا أفضل مما يؤديه بعضهن؛ وزوجك صحافـيٌّ صاعد، يتابع تحصيله العالي..
علـى العكس يا حبيبة، ستكونين بينهن الأوفر شبابا وجمالا وأناقة، خاصة وأنت تقبلين عليهن وأنت في معطفك الأنيق، هذا الذي وصل إلينا من لوس أنجليس! لسوف تبدين بينهن، يا عروستي، أشبه بزهرة فواحة بالعطر والشباب والجمال، وأنت تتنقَّلين بين...
تركت رَهَفْ زوجهـا يصوغ عباراته الجميلة، وأخذت تتذكر ـــ وهي تمر بمِرْوَد الكحل على عينيها الكستنائيتين ـ حكاية هـذا المعطـف: أختها الحبيبـة شَغَـفْ، التـي سبقتها إلى الزواج في أمريكا حيث تتابع دراسة 'البورد' في الصيدلة، استحلـت لها هـذا المعطف، الـذي عرفت عنـه منها على الهاتف أنه مصنوع، بتقنية عالية، من فراء الأرانب، اشترته فـي التصفيـة الأخيرة على عيب فيه: ثقـب، أو شق صغير، في خاصرته اليمنى، يمكن تمويهه بتغطيته بالوبر المحيط بـه! وأما لونه فهو ليموني شفـاف يستهوي النظر. وقد جاء المعطـف وكأنه مفصَّل على قدِّهـا تفصيلاً! حذَّرتها أختها من أن يصيبه بلـل.. ومن أين يأتيه البلل؟ تخرج من البيت إلـى سيارة "التكسي»، ومـن السيارة إلى حيث تقصد! إنها المـرة الأولى التي ترتديه. هديَّـة فاخرة من شقيقة حنون، وصلـت إليهما قبـل أسابيـع بالبريد. حدّثـا الجمارك عن العيب في المعطف فأعفيا من دفع أي رسم كان!

××××

وراء البـاب الـدوَّار، فـي أول «الصالـون»، كانـت تقف في استقبـال المدعويـن، سيـدات ثـلاث، رأتهن رَهَـفْ غاية فـي الأناقـة، وإن بدا لها أنهـن اجتهدن فـي تخفيف وطأة السنين.
انعطفت عليها أولى السيدات الثلاث، تقبلها بمودة:
ـــ ما هذا الجمال كله، يـا أستاذ رَهيف! ما شاء الله: شباب وأناقة! لائقان، كل منكما لائق بالآخر!
قال رهيف:
ـ بعض ما عندكم، يا عفت خانم
ـ نحن أخذنا حظنا من الحياة، واليوم نعمل على خدمتها!
واكتفت السيدتان الأُخريان بالمصافحة الصامتة.
قال رهيف لزوجته، وهما يتوجهان إلى حيث تودع معطفها:
ـ السيـدة عفَّت تتكلم على سجيَّتهـا، ولا تتوانى عن التعبير عن كل ما يدور في خاطرها من أفكار!
نَضَـتْ رَهَـفْ عنهـا معطفها، فـازدادت إشراقـا بفستانها الوردي!
ـ رهيف! أكاد أذوب خجلاً!
ـ بل انهن يذبن إعجاباً بك! هيّا إلى الأمام...
كان معظم الحاضرين من النساء، وكانت قلَّة منهن شابَّات. أخذن يرمقن رهف بنظرات ذات معان لا تخفى عليها، وهي الأنثى: يختلسن إليها النظـر... ثم بعيونهن يتجاوزنها إلى سواها.
جلسـت وزوجهـا إلى إحـدى الطـاولات. ولكنه مـا لبث أن تركها، لينتقل، بمسجلته ومصورته، بينهن.
فجـأة سـاد صمـت. عريفـة الحفلـة تتخـذ مكانهـا وراء «الميكروفون»:
ـ أيها السيدات والسادة.....
كان رهيف قد حدَّثها عن هذه الجمعية، التي بدأت نشاطها ثقافيَّة؛ ثم أخذت تقدمٍّ مطلع كل عام دراسي، الهدايا إلى الطالبـات المجـدّات؛ فلما سـاد العالم الاهتمـام بالبيئة، أضافت إلى نشاطها العناية بالشجرة، رمز النمو والحياة! ها هن أولاً يصفقن لما حققته جمعيتهن في مجالاتها. ولكن بعض الشابات يتعاقبن علـى المنبر، تلقي كل منهن شعراً، قصـة، خاطرة أدبية. إنهن ممن تتعهـد الجمعيَّة مواهبهن قبل أن تقدمهن إلى المجتمع الثقافي كاتبات مبدعات.
كان رهيف يصغي بحواسه كلها، جالساً بجوار زوجته، يدونٍّ هذه العبارات أو تلك. مال على زوجته هامساً:
ـ ما رأيك في أن تكوني، بعد سنة أو سنتين، واحدة من هذه الشابَّات؟
ـ ليت هذا يتحقق، يا رهيف!

«ولكن، كيف حل بزوجته هاجس أن المعطف من فراء الأرانب أو السناجب تتلفه قطرات من الماء؟»

ـ ألا تتعرَّفين إلى بعض وجوه المجتمع؟
ونهض الجميع إلى المائدة المفتوحة.
ـ أليست زوجتك صحافية أيضاً، يا أستاذ رهيف؟
ـ إنها خرّيجة كليَّة العلوم، تُدَرِّس الفيزياء والكيمياء. وفي البيت تعمل كيميائية أيضاً لدى وقوفها أمام موقد الغاز!
ـ لو انها تمارس الصحافة لفُتِحت أمامها أبواب الأخبار على مصاريعها!
ـ بل أتمنّى لو أنها تمارس الأدب!
ـ ألا تنتسبين إلى جمعيَّتنا يا سيدة رَهَف، فتشاركينا العمل في مجالاتنا المختلفة؟
ـ هذا ما يسعدني.
واشترط رهيف:
ـ إذا تعهدتن أن تجعلن منها شاعرةً، أو قاصَّةً، أو على الأقل كاتبة خواطر!
قالت رئيسة الجمعيَّة:
ـ لا شك في أن اختيارك زوجتك، كان في جملة بواعثه أن لها ميولاً أدبية. أنا، باسم الجمعية، أتعهد أن نجعل منها كاتبة. هيَّا أطلقها إلى عالم الأدب، نكسب أديبة صاعدة أخرى!
وغمر الفرح قلوب الجميع.
وعندما اتجهت رَهَفُ وزوجها صوب الطاولة، أخذ يحدثها عما تتمتع به السيدة عفَّت من الظرف واللطف والبديهة الحاضرة... وإن ما تردده أمام أصدقائها من مقولاتها اللاذعة، أنها ما زالت تبحث عن السبب في أن الجمعيّات الثقافيّة، غالباً ما تكون مقارُّها تحت الأرض، على حين أن أندية القمار فوقها!!... مشيرة بذلك إلى أن جمعيَّتها ما فتئت، منذ خمسين عاماً، تنتقل من قبوٍ إلى قبوٍ آخر، دون أن تتمكن من تملك مقر على سطح الأرض!
قال رهيف للعضو المسؤول عن الإعلام:
سيِّدتي إن ما سمعته الساعة، وما عرفته، عن نشاط جمعيَّتكم، يُلهمني كتابة مقالتين لا واحدة: الأولى عن احتضانكم المواهب الأدبيَّة، وليس بينها زوجتي على كل حال، والأخرى عن نشاطكم في حماية الشجرة!
×××
قالت رَهَفُ لزوجها، وهي تعود إلى معطفها:
أيها النِّحرير اللبق! لقد أغرقتهن بوعود عمَّا سيكتبه قلمك السيَّال!
ـ بل هنَّ اللواتي أغرقنني بما أظهرن من تقدير لي، وأغرقنك أنت، وخاصة السيدة عفَّت، بالعواطف النبيلة!
ورد الغرق والإغراق عَرَضاً، كلمتين على لساني الزوجين الشابَّين، وهما يودِّعان ويودَّعان... ولكن شيئاً هناك أيقظ في رَهَفَ مخاوف من نوعٍ ما: في علمها أن الدنيا ربيع، فما بال هذه الرطوبة تهب عليها عبر الباب الدوَّار؟!
غادرت زوجها، لتقترب من النافذة، فلمحت من وراء الزجاج، قطرات مطر تتساقط... فلما ازدادت اقتراباً، رأت أرض الشارع مبلولة، فانتابها خوف شديد: ربَّاه الشتاء يتجدد في نيسان!
ارتدَّت إلى زوجها:
ـ رهيف! (لاحظ في عينيها الفزع) إنه المطر!
ـ المطر؟!
ورفعت عند ذلك ذراعيها إلى صدرها، فكأنها تعانق معطفها، الذي من فراء الأرانب، خائفة عليه من شر قادم!
ـ الفرو يؤذيه البلل!
ـ نأخذ سيَّارة تكسي يا حبيبتي.
ـ وهل تظن أن أمام النادي سيارة تنتظرنا؟!
ـ قد يُتاح لنا أن تصحبنا إحدى الأسر في سيارتها.
نظر، فرأى زوجين وقورين يخطران أمامه باتجاه الباب.
دنا منهما، وبلطف بالغ سألهما:
ـ عندكم سيارة؟
أجابت السيدة وهي تمنحه ابتسامة جميلة:
ـ نعم، شكراً!
أُسقط في يده: أتراهم يحسبون أنه يسألهم، إن لم يكن عندهم سيارة خاصة، أن يقلَّهم بسيارته إلى بيوتهم تطوعاً وتكرماً؟ أو انهم يظنونه سائق «تاكسي» يبحث عن 'توصيلة' دسمة في هذه الليلة الماطرة؟!
وزوجته تقول بعصبيَّة:
ـ رهيف المطر ينهمر!

«ياله من مجتمع مخملي»، ظنوا أن من هم في مثل شكلنا لابد أنهم يملكون سيارة.. يضرب الفقر وساعته»

ولكـن كيف حل بزوجته هاجس أن المعطف من فراء الأرانب، أو السناجب، تتلفه قطرات من الماء؟

ــ قطرات مـاء؟! إنه سيل (وأخذت تنـدب) يا لحظي التعس: كل هـؤلاء الأغنيـاء، لم يتعطَّـف واحد منهم علينا، فيحملنا بسيَّارته الفخمة!

ــ اهدئي قليلاً، يا رَهَفْ، حتى أستطيع التفكير في حل ينقذ معطفك من الغرق!

ـ سمعت أختي شَغَفْ توصيني: إحذري أن يصيبه بلل!

ــ يا ستِّي، لـم يصبه البلل بعد. يا له من فرو: إن كتاباً مما تقذفه مطابع اليوم، مُسَلفَناً، لو ألقيناه تحت وابل من مطر لما أصابه تلف كبير!

ـ أنا في محنة وأنت تأتيني بتشبيهاتك البليغة!

ـ هـل أذهب لآتـي بتاكسي تحـت المطـر... أم أسأل الاستقبال هنا، أن يطلبوه لنا؟

وتلبَّـث لحظة، قبـل أن يتوجَّه إلى... لكـن سرعان ما لحقه منها نداء:

ـ رهيف! رهيف! قد توقف المطر.

ـ الحمد لله.

ـ أظن أن علينا أن نسرع بمغادرة المكان.

ـ تأكدي. على مسؤوليتك!

ولـدى خروجهمـا، رأى السيارات الفارهــة تلفظ روّاد النــادي القادمين إليه ليلاً، منهم مــن يطلب العشاء، ومنهــم مــن جـاء يمارس تلـك اللعبــة فـوق ‘سطح الأرض’!

وعلى رصيف النادي جعل رهيف يقول:

ـ أريـد أن أعرف: هذا الفرو الـذي على جسمك، أهو مــن ورق جرائد؟ يعنــي إذا أصابه بلـل، هل يحل لونه على فستانك الوردي؟ إنــه حتى إن كان فرواً ‘صنعياً’ فإن جلده يكون قابلاً للمقاومة وتمتاز ألوانه بـ...

قاطعته، مهرولةً بكعبها العالي:

ـ أسرع، أسرع قد عاد المطر!

ولمّـا كانـت المباني، في هــذا الشــارع الواسع، بعيدة شرفاتهـا عـن الرصيف مما لا يوفـر الاحتماء بظلها، فقـد وجـدا نفسيهما يهـرولان إلـى مدخـل مبنى...

وهناك أخذت رَهَفْ تنفض عن معطفها ما لحق به من البلل، وتندب في حزن عميق:

ــ قالوا: «راحت الحزينة تفرح ما لقيت لها مطرح»! يا لـه من «مجتمع مخملي»، لـم ترض امرأة فيه أن تقلنا بسيَّارتهـا! ظنوا أن من هم في مثل «شكلنا» لا بد أنهم يملكون سيارة... يِضرب الفقر وساعته!

×××

ترك رهيف زوجته تنفـض المعطف وجهاً، ثم تنفضه قفاً، ثم تمـر عليه بخرقة ناشفة، قبـل أن تعيد نفضه وتنشيفه... فيما أكب هو على أوراقه يكتب في صمت. دبَّـج مقالتـه الأولـى عـن المواهـب الشابَّـة لمجلَّـة «المجالـس الثقافيَّـة». ولجريدة «الغصــن الأخضر»، كتب مشيـداً بمنجزات الجمعيَّة في حماية الشجرة... وهــو، يقينا لم يـأت، في أي مــن المقالتين، على ذكر المطـرة التي داهمت زوجته لابسة المعطف المصنوع من فراء الأرانب!

وسويعــة الفجـر، عندما فرغ مــن شأنــه ودخل غرفة النوم، رأى زوجته، التــي قضت ليلتها مسهَّدةً، تنهض مــن السرير، لتجري اتصالاً هاتفياً مع أختها في لوس أنجليس:

آلـو! شغف! كيف حالك؟ اشتقت لـك. أنا ارتديت ليلة أمس، أول مرة، المعطف الذي....

واستطـاع أن يفهـم، من خلال ما ترامـى إلى سمعه من كلمات متفرِّقة، أن المعطف كان من فرو الأرانب الأصلـي، وهو لا تؤثر فيه قطـرات المطر.. وإنه من إنتـاج إحـدى الشـركات العالميَّـة المتخصصة في صنـع معاطـف الفـراء والجلـود، ابتـداءً مـن فراء الأرانـب والثعالب، مروراً بجلود الأفاعي والتماسيح، وانتهاءً بالفهود والنمور والأسود! وأمّا زهد ثمنه يوم الشـراء، فلذلـك «العيـب» فيه، الذي يمكـن تمويهه عند ارتدائه، والتباهي به في الأمسيات الاجتماعيَّة، والأدبيّة والعلميّة!

مقتطفات

«حواديت المشاوير»
مقامات معاصرة في شوارع القاهرة



يبدأ الكاتب المصري خالد الخميسي كتابه « تاكسي.. حواديت المشاوير» بكلام لابد منه، كما عنّون المقدمة.. وفي الكلام الذي لابد منه، يذكر لنا مؤهلاته التي دفعته لتقديم كتاب من أكثر كتب هذه السنة مبيعاً في السوق المصرية. المؤهلات؟ كونه زبون « سقّع» لسيارات التاكسي، وحبه للحديث مع سائقيها، أو كما يصفهم بـ « ترمومترات الشارع المصري الصايع».

الخميسي، خرّيج العلوم السياسية من جامعة السوربون، قدّم لنا كتاباً ساحراً بحق في بساطته ، وعمقه، وضحكه، ووجعه. والكتاب عبارة عن مقامات قصيرة لحوارات حقيقية أجراها الخميسي مع سائقي التاكسي في شوارع القاهرة في الفترة بين 2005 و 2006. ويلعب الخميسي دوراً مشابهاً لدور الراوي عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان الهمذاني، غير أنه راوٍ معاصر، لا يهتم كثيراً بتنميق عبارته لجذب سامعيه أو قرائه، بل على العكس.. تأتي لغة حكاياته عامية أقرب إلى الفجاجة، ولكنها حية وصادقة، تختلف تماماً عن تلك التي تعود عليها الراوي في الندوات والصالونات، وتختلف عن تلك التي تعود القارئ عليها في الكتب التي قد تقترب من طبيعة هذا الكتاب.

وربما كان نجاح الكتاب منذ البداية مرهوناً بفكرته التي قد تكون راودت خيال الكثيرين ممن جذبتهم « حكمة» سائقي سيارات التاكسي المصرية، إلى أن أتى الخميسي ليخرج الفكرة إلى النور، ولتتضافر عناصر كثيرة بعد ذلك لتساهم في نجاح وانتشار الكتاب بين القرّاء، منها قدرة الكاتب على تقديم صور متنوعة من حكايات المشاوير يضمها اطار واسع هو اطار الحياة الاجتماعية المصرية. ومنها أيضاً خلطه وترتيبه للحكايات فمنها المضحك، ومنها الموجع، ومنها المتشائم، ومنها المغرق في التفاؤل.. ومن الواضح أن الكاتب اختار بعناية ترتيب حكاياته التي أتت مرقمة دون عناوين. فبدأ بحكاية السائق العجوز المؤمن بأن رزقه لن يتوه عنه، وانتهى بحكايته مع السائق الفنان الذي يصرف كل ما يأتيه من رزق التاكسي على هواياته. وبين هذا وذاك، نجد الغاضب على أمناء شرطة العاصمة، والصعيدي الغارق في حب فتاة من زبائنه، والمهرب الذي يشغل وقته بقيادة التاكسي حتى يجد عملاً آخر.. وغيرها كثير ضمن 58 حدوتة من حواديت المشاوير.

والحقيقة أن القرّاء في الخليج قد يقرأون الكتاب من زاوية تختلف بعض الشيء عن بقية قرائه، فلطالما اعتبرنا أن سائق التاكسي أو الليموزين هو الآخر المُستقدم من شعوب و ثقافات مختلفة.. بل ولغة أخرى أولهجة عربية جديدة و مكسورة نتقنها نحن لنتفاهم معه.. وهو لهذا ليست له علاقة مباشرة بنا، وهمومنا الحياتية تختلف عن همومه وما يحركنا بعيد بعض الشيء عما يحركه.. ولذلك يفتح الكتاب أعيننا على ما يمكن أن يكون إن كان حال سائقي الأجرة في بلدان الخليج مختلفاً، أو ما يمكن أن تخبئ لنا سيارات الأجرة، بطبيعتها الخاصة عندنا، من حكمة ورصد للمجتمع.

الكتــاب الذي قدمتــه دار الشروق المصريــة في يناير من هذا العام نفدت طبعتاه الأولى والثانية في شهرين، لتصــدر الطبعــة الثالثــة منــه، ويتجــدد الحديــث عنه بين القــرّاء حتى اليوم. والدعايــة الوحيدة التي اعتمد عليهــا الكتاب كانت فــي نزوله ضمن اصــدارات الدار في معرض كتاب القاهــرة، واعجاب الناس به وتوصية قرائــه بقرائته لمن لم يفعل بعد على صفحات الجرائد والانترنــت. وإن كانــت صفحة الإهداء فــي أول الكتاب تكرّسه للحياة التي تسكــن كلمات البسطاء من الناس، فبقية صفحاته أتت لتهدي القارئ لقطات غنية من هذه الحياة.

......

... أنا: حضرتك أكيد بتسوق من فترة طويلة.

السائق: أنا باسوق تاكسي من سنة 48.

لــم أتصور أنه يمارس قيادة سيارات الأجرة منذ قرابة ستيــن عامــاً.. لم أجــرؤ علــى سؤاله عن سنــه، ولكني وجدت نفسي أسأله عن النتيجة.

أنــا: وإيه يا تــرى خلاصــة خبرتك اللي ممكــن تقولها لواحد زيي، علشان أتعلم منها.

السائق: نملة ســوداء على صخرة سوداء في ليلة حالكة الظلمة يرزقها الله.

أنا: قصدك ايه؟

السائــق: أحكيلــك حكاية حصلت لــي الشهر ده علشان تفهم قصدي.

أنا: أرجوك.

السائــق: عييت لمدة 10 أيام عيًا شديد، ما كنتش قادر أتحرك من السرير، وأنا طبعاً على باب الله يعني اليوم بيومــه معايا.. بعد أسبوع ماكنش فــي البيت ولا مليم.. أنا عارف ومراتي مخبيّــة عليّ.. أقول لها حنعمل ايه يا ستــي؟ .. تقوللــي الخير كتير يا أبو حسيــن وهي عمّالة تشحــت أكل من كل الجيــران.. وأنا طبعــاً ولادي فيهم اللــي مكفّيهم، اللي جوّز نص عيالــه ومش عارف يجوِّز النصــ التاني.. واللي عنده حفيــد عيّان بيجري بيه في المستشفيــات.. القصد ما ينفعش نطلب منهم حاجة.. ده الواجــب إن أنــا اللــي أساعدهــم.. بعد عشــرة أيام قلــت للحاجــة لازم أنزل الشغــل.. حلفت علــيّ وقعدت تصــرخ وتقول إنــي لو نزلت ح أموت منهــا.. وبصراحة أنــا ماكنتش قادر أنــزل.. بس قلــت لازم، كدبت عليها كدبة بيضــة وقلت لها ح أقعد في القهــوة ساعة.. أغيّر هوا علشان حتخنق.. ونزلت دورت العربية وقلت يا ربنا يــا رزاق.. فضلــت ماشي لغايــة ما وصلت عنــد جنينة الأورمان ولقيت لــك عربية بيجو 504 عطلانة والسواق بتاعهــا بيشاور لــيّ.. وقفت.. قرّب منّــي وقال لي معايا واحد عربي طالع المطار تاخده علشان عربيتي عطلت؟ واخد بالك هنا من حكمة ربنا؟ معاه عربية 405 حالتها بريمو، وعطلت!!.. قلت له أوصّله.

ركــب معايا الزبون.. طلع مــن عُمان، من عند السلطان قابوس سألني تاخد كام قلــت له اللي تجيبه.. أكد عليَّ اللي حادفعه حتاخده.. قلت له ماشي.

وأنــا في الطريق عرفت إنه رايــح قرية البضائع علشان عنــده حاجة حيخلصهــا.. فعرّفته إن حفيــدي بيشتغل هنــاك وإنه ممكن يساعده في تخليصها من الجمرك.. قــال لــي ماشي.. وبالفعــل رحت ولقيــت حفيدي هناك وفــي ورديتــه.. خد بالــك هنــا إن أنا طبعــاً كان ممكن مــا ألاقيهوشــ.. خلصنا الحاجات اللي عــاوز يخلصها ورجعته الدقي.

سألني تاني حتاخد كام يا حاج؟

قلت إحنا اتفقنا اللي تجيبه، فراح مديني خمسين جنيه خدّتهــم وشكرته ودوّرت العربية.. سألني راضي، ردّيت وقلت له راضي.

قال لــي بُص يا حــاج.. الجمــرك كان المفروض يبقى ب 1400 جنيــه دفعت أنا 600 جنيــه. يعني الفرق 800 دول طالعيــن من ذمتي، يعني حلالك و 200 جنيه أجرة التاكسي.. آدي ألــف جنيه والخمسين اللي معاك هدية منّي!

شفت يا أستاذ.. يعني مشوار واحد جاب لي ألف جنيه، ممكــن أشتغل شهــر وماجيبهومش.. شــوف ربنا نزلني من بيتي وعطّل العربية الـ 504 وأوجد لــيّ كل المسببات علشــان يرزقني الرزق ده.. أصــل الرزق ده مش بتاعك والفلوســ دي مش بتاعتك، كله بتــاع ربنا.. دي الحاجة الوحيدة اللي اتعلمتها في حياتي.

نزلــت من التاكسي آسفاً فقد كنت أتمنى لو جلست معه ساعــات وساعــات أخرى، ولكــن للأســف كان لدي أنا أيضاً موعد في سلسلة الجري المستمر وراء الرزق.

قول آخر

أبطالها أدباء ..القلم سلاحها الوحيد.. وضحاياها يتساقطون بلا دماء.. إنها المعارك الأدبية .. إحدى أبرز مظاهر الزمن الجميل للثقافة العربية.. فبينما كانت كوكب الشرق والعندليب الأسمر يصدحان بأغانيهما العذبة الممزوجة بهتافات الجمهور الصاخبة، كانت الصحف المصرية تشهد صخباً موازياً لمعارك حقيقية.. تغلب عليها سمة فرسان القرون الوسطى عندما جعلوا للمبارزة شرفاً وللموت قانوناً. كانت تلك المعارك تقليدية يتقابل فيها الفارسان وجهاً لوجه قبل أن يصوِّب كل واحد منهما سلاحه في وجه الآخر.. القلم كان السلاح الأمضى وصفحات الصحف والمجلات كانت ساحة المعركة التي تستمر لجولات طويلة وتستعر نيرانها بعد كل جولة قبل أن تعقد الأحلاف وتفتح الجبهات على هذا أو ذاك من المتعاركين..

قد يقول قائل إننا بعودتنا إلى ذلك الماضي القريب الذي كان حافلاً بمثل تلك المعارك بين أعلام الأدب والفكر، نجد أن بعضها كان يخرج عن أدبيات الحوار في أحيان، ولكنها كانت في ذات الوقت تضفي طابعاً من الحراك والحيوية على المشهد الثقافي العربي ويشعر معها القارئ العادي بمتعة عارمة شبيهة بمتعة أفلام الحروب والفروسية في القرون الوسطى. وإلى جانب ذلك الحراك الذي أحدث تفاعلاً شعبياً مع الحياة الثقافية وجعلها تنزل من بروجها العاجية ونخبويتها المطاطية، كانت تلك المعارك تنشئ تفاعلاً في الآراء يزيل عنها طابع الجمود.

المعارك الأدبية.. لماذا صمتت؟!

صالح البيضاني*

لقد علقت تلك المعارك في صفحات تاريخ الثقافة العربية مخلِّفة نظريات وكتباً، فيما زال الطابع الشخصي الذي أسهم في إشعالها، وما زلنا نقرأ عن معارك خالدة في تاريخ الثقافة العربية لم نكن وقت وقوعها شاهدين عليها، كمعركة تلقيب أحمد شوقي أميراً للشعراء التي دارت رحاها بين طه حسين والعقاد. ومازلنا نقرأ كتاب «على السفود» للرافعي الذي فتح نيران قلمه على العقاد شخصاً وفكراً. ما زلنا كذلك نتذكر معركة «جيم جدة» بين عبدالقدوس الأنصاري وحمد الجاسر، وما حصل بين أحمد بن محمد الشامي ومحمد بن علي الأكوع في كتاب «جناية الأكوع على التراث اليمني»، إلى غير ذلك من المعارك الأدبية المختلفة التي اندلعت نيرانها على الورق، ولكنها لم تلتهم شيئاً من الأخلاق ولم تنتقص سطراً من الأفكار. بل أساهمت في الإجابة عن الكثير من الأسئلة ووضعت الكثير من النقاط على الحروف. كمعارك أنيس منصور في الخمسينيات دارت حول الفلسطة والوجودية ومعركة وجود حضارات أو كائنات عاقلة في أماكن أخرى من العالم، هل هي موجودة أم غير موجودة، وهي من أغرب المعارك على الإطلاق.

ومن أشهر المعارك ما خاضه الدكتور زكي مبارك ضد أحمد أمين. حين كتب أحمد أمين سلسلة مقالات عنوانها «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي». ورد عليه الدكتور زكي مبارك بسلسلة صواريخ حملت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» وقد دارت رحى هذه المعركة في مجلتي الرسالة والثقافة.

وقد كان للمعارك الشعرية نصيبها من قائمة المعارك الأدبية التي أخذ النقد منها نصيب الأسد، ومن أهم تلك المعارك معركة هيمنة محمود سامي البارودي على كل من جاءوا من بعده وخلفوه في نظم القصيدة العربية المعاصرة، ومعركة ريادة الشعر العربي الحديث في العراق بين بدر شاكر السياب ونازك الملائكة التي تدخل فيها كذلك البياتي وبلند الحيدري مطالبين بحق الريادة. وفي العراق أيضاً وعند الحديث عن المعارك الشعرية يبرز الشاعران الرصافي والزهاوي ومعاركهما الشعرية الشهيرة على صدر الصحف البغدادية. وفي هذا السياق نتذكر معركة قصيدة النثر في مصر والتي أعادها إلى الواجهة من جديد الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي من على صدر صحيفة الأهرام وهي المعركة التي انخرط فيها الكثير من الأدباء المصريين واتسعت رقعتها لتشمل الحداثة كلها.

لماذا صمتت مدافعها ؟

يظل السؤال الأكثر إلحاحاً لماذا صمتت المعارك الأدبية في يومنا هذا صمت القبور على الرغم من اتساع منابر النشر التقليدية والحديثة؟ الأديب العربي الكبير الراحل نجيب محفوظ يقدِّم تفسيراً لذلك بالقول: «أعتقد أن السبب الأول هو الفجوة الكبيرة بين الأدباء والمفكرين وبين القارئ لأنه قاعدة المثلث. وإذا اختفت القاعدة لم يكن هناك مثلث. والقارئ لم يعد يتفاعل مع ما يكتب، لذلك نجد الكثير من الكتَّاب يصابون بالإحباط لأنهم كانوا يتوقعون -مثلاً- لفكرة ما أو لكتاب أن يحدث صدى أكثر فلا يحدث».

* قاص من اليمن



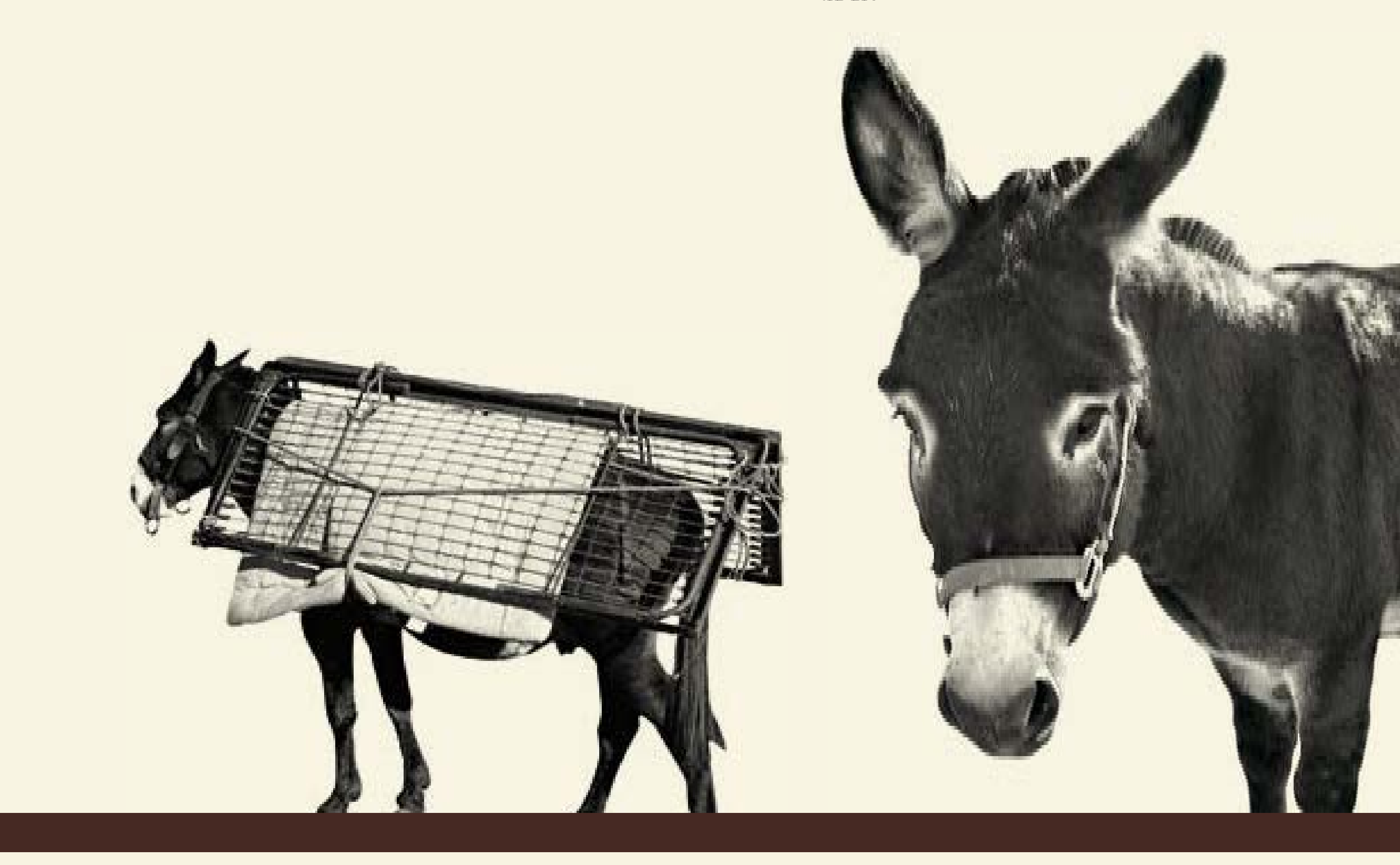
الحمار

حتى لو أسقطنا من حسابنا القسوة التي يعامل بها الإنسان هذا الحيوان الأليف على وجه التحديد، والتي يمكنها بمفردها أن تملأ ملفاً كاملاً، علماً بأنه ما من داع لإسقاط الحديث عن هذه القسوة، إلا خشية الإقرار بما يمكنها أن تكشفَ عنه..

وحتى لو أسقطنا أيضاً الإنكار الذي يعامل به هذا الحيوان خاصة في المجتمعات التي لم تعد زراعية فلم تعد بحاجة إليه ولم تصبح صناعية في جوهرها لتعرف ترف التعامل مع الحيوان برفق واهتمام، كما هو حال المجتمع في مدننا العربية، حيث لم يبقَ من الحمار غير الاسم. والاسم كما هو معروف منذ قرون، مرادف للشتيمة!

يكفينا أن ننتبه إلى أن حضور الحمار في الحياة اليومية للإنسان استمر أكثر من خمسة آلاف سنة متواصلة..

أي مدة كافية لكي يسهم هذا الحضور في إضافات كثيرة إلى المخزون الثقافي للإنسانية، وهذه الإضافات انتقل إليها سوء طالع مصدرها، فبقيت في قسم كبير منها إلى جانبه في الظل. وهذا ما يحاول عبود عطية أن يسلِّط عليه الضوء في هذا الملف.



الحمار

يُعدُّ الحمار نوعاً مستقلاً تماماً عن الحصان لا فصيلة منحطة من الفيل كما كان يُعتقد

عندما اجتاز نابليون بونابرت جبال الألب في حملته على إيطاليا تلقَّى الرسَّام الفرنسي جاك لوي دافيد طلباً من شارل الرابع ملك إسبانيا كي يرسم هذا العبور في لوحة. ورسم دافيد بالفعل لوحة رائعة، نرى فيها نابليون، الذي كان يحمل لقب القنصل الأول، على صهوة جواد أبيض ينتصب على قائمتيه الخلفيتين فوق الصخور الجبلية.. عُدَّت تلك اللوحة عن جدارة آنذاك تحفة الدعاية السياسية، حتى أن محتَرَف دافيد رسم أربع نسخ منها لأربعة زبائن مختلفين. ولكن بعد سقوط إمبراطورية نابليون عام 1815م، لم تعد هناك حاجة إلى الدعاية السياسية، واتسع المجال للحقيقة التاريخية، فرسم الفنان بول دي لاروش سنة 1848م الصورة الواقعية التي نرى فيها بونابرت في معطف شتاء على صهوة.. بغل. والبغل كما هو معروف وليد تناسل حمار وفرس.

قبـل عصـر نابليون بنحو نصف قرن، أي في منتصف القرن الثامن عشر كتب العالـم الطبيعي الكونت دي بوفون بحثاً حـول «الحمار» في الدورية العلميـة الشهيرة «التاريـخ الطبيعـي العام والخاص». وكان هذا البحث الأول فـي التاريـخ الـذي يقـول إن الحمار يعـدُّ نوعاً مستقـلاً تماماً عن الحصـان وليس فصيلة منحطة من الخيل كما كان يعتقد من قبل. وهذا مـا أكده العلم لاحقـاً بسهولة. ومما كتبـه دي بوفون فـي المقالة أنه «لو تـم إيلاء الحمار الاهتمام نفسه الذي يلقـاه الحصان، ولو أتعبنا أنفسنا بتربيته كمـا نربي الخيول، فما من شك في أن الحمار سيكون قادراً على أداء أمـور ليست مجهولة إلا لأنه بين أيـادي أناس قساة من ذوي الطباع الخشنة».

ولكـن هذا الإنصاف العلمـي، الذي دعمت صحته تجـارب حديثة عديدة، يبقـى أصغر بكثير من أن يزعزع صورة الحمار في الوجدان الشعبي والعام الـذي صيغ خلال ألـوف السنين، والـذي عندما يتجاوز إنـكار الحمار في لحظـات الحاجـة إلى خدماتـه، فإنه يتطلع إليـه بدونية واحتقـار يلامس العداء لما فيه من قسوة.

الإنـكار نفســه المتمثل في تزييف التاريـخ أو الواقع على أيـدي الرسَّام دافيد، هو نفسه الـذي نلاحظه في المكتبات المنتشرة في أسواقنا. ففي كل واحـدة منهـا عشـرات الكتب التي تتحدث عن الخيـول، ولكن على المـرء أن يفتش في عشر مكتبـات ليجد كتيباً عن الحمـار.. ولو فتحنا «الموسوعة العربية العالمية»، على سبيل المثال المحدد الذي يمكن للكل أن يتلمسـه، لوجدنا أن بند «الحمار» يشغل نحو نصف صفحة فقط، في حيـن أن بند «الحوت»، على سبيل المثال أيضاً، يشغل 15 صفحة.. علماً بأن ليس للحوت أي دور يذكر في حياة الإنسان مقارنة بالدور الذي لعبه الحمار ولا يزال.

علـى كل حال، يبقى الإنـكار -بمعنى تجاهل هذا الحيـوان- أقل سوءاً مما واجهـه الحمار في تعامل الإنسان معـه. فخلال أكثر من خمسة آلاف سنة، كان الحمـار خـادم الخدم، وعاملاً عنـد المُزارع العامل بـدوره عند سيد أعلـى منه شأناً. ولذا، كان من الطبيعي أن يتركَّز عليه كل الاضطهاد الذي يلقاه سيده المباشر من قبل سيده الأعلى.

فمن المدهش -كما يظهر من بعض النصوص اللاحقة في هذا الملف- أن تكـون المعاملة الفظة والغليظة حتى حدود الشراسة التي عومل بها الحمار أيام لوكيوس أبوليوس في الإمبراطورية الرومانية، هي نفسها التي شاهدها توفيـق الحكيم في مصر خلال القرن العشرين، ويلحظها أي شخص اليوم في أية بيئة زراعية.

ولأن الإنسـان منـذ نشوء الحضـارات يرى في القـوة المضافـة إلى جملة صفات خبيثة وسيلة لتغيير مسار الأوضاع غير المرضية، فقد رأى في قدرة الحمـار على التحمل واستكانته «غباء». حتـى تحول اسمه على مرّ العصور فـي معظم لغات العالم إلى شتيمة، تطلق في وجه كل من يفتقر إلى الذكاء أو حُسن التصرف. والمفارقة أن هذا الانطباع عن «قيمة» الحمار تكوَّن أولاً عند الخدم والمزارعين عن خادمهم، وانتقل منهم إلى سادتهم وصولاً إلى أعلى مستويـات الأدباء والمثقفين الذين اقتنعوا بهـذا الرأي وتبنوه. وكان هـذا الانطبـاع يلقى دومـاً ما يعززه، ونـادراً ما لقي ما يفنـده خلال تاريخ الحمار الطويل.

لو أتعبنا أنفسنا بتربية الحمار كما نربي الخيول، فما من شك في أنه سيكون قادراً على أداء أمور ليست مجهولة، إلا لأنه بين أيادي أناس قساة من ذوي الطباع الخشنه...



لوحة دافيد المزيّفة للحقيقة

لوحة دي لاروش الأمينة للحقيقة

بعض المحطات الكبرى في تاريخ الحمار

تعود كل الحمير المدجنة في العالم اليوم إلى فصيلتين اثنتين من الحمير البرية التي كانت تسرح في القرن الإفريقي وبلاد النوبة. ولذا كان من الطبيعي أن يكون فراعنة النوبة أول من روَّض هذا الحمار في وقت غير محدد بدقة خلال الألف الرابع قبل الميلاد، بدليل أن مقبرة أمحوتب التي تعود إلى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد تتضمن رسوماً جدارية تظهر حميراً مستخدمة لنقل البضائع والركوب أيضاً...

وقرابة العام 1800 قبل الميلاد، خرج الحمار من وادي النيل عبر أسواق دمشق التي كانت مركزاً تجارياً مهماً، إلى كافة أصقاع العالم القديم، وبسرعة كبيرة قياساً إلى الفترة الطويلة التي بقي فيها في بلاد النوبة. إذ إن قانون حمورابي الذي وُضع في العراق بعد ذلك بثلاثمائة عام، تضمَّن بنداً يقضي بإعدام من يسرق حماراً. فبسبب قدرات هذا الحيوان على السير فوق الطرق الوعرة، انتشر في الجبال، وبسبب قدرته على تحمل العطش والحر، انتشر في كل الواحات الصحراوية من شمال إفريقيا إلى الصين.

احتل الحمار مكاناً (لا مكانة) لم يحتله أي حيوان آخر في الحضارات الزراعية. استخدم في النقل بأوسع معاني الكلمة: نقل البضائع والأشخاص، وجرِّ العربات، ونقل الحركة في الطواحين.. وصولاً إلى الإمدادات العسكرية لجيش الإسكندر المقدوني في حربه مع ملك الفرس داريوس، ليدخل بذلك معترك الحياة العسكرية أيضاً التي لن تنتهي إلا في القرن العشرين.

وحتى أيام الإمبراطورية الرومانية، كان هناك حمار من فصيلة مختلفة غير إفريقية الأصل، وهو الحمار الأحمر الذي كان يستوطن آسيا الوسطى (ونرجِّح استطراداً أن اسم الحمار بالعربية يعود إلى اللون الأحمر-البني الذي كان يميِّز هذا الحيوان بالذات). ولكن الحمار الأحمر كان صعب المراس جداً، وترويضه غير مضمون النتائج دوماً.. ولذا، بمجرد وصول الحمار الإفريقي إلى روما، تخلوا تماماً عن الحمار الأحمر لصالحه، إذا افترضنا أنه كانت للحمار الإفريقي «مصلحة» في هذا التبني.. أما الحمار الأحمر فهو اليوم مثله مثل معظم الحمير البرية.. مهدد بالانقراض.

وخلال نحو ألفي عام، لم يطرأ أي تغيير على عالم الحمار، سوى انتشاره في المزيد من أصقاع الدنيا، ولم تطرأ غير تعديلات طفيفة على دوره التقليدي في الحياة الزراعية.

فالحمير التي نقلها معه كريستوف كولومبوس إلى أمريكا (أربعة ذكور وأنثيان)، تزاوجت مع الخيول لتلد البغال التي استخدمها الغزاة الإسبان في استكشاف القارة الجديدة. وبعد استقلال أمريكا استورد الرئيس جورج واشنطن أول دفعة من الحمير إلى أمريكا. ولكن الحمار لم يحتل مكانته الفعلية في الحياة الأمريكية إلا خلال القرن التاسع عشر، عندما فضله المنقبون عن الذهب على الحصان والبغل، لقدرته على حمل المعدات في الأراضي الوعرة، وطواعيته التي تُغني عن اقتياده بحبل، إذ إنه يتبع سيده من تلقاء نفسه. ولكن إنشاء السكك الحديد في النصف الثاني من القرن نفسه، دفع بأصحاب الحمير إلى إطلاقها في البراري والصحاري، حيث لا يزال حفدتها يتناسلون حتى اليوم.





وداعته لا تفسّر القسوة التي يُعامل بها



بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، وفي ما يشبه صحوة الضمير، تكاثرت جمعيات الرفق بالحمار..

وعلى الرغم من أن الدور الأول المُناط بالحمار لا يزال هو نفسه كما كان قبل خمسة آلاف سنة، والمعاملة التي يلقاها كذلك.. شهد القرن العشرون ما يمكننا أن نعده الاضطراب الأكبر في تاريخ الحمار.

والواقع أن بوادر هذا الاضطراب ظهرت قبل نحو قرنين أو أكثر، كما أشرنا سابقاً، عندما أكد العلم أن الحمار ليس حصاناً منحطاً، وعندما أجرى علماء الحيوان دراسات مقارنة أظهرت أن لهذا الحيوان الأليف ميزات تفوق ما هو مرسوم في الأذهان حوله. ولكن قبل أن تثمر هذه النظرة العلمية الجديدة إلى الحمار أي شيء، جاءت النهضة الصناعية لتعزِّز إنكاره وإشاحة النظر عنه، ولتضرب حتى وجوده في الصميم. ففي فرنسا مثلاً انخفض عدد الحمير من نحو 800,000 رأس إلى 13,000 رأس خلال قرن ونصف قرن. وخاصة مع مكننة الزراعة بعد العام 1945م، التي أوصلت قطيع الحمير إلى شفير الانهيار التام. الأمر نفسه ينطبق على كل المجتمعات الصناعية في أوروبا الغربية وأمريكا، من دون أن يعني ذلك انهياراً عالمياً، طالما أن معظم دول العالم لا تزال في طور النمو، وتعتمد على الزراعة بوسائلها التقليدية للعيش والبقاء.

أما التحول الكبير في كل تاريخ الحمار، فقد أطل برأسه بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، عندما أدى انتشار مشاعر الرفق بالحيوان إلى ظهور جمعيات خاصة بالحمار تُعنى به وتدعو إلى تلطيف نظرة الإنسان إليه. وفيما يشبه صحوة الضمير، تكاثرت هذه الجمعيات بسرعة مذهلة، ففي فرنسا تجاوز عددها العشرين، إضافة إلى إنشاء متحف خاص هو «متحف الحمار» في «ساسي لوغران»، كذلك تأسست جمعيات ومنظمات للشأن نفسه في كل من ألمانيا وأستراليا والولايات المتحدة وكندا والدنمارك وبريطانيا ونيوزيلنده وهولندا وإيطاليا وإيرلندا واليونان وسويسرا.. وفي حالات كثيرة، خرج الحمار عن وظيفته التقليدية في هذه الدول الصناعية والغنية، وتحوَّل إلى حيوان ترفيه للأطفال، وحيوان منزلي تقتصر أحياناً مهامه على الحراسة، أو حتى تزيين الحديقة.

وحيثما لا يزال الحمار يؤدي وظيفته التقليدية في الدول المتقدمة، فإن شروط عمله تحسنت نسبياً. ففي جزيرة هيدرا اليونانية، على سبيل المثال، التي يسكنها الأثرياء، فإن الحمار هو وسيلة النقل الوحيدة الموجودة في الجزيرة، ولا يوجد من المركبات الآلية غير سيارة واحدة لجمع النفايات.

وهكذا، بعدما كان يمكننا أن نقرأ حتى في العام 1908م تسويفاً «علمياً» للقسوة تجاه الحمار، مثل ذلك الذي جاء على لسان عالِم الحيوان البروفسور إميل تياري والقائل: «مع البغل والحمار يجب أن تضرب بقوة، لأنهما لا يمتلكان حساسية الحصان، ولا يشعران إلا عندما تسبب لهما ألماً..» وهو ما يتماشى مع المفاهيم الشائعة عند أكثر الفلاحين تخلفاً قبل عشرين قرناً.. تبدلت الأحوال ولو قليلاً، ولو في بعض الأماكن فقط.



الحمار اليوم.. التقرير المخجل

يقول تقرير أصدرته منظمة الزراعة والأغذية الدولية (الفاو) إن عدد الحمير في العالم يناهز اليوم 44 مليون رأس (يتضمن هذا الرقم البغال أيضاً)، وتحتل الصين رأس قائمة الدول في امتلاك الحمير بنحو 11 مليون رأس، تليها الحبشة، والمكسيك، ومن ثم منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

ويضيف التقرير أن 95٪ من حمير العالم لا تزال تُستخدم في المهام نفسها التي أنيطت بها منذ نحو 6000 سنة، أي النقل وجر العربات، وتوليد البغال، في حين أن 5٪ فقط خصصت لمهام جديدة، مرافقة الخيول، وحراسة الماشية، أو الترفيه عن الأطفال وما شابه.

ويتوقع التقرير أن يستمر عدد الحمير في الارتفاع لأسباب عديدة، منها انتشار مشاعر الرفق بالحيوان في البلدان التي فقدت الحاجة إليها، وازدياد السكان في الأرياف في العالم الثالث، وارتفاع أسعار البدائل الميكانيكية بالنسبة إلى هؤلاء.

وفي حين أن الحمار يعيش نظرياً (وعملياً) في البلدان الغربية ما بين 35 و40 سنة، يقول تقرير الفاو إن معدل عمر الحمار في منطقة الشرق الأوسط لا يتجاوز سبع سنوات. أما التفسير المخجل لهذا العمر القصير الذي يورده التقرير، فهو: سوء التغذية وسوء المعاملة.

حمار وعربة أم مسألة أخلاق؟

صور الحمار في الأدب الحماقة لتعليم الحكمة

لو أجزنا لأنفسنا اختصار الحديث عن حضور الحمار في الأدب العالمي بكلمات قليلة -علماً بأن هذا الاختصار يهدر الكثير من الزخارف بالغة الأهمية- لقلنا إن آداب شعوب العالم استخدمت الحمار مادة لإلقاء موعظة أخلاقية أو فلسفية على الإنسان، أو تلقينه حكمة معينة. وعلى مدى عشرين قرناً تعددت أشكال ظهور الحمار في الأدب، فحضر في عشرات الأعمال التي خرجت من بيئتها المحلية إلى العالمية، لتصبح جزءاً مهماً من التراث الثقافي للإنسانية.

وبشكل عام، يمكن القول إن حضور الحمار في الأدب جاء في ثلاثة أشكال مختلفة:

أولاً: موضوع التحول، حيث يتحول إنسان ما إلى حمار، فيصبح مراقباً صامتاً لسلوك البشر، ويتحدث عن معاناته على أيديهم.. وفي هذه الحالة يكون الأديب نفسه هو المتقمص لشخصية الحمار.

ثانياً: الحمار المؤنسن، أي القادر على النطق ومخاطبة الحيوانات، وحتى التفكير ومخاطبة الفلاسفة.

ثالثاً: الحمار الواقعي، رفيق الإنسان في حياته اليومية.



الحمار الذهبي

إن أقدم رواية في التاريخ وصلت إلينا كاملة هي رواية «الحمار الذهبي» التي كتبها لوكيوس أبوليوس في القرن الثاني الميلادي (سبق للقافلة أن تناولتها في قسمها الأدبي في العدد 3 من المجلد 55 - مايو/يونيو 2006م).

تحكي هذه الرواية المستمدة من أصل يوناني، قصة رجل يتحول بفعل السحر إلى حمار، صاغها المؤلف بصيغة المتحدث وكأنها مذكرات. وإذا كان المؤرخون قد أولوا هذه الرواية أهمية كبيرة لجانبها التاريخي والفلسفي، فإن حيزاً كبيراً من قيمتها الأدبية يتمثل في قدرة الكاتب على تقمص شخصية الحمار وتصوير حياته وما يعانيه على أيدي البشر الذين تعاقبوا على امتلاكه ما بين واحد اشتراه، ولصوص سرقوه.. فكتب في هذا الإطار صفحات مؤثرة عن الظلم والقسوة (راجع الإطار: مشاعر حمار).

لم يكن حضور الحمار في قلب أقدم رواية وصلت إلينا محض صدفة. فرواية لوكيوس أبوليوس هذه قريبة جداً من رواية أخرى كتبها لوقيانوس السميساطي (القرن الثاني بعد الميلاد) وعنوانها «لوكيوس والحمار»، ومن المرجح جداً أن هاتين الروايتين تستوحيان قصة ظهرت قبل عصرهما ومؤلفها هو لوكيوس البتري، (من البتراء) حسبما يقول أحد علماء القرن التاسع الميلادي ويُدعى فوتيوس، بعدما اطلع على هذا الأصل الذي لم يصل إلينا.

وعند ماكيافيلي وشكسبير

وفي القرن الخامس عشر الميلادي بدأ ماكيافيلي بإعادة كتابة رواية أبوليوس نفسها (عام 1475م) ولكنه لم يكملها. وفي نسخة ماكيافيلي غير المكتملة هذه نرى أن البطل الذي تحول إلى حمار يلتقي بصديق له وقد تحول إلى خنزير يرفض العودة إلى هيئته الآدمية السابقة، لأنه يأخذ على الإنسان طموحاته وقسوته وميله إلى حياة الترف.. فيقول: «إن الخنزير لا يعذِّب خنزيراً، وحده الإنسان يقتل إنساناً آخر ويعذبه وينهب خيراته. لماذا يكون الإنسان نمراً بالنسبة إلى إنسان آخر؟ إنه حر. لماذا يختار الإنسان عن طيبة خاطر أن يكون شريراً بدلاً من أن يكون طيباً؟».

والواقع أن موضوع التحول هذا راج على نطاق واسع في عالم الأدب. ففي «حلم ليلة صيف»، لوليم شكسبير، نرى أن شخصاً يُدعى بوتوم قد تحول رأسه إلى رأس حمار، وتبلغ العقدة ذروتها عندما يُحكم على الملكة تاتيانا أن تحب أول رجل تراه عندما تستيقظ من نومها.. وكان أن وقع نظرها على بوتوم.. فيسارع الملك أوبيرون إلى معالجة المشكلة، ويعود بوتوم إلى هيئته الآدمية. ولأن هذا الأخير كان يعمل أيضاً في التمثيل واعتاد تقمص شخصيات مختلفة، لم تترك كل هذه التحولات أي أثر في نفسه.. فالقضية كانت مجرد حلم.. وبخلاف حمار أبوليوس الذي يثير الكثير من التعاطف، فإن حمار شكسبير هذا يثير النفور بسبب قبح الشكل في رأس حمار على جسم إنسان.

منمنمات فارسية تزيّن كتاب كليلة ودمنة

حمار كليلة ودمنة..
أساس مدرسة أدبية

خـلال القرن الثامن الميلادي، ترجـم ابن المقفع إلى العربية كتاب «كليلة ودمنـة» لمؤلفه الهنـدي بيدبا (من القـرن الرابع قبل الميـلاد) ويتضمن هـذا الكتاب، كما هـو معلوم، مجموعة حكايـات أبطالها مـن الحيوانات البريـة والداجنة الذين يتفاعلون فيما بينهم وكأنهم مـن البشر، وتهدف كل حكايـة إلـى إلقاء موعظـة أو استخلاص حكمة معينـة، ولذا سميت كل حكاية «مثلاً».



وفـي مَثَلِ «الأسـد وابـن آوى والحمار»، يظهر هـذا الأخير بصفتيـن: المظلوم والأحمق. فهـو مظلوم لأنه يقول عندما يسألـه ابـن آوى عن سبب هزالـه: «لسوء تدبيـر صاحبي، فإنـه لا يزال يجيـع بطني ويثقل ظهري، ومـا تجتمع هاتان الحالتـان على جسم إلا أنحلتاه وسقمتاه..». وهو أحمق لأنه تعرض للخديعة نفسها مرتين على يد ابن آوى، فبعدما نجا في المرة الأولى، قتله الأسد في المرة الثانية.

مـا يهمنا هنا هـو أن بيدبا أسس لمدرسـة أدبية، كان لابن المقفـع الفضـل في نقلهـا عبر العربيـة إلـى أوروبا، حيث ازدهـرت وعاشت قروناً طويلة، فنُسج عدد لا يحصـى من الأعمال الأدبية على المنوال نفسه.

في العـام 1180م، كتب نايجلوس ويركر في كانتربـوري «مذكرات مجنون» حيث نرى أن حماراً يدعى برونيلوس يهرب من مزرعة سيده ليحصل لنفسه علـى «ذيـل بجمـال أذنيه»، فيُطعـم ذيله للـكلاب، ومن ثم يلتحـق بجامعة السوربـون عشـر سنوات حيث لم يتعلـم أكثر من القول «هـي! هان».. وبعد سلسلة مغامرات يعود برونيلوس هذا إلى قبضة صاحبه الذي يقطع له أذنيه الجميلتيـن.. والعبرة التي يلقيها المؤلف فـي حكايته هذه هي، استناداً إلى قناعة الحمار في النهاية، «إن من يُخلق حماراً، يجب أن يبقى كذلك..».

وفي القـرن السابع عشر، ظهـرت «الفلسفة» نفسها عنـد الكاتب المسرحي الفرنسـي موليير، الذي عندما تعرض لغضب الجماهير فـي مدينة ليموج التجـأ مـع فرقتـه المسرحية عند سيـد مقاطعة تدعى أمبـازاك، حيث لقي معاملـة مذلة علـى يد هذا الإقطاعـي الذي أبلـغ الأديب عزمه علـى إنشاء «أكاديمية» جديدة. ولاحقاً انتقم موليير من هذا الإقطاعي بأن أرسل له اثني عشـر «أكاديمياً» من الحمير.. وكتب فوراً (عـام 1669م) مسرحيته «مسيو دي بورسونياك» وبطلها رجل برجوازي وتافه يطمح إلى لعب دور ثقافي.. أما مقاطعـة أمبازاك فأسسـت «أكاديمية الحمير» التي نظمـت مهرجاناً سنوياً يجمع محبي الطرائف والضحك من كافة الأرجاء القريبة منها.

الأحمق والحكيم والجبان

غير أن ذروة الأدب الـذي أنسن الحمار لإلقاء المواعظ والحكم، كانت في أعمـال الشاعر الفرنسي جان دي لا فونتين الذي كتب ثلاث مجموعات من الحكايات الشعرية (في الأعوام 1668 و1678 و1694م) عرف كيف يسخِّر فيها الحيوانـات لتوجيه أقسى أنواع النقد لأحوال المجتمع الفرنسي وقيمه وعاداته آنذاك.

ويذكـر لافونتيـن مصادره: حكايـات إيزوب (القرن السابـع قبل الميلاد) وفيـدر (القـرن الأول) وبيدبا الهندي. ويظهر الحمار فـي أعمال لافونتين فـي أشكال عديدة. فهـو ضحية عاجزة فـي «سارقو الحمـار»، وحكيم في «العجـوز والحمار» حيث يقول «عدونا هو سيدنـا!»، ومعتد بنفسه بغباء في «الحمـار حامل الذخائـر»، وجبان فـي «الأسد العجوز» حيـث لا يتردد في رفـس أسد محتضر.. وأحياناً يجمـع لافونتين في الحمار جملة صفات مثل الجبن والحماقة والحكمة كما هو الحال في حكاية «الحمار حامل الإسفنج والحمار حامل الملح»، حيث ينجو الحمار من الغرق بسبب حماقته!

أمـا الحمـار عنـد جـورج أورويـل الذي كتـب فـي العـام 1945م «مزرعة الحيوانـات»، فإنـه لا يضحك أبـداً «لأن ما من سبب يدعـو إلى ذلك». فهو لا يفهـم لماذا نصَّب الإنسان نفسه سيـداً على كل الحيوانات، في حين أنه الوحيد الذي يستهلك من دون أن ينتج لا بيضاً ولا حليباً.. وفي هذه المزرعة ينشـئ الحيوانات «جمعية مساواة»، ولكن الخنازير الذين أمسكوا بالسلطة علـى الجمعية أعلنـوا «أن بعض الحيوانـات متساوية أكثر مـن غيرها».. وحـده الحمار في هذا العمـل المتخيل يُظهر شيئاً مـن الإحساس بالشفقة والعاطفـة، عندما يقف ليطرد بذيله الذباب الـذي راح يحوم على صديقه الحصان مالابار خلال احتضاره، وبعدما تخلى عنه الجميع.

حمار جحا واقعي.. أما الحكاية..؟

أمـا الشـكل الثالث الـذي ظهر الحمـار به فـي الأدب، فهو شـكل الحيوان الواقعي، رفيق الفلاح ومطية الفقير.. فإلى جانب دون كيشوت على حصانه هنـاك خادمه سانشو بانزا على حماره.. ولكن هذا الحمار الذي هو مجرد أداة نقـل ومطيـة، وعاجز كما هـو في الواقع عن الـكلام والتعبير، لم يكن دومـاً بطـل قصة واقعيـة، بل أقرب إلـى أن يكون ممثلاً مساعـداً في عمل سينمائي. وأشهر الحمير في هذا المجال هو حمار جحا..

فـي نوادر الشيـخ نصر الدين جحـا الرومـي، يشغل الحمـار دور البطولة الثانيـة من دون منازع إلى جانب البطل الأول جحا. وحمار جحا واقعي، أي انه مجرد حيوان أليف يرافق صاحبه ويشاطره مغامراته كما في أي مجتمع زراعـي أو قروي. ولكن هذا الحيوان الذي لا يتكلـم ولا يكاد يشعر حتى أنه ينزل إلى مستوى «الشيء»، يستخدم ببراعة لإظهار حماقة الإنسان وطباعه المختلفة. ولعل أشهر حكايات جحا مع الحمار هي التي تحمل العنوان: «من يسلم من لسان الخلق لله دُرُّه». (راجع نصها كاملاً في الإطار في الصفحة 96).

يشـار إلى أن هناك شكوكاً في أن تكون هذه الحكاية أصلاً من نوادر جحا. إذ انها تحظى بشهرة عالمية، وكتبت أكثر من مرة في أكثر من مكان. وكان من الذين كتبوها في القرن السابع عشر لافونتين نفسه.





حمار جحا واقعي، أي انه مجرد حيوان أليف يرافق صاحبه ويشاطره مغامراته كما في أي مجتمع زراعي أو قروي. ولكن هذا الحيوان الذي لا يتكلم ولا يكاد يشعر حتى أنه ينزل إلى مستوى «الشيء»، يستخدم ببراعة لإظهار حماقة الإنسان وطباعه المختلفة.

مَن يسلم مِن لسان الخلق لله درّهُ

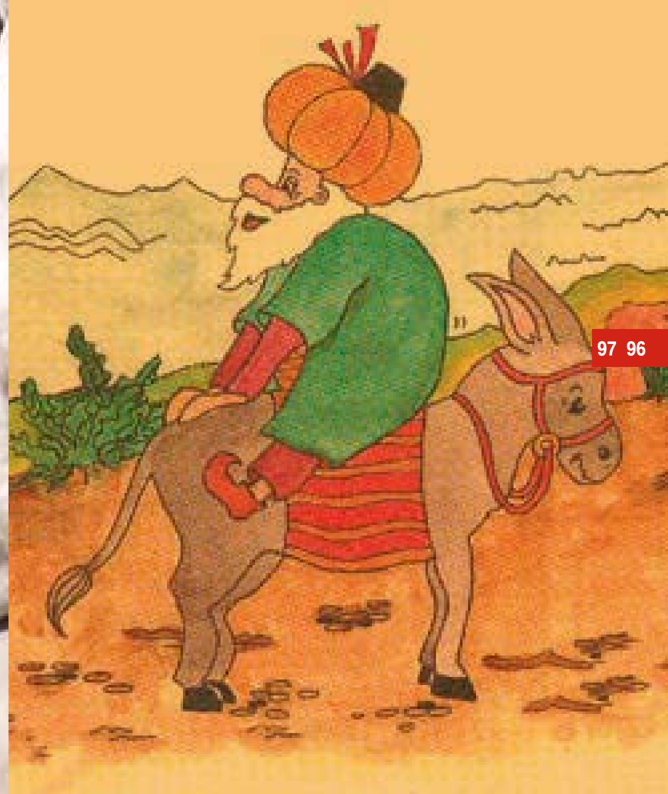
ذهب جحا وابنه، يوماً إلى إحدى القرى وأركب ابنه على الحمار، فصادفه أحدهم فقال: أفٍ من هذا الزمان، انظروا كيف يركب هذا الغلام براحةٍ ويترك والده الشيخ الفاني يمشي على قدميه.

فقال الولد: يا أبي ألم أقل لك اركب أنت فلا تعاندني. فركب الشيخ، ونزل الغلام، فصادفهما جماعة فقالوا: أيليق بهذا الشيخ الذي قويَ جسمه وعرك السنين أن يدع هذا الغلام الغضَّ يمشي وهو يركب؟

فأخذ الشيخ ابنه من يده وأركبه وراءه، وما سار قليلاً حتى صادفهما آخرون، فقالوا: تأملوا يا ناس في إنصاف هذا الرجل كيف يركب ويُردِفُ ابنه على هذا الحمار الضعيف.

فغضب الشيخ ونزل هو وابنه وساقا الحمار يرمحُ أمامهما وهما يمشيان بذلك الحر المحرق، فصادفهما جماعة فقالوا: اللّه اللّه من هذين يتركان الحمار يرمحُ، وهما يمشيان في هذا الحر الغبار.

فقال الشيخ: يا هؤلاء مَن يسلم مِن ألسنة الخَلقِ فلله درُّهُ.



حمير الحكيم

وفـي ختام هـذا الفصل، لا بد من التوقف أمام الظهـور المميز للحمار في أعمال واحد من أعمدة الأدب العربي في القرن العشرين، ونقصد به توفيق الحكيم. كتـب الحكيم كتابين، احتل الحمار مكانه علـى عنوانيهما. وثاني هذين الكتابين (نترك الأول موقتاً) هو «حماري قال لي».

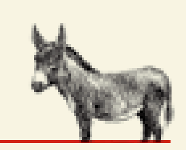
فـي هذا الكتـاب هناك حمار مؤنسن يتحدث مـع الحكيم ويحاوره حول كل شيء بـدءاً بأحـداث الساعة وشخصياتهـا مثل هتلـر وموسولوني ومؤتمر الصلـح وصولاً إلى جملة قضايا اجتماعية مثل حقوق المرأة وحزب النساء ومـا شابه (وقد طُبـع هذا الكتاب عام 1945م، أي فـي عام انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة).. والواقع أن المؤلف لم يضف شيئـاً جديداً إلى المنهج الأدبـي في هذا الكتـاب، فالحمار النـاطـق ذو السلوك الآدمـي، هو مجرد ذريعة أو أداة تسمح للمؤلف أن يدلي بما في جعبته تجاه مسائل العصر.

ما يهمنا في هذا الكتاب جاء في مقدمته، حيث يروي الحكيم تاريخ علاقته بالحمير وتعاطفـه معها، والدور الذي لعبته في حياته.. ونقتطف منها هذه الفقرات اللافتة والجميلة.

يقـول الحكيم: «الحمـار له في حياتي شـأن.. لقد عرفته منـذ صغري في صـورة جحش جميـل اشتراه لي أهلـي بثلاثين قرشاً، وجعلـوه لنزهتي في الريـف وكانت لـه برذعة صغيرة حمـراء لا أنساها.. وكنّـا خير رفيقين لا نفتـرق إلا للنوم. فقد كان في مثـل سني، أي في طور الطفولة من فصيلته، كما كنت أنا في طور الطفولة في جنسي...».

وبعد أن يتحدث عن تركه هذا الحمار لمصيره، بسبب انهماكه في الدراسة، يـروي قصة الحمار الثاني، فيقول: «ثم بلغـتُ مرحلة الشباب، وفرغت من الدرس، واشتغلـت بتأليـف الروايـات التمثيليـة. فلم يفتنـي أن أجعل من الحمـار شخصية في رواية لي؛ فظهر على المسـرح، ولم أره للأسف. فقد كنـت قد غادرت مصـر، وذهبت إلى أوروبا. فجاءتنـي الأخبار بأن الحمار أدَّى واجبـه علـى أكمـل وجـه، وقام بـدوره في الروايـة على نحـو يستحق الإعجـاب.. ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهـور المشاهدين نظرة عميقة، ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشبة المسرح.. وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظـارة والمتفرجين. وقد بلغني أن ضُـرب عندئذ وطُرد وأهين، ولو كنت أنـا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكيـن. وأغلب ظني أنه أدرك بغريزته أن الجمهـور لم يفهم الرواية، فناب عني في إظهار احتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية».

وبعـد ذلك يتحدث الحكيم عن الحمار الثالث فيقـول: «بعد عشرين عاماً، رأيت الجحش مرة أخرى في شوارع القاهرة، واشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرة أخرى.. ولكن هيهات.. لقد كان هو في طفولته وأنا في كهولتي.. فلم يكن بيننا غير صمت طويل انتهى بموته». وحول هذا الحمار كتب توفيق الحكيـم كتابه الأول «حمار الحكيم»، الذي يـروي فيه بأسلوب واقعي قصة الرابطـة العاطفية التي جمعته إلى هذا الحمـار، والحياة التي عاشها هذا الأخير بين القاهرة والريف.



«الحمار له في حياتي شأن.. لقد عرفته منذ صغري في صورة جحش جميلٍ اشتراه لي أهلي بثلاثين قرشاً، وجعلوه لنزهتي في الريف..»

أما في حديثه عن الحمار الرابع، الذي التقاه الحكيم ذات مرة أثناء زيارة قصيـرة للريف فـي أحد الأعيـاد، فيصوِّر أديبنـا القسوة التـي يُعامَل بها الحمـار في أريافنا، والتي أبقت ذكرى هذا الحمار ماثلة في ذهنه رغم أنه لم يلتق به إلا يوماً واحداً.

فعندمـا كان فـي طريقـه بصحبة بعض الفلاحيـن إلى جـدول ليصطاد السمـك، وأحس بالتعب، شاء الفلاحون أن يساعدوه.. «ولم يجدوا لي حيلة غيـر وضعي على صهوة حمار من حمير التـراب كان يعمل في حقل قريب. لـم أرَ والله فـي حياتي أتعـس ولا أشقى من ذلك الحمـار. كان الدم يقطر مـن ظهره، لثقـل «الغبيط» وهزال جسمـه، وبروز عظمـه، ولا أحد يرحم. وكان يتضـور مـن الجوع ويمد بـوزه إلى كل عود أخضر يجـده في الطريق، فـلا يلقى غير اللكم ممـن يقودونه، ولا يظفر بغير اللطـم.. لقد كان ذلك الحمـار ملكاً لبعـض المستأجرين الفقراء من الفلاحيـن الذين لا يملكون للحميـر قوتـاً، ولا يدَّخرون ما عندهـم من «العليـق» إلا للجاموسة والبقرة التـي تدر اللبن. أما الحمار فهو فـي نظرهم لا يساوي أكله. وهو يُذكر عند المهمـة العنيفـة والعمل الشـاق، ولكنه يُنسى عنـد الأكلـة النظيفة؛ فعلى المسكين إذن أن يلتقط ما يصادف في طريقه من عشب مهمل أو ورق زرع متـروك، وليتهـم مع ذلك يدعونه يفعـل.. فهم يدفعونه فـي ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلاً لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عـن عمله المفروض. أما إذا حدثته نفسـه اللعينة، فمال برقبته على حقل للـذرة، وفقد رشده وخرج عن وعيه، وجر بأسنانه عوداً منها أو كوزاً دانياً، فهـي الطامة التي ما بعدها طامة.. فإن الصيـاح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعـة بالهراوات ينهالون بها علـى المسكين وهم يتصايحون: حوشوا الحمار نزل غيط الذرة..».

وبعـد أن يروي الحكيم أنـه أحسن إلى الحمار وعاملـه باللين، يقول: «ولم تمضِ أيام حتى سمعـت أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً، وسقط إعياءً وسط الحقـل، رازحاً تحت أثقال ما يحمل من تراب.. فألقى الفلاحون بجثته في المصـرف، ولـم يكلفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنـه، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذي قضى حياته التعسة كلها في حمله على ظهره».

ويختتـم مقدمة كتابه بالقول إن الحمار الذي يحدثـه في هذا الكتاب ليس واحـداً بالذات من بينهـا (هذه الحميـر الأربعة). «إنه جميعهـا، إنه كلها مجتمعة في واحد.. إنه أي حمار رأيته أو لم أره».

مشاعر حمار

على الرغم من أن رواية «الحمار الذهبي» تعود إلى القرن الثاني الميلادي، فإن أشكال المعاملة الظالمة التي يتعرض لها الحمار على أيدي البشر، وكما هي مصورة في هذه الرواية، تبدو مألوفة جداً عند أبناء جيلنا الحاضر ممن خبروا الحياة في المناطق الريفية والزراعية، حتى يمكن القول إن هذه المعاملة لم تتغير بتغير الأزمان ولا الأماكن، وشكل هذه المعاناة هو واحد وأبدي. يقول المؤلف لوكيوس أبوليوس على لسان الحمار في بعض الصفحات التي نقتطفها على سبيل المثال:

«..انتدبت لنقل الحطب من الجبل، وعيِّن رئيساً لي شابٌ شرير من جميع نواحيه، فلم يكفه أن يتعبني الجبل بعلوه ووعورته، ولم يكفه أن تجرح الحجارة المسننة حوافري، وإنما راح يضربني بهراوة دون انقطاع، حتى أن ألم ضرباته كان يخترق جسمي حتى النخاع. وبما أنه كان يلهب بضرباته جانبي الأيمن على الدوام، وينزلها في الموضع نفسه، فقد فتق جلدي وأحدث فيه ثقباً أو قرحة واسعة، ولم يكن يتوقف عن ضرب الجرح الذي كان يقطر دماً. وكان يُحمِّلني عندها حملاً من الحطب، يخيل للمرء أنه رزمة قد أُعدت ليحملها فيل لا ليحملها حمار. وما أن يفقد الحمل توازنه ويميل إلى جانب، حتى يلتقط الحجارة ليضربني بها، بدل أن ينزع من الحمل المنزلق بعض الأعواد ويريحني من ضغطه لأسترد أنفاسي أو يضعها فوق الجهة الأخرى لإحداث التوازن على الأقل..

ولم يرضه هذا الخطب الذي ألمّ بي، وجعلني أحمل ما تجاوز الحد من الحطب، وإنما حين وصلنا إلى مجرى مائي يسيل بمحاذاة الطريق في اتجاه الوادي، كان علينا أن نقطعه، جلس فوق ظهري ليحفظ نعليه من البلل. كان وزناً خفيفاً بالنسبة إلى ما كنت أحمله بطبيعة الحال! وإذا حدث مرة حقاً وعجزت، لأن الطين الموحل يجعل صفحة الماء لزجة، عن مسك الحمل وزلقت، كان في وسع الحمار في هذه الحالة أن يسرع إلى مساعدتي، فيجرني من اللجام أو من ذيلي لأقف، أو يخفف من حملي على الأقل إلى أن أنهض ثانية من كبوتي، فإنه لم يساعدني على ما أنا فيه من عناء، بل كان ينهال عليَّ بهراوة كبيرة ويضربني فوق رأسي، بل فوق أذني بصورة خاصة، إلى أن تنهضني هذه الضربات بدل أن ينهضني التخفيف عني!

لقد فكر الوغد في المكر بي على الوجه التالي أيضاً: كان يأخذ حزمة من الأشواك الحادة، التي تنطوي على السموم، ويربطها بخيط معقود، ويثبتها في ذيلي بوصفها آلة تعذيب معلقة. فإن أنا مشيت، تحركت وترنحت وجرحتني بإبرها القاتلة بشكل مرعب! وهكذا كان عليَّ أن أختار بين شرين: عندما أخب لأتجنب ضرباته الرهيبة، تتأرجح الأشواك وتخزني بشكل أشد. وعندما أتوقف قليلاً لأخفف من ألمي، ترغمني ضرباته على الجري. وكان يبدو أن هذا الوغد الحقير لا يفكر في شيء غير كيف يتم له القضاء عليَّ على هذا النحو أو ذاك. وقد أقسم على ذلك وهددني أكثر من مرة.

قبعة الحمار

يقول الباحثان يونغ دين وألكسندرا دايفيد-نيل في كتابهما حول «بلاد ما بين النهرين» إن أذني الحمار كانتا رمزاً للمعرفة والحكمة عند شعوب هذه المنطقة قديماً، وذلك أمرٌ بديهي في عصر كان تناقل المعرفة فيه يتم شفهياً. والأذنان الكبيرتان كانتا رمزاً للإصغاء الجيد.

وينطبق الأمر نفسه على شعوب التيبت ومونغوليا وفق ما يرويه غوبرناتيس في كتابه «أساطير في علم الحيوان». ولكن يبدو أن للشعوب الغربية وجهة نظر مختلفة في أذني الحمار.

تقول إحدى الأساطير الإغريقية أن ميداس أثار غضب أبولون ذات مرة، بسبب تفضيله للموسيقى التي يعزفها بان على موسيقى أبولون، فقام هذا الأخير بمعاقبته وتحويل أذنيه إلى أذني حمار. ويبدو أن هذه النظرة السلبية هي التي انتصرت في النهاية على النظرة الشرقية. وأصبحت أذنا الحمار رمزاً للغباء وعقاباً للأغبياء.

فحتى بدايات القرن العشرين، ظلَّت الكثير من المدارس الأوروبية، وفي إطار تربية لم يعد هناك من يجرؤ على الدفاع عنها، تحكم على التلميذ الذي يرتكب حماقة معينة، أو يرسب في دراسته، بارتداء قبعة من ورق كتب عليها «حمار».. لإثارة سخرية رفاقه منه.

الحمار في الفلسفة

حمار بوريدان

في العام 1977م، ترجم صنع الله إبراهيم رواية كان قد ألَّفها ونشرها الأديب الألماني المعروف غونتر دي برون قبل ذلك بنحو تسع سنوات، وعنوانها «حمار بوريدان». ولأن المترجم أو الناشر (دار ابن رشد) ارتأى أن القارئ العربي لن يفقه معنى «حمار بوريدان»، جاءت الترجمة العربية بعنوان «الحمار» فقط. وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن حمار بوريدان لمن لا يعلم.

شهد القرن الرابع عشر الميلادي خلافاً فلسفياً حول «سلامة الاختيار الحر عند الحيوان»، أي حول ما إذا كان الحيوان قادراً على المفاضلة ما بين أمرين بشكل سليم. ولحسم الجدال، قام جان بوريدان الذي كان يشغل منصب عميد جامعة السوربون بين العامين 1328 و 1340م بتجربة حضرها ممثلون من الاتجاهين الفلسفيين المختلفين.

قضت تجربة بوريدان منع الطعام والماء عن حمار مدة طويلة، ومن ثم الإتيان به إلى مسرح التجربة ووضعه بين دلوين، أحدهما مليء بالماء والآخر بالشعير. فلم يتردد الحمار لحظة، إذ توجه أولاً إلى الماء ليشرب، ومن ثم إلى الشعير ليأكل، كما يفترض المقتنعون بسلامة الاختيار الحر عند الحيوان. ولكن المعترضين على هذه النظرية رفضوا نتيجة التجربة، واعتبروها محض صدفة، وبقوا على موقفهم الذي انتصر له لاحقاً الملك لويس الحادي عشر، مهدداً الفريق الآخر بالمنع في بيان خاص بهذه القضية صدر في مدينة سانليس في الأول من مارس 1473م.

ما يهمنا من هذا أن الثقافة الشعبية لم تكترث للنقاش الفلسفي ولا لتجربة العميد بوريدان كما حصلت بالفعل، بل زعمت أن الحمار ظل حائراً بين شرب الماء وأكل الشعير حتى قضى جوعاً! وخرج «حمار بوريدان» بذلك من الفلسفة إلى الثقافة الشعبية رمزاً للتمزق الناجم من عدم القدرة على الاختيار.

تصنيف ديكارت غير الموفق

ولكن ما نراه اليوم على أنه ترف فكري، لم يكن كذلك في العصور الوسطى. إذ لم يكن العلماء والفلاسفة على استعداد لتقبل الفكرة القائلة بأن حيواناً وضيعاً وحقيراً مثل الحمار قادر على اتخاذ القرار السليم بشكل حر. فحتى الفيلسوف الفرنسي ديكارت لم يعترض على هذا المنحى، إذ أنكر في كتابه الشهير «خطاب المنهج» (1637م) على الحيوانات كل أشكال التفكير، وأنزلها إلى مستوى «الساعات الميكانيكية» على حد تعبيره. ولكن الحمار الذي يتعرض للتعذيب قد يرفس ويعض من يقترب منه، خشية تكرار التعذيب.. فهل رأى أحدنا ساعة ميكانيكية تعض يد الساعاتي إذا عاملها بخشونة؟

حمار فيكتور هوغو يواجه كنط

في القرن التاسع عشر، حضر الحمار على أقرب مسافة من الفلسفة، إذ أجلسه فيكتور هوغو، صاحب «البؤساء» و «أحدب نوتردام»، في مواجهة الفيلسوف عمانوئيل كنط.

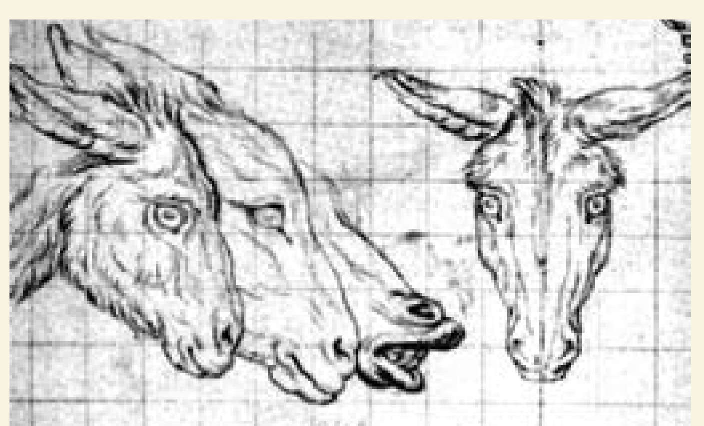


أمضى هوغو مدة طويلة من الزمن في كتابة قصيدته المسماة: «الحمار». وفي هذه القصيدة نستمع إلى حمار يدعى «باسيانس» (أي صبر بالفرنسية) يحاور على مدى خمس وستين صفحة الفيلسوف كنط، الذي كانت مكانته الفكرية في ذروتها آنذاك.

يرسم الحمار في هذه القصيدة، من خلال مرافعته العنيفة والانفعالية، صورة للإنسان الميؤوس منه. ولا يجد عذراً وجيهاً يسوِّغ تصرفات هذا الإنسان. فيقول إن العلم ينحني أمام السياسة. ويتحدث عن إحراق العالمين جيوردانو برونو وكامبانيلا بدلاً من الاستماع إلى استجوابهما، ويشير إلى غاليليو الذي تنكر ليقينه العلمي خوفاً من المصير نفسه. ويرى «صبر» أن الإنسان الصغير يتحول إلى وحش بعد بضع سنوات من التربية التي تغتال فيه براءته ولا تعلِّمه غير المكر والشر، ويعلن استعداده للتبرع بكل كتبه مقابل شيء من طيبة القلب، إذ انه يفضِّل الإنسان «الجاهل والغبي والأعمى على شرط أن يكون طيب القلب». ولا يجد الفيلسوف كنط أية حجة عقلانية يقارع بها مرافعة الحمار الانفعالية، فيعلن في نهاية القصيدة اقتناعه بصواب آراء الحمار، ويعبِّر عن قلقه من صورة الإنسان: «عالِمٌ ولكنه خبيث، جبانٌ أمام الكبار، ولكنه من دون رحمة أمام المساكين..».

وبعد عام على قصيدة «الحمار»، كتب هوغو «الضفدع»، حيث يروي أن حماراً كان يجر عربة عائداً بها إلى المزرعة بعد نهار شاق تعرَّض فيه للكثير من الضرب، فصادف في طريقه ضفدعاً كان بعض الأولاد القساة قد سمَّروه على الأرض، ويستعدون لقتله بدحرجة عجلة فوقه. ولكن الحمار يستجمع ما بقي لديه من قوة لتغيير مسار العجلة القاتلة، وإنقاذ شقيقه في البؤس من الموت. ويستخلص هوغو «أن هذا الحمار هو أنبل من سقراط وأعظم من أفلاطون».

الحمار في الفن
الحضور الكبير في الأعمال المجهولة


«دراسات» للرسام الفرنسي شارل لوبرون



انساق إنكار الحمار عند العامة على المثقفين في تطلعهم إلى الفن، ولكن لحسن الحظ، ليس على الفنانين، لا سيما الكبار منهم.

فحتى لو وضعنا جانباً اللوحات والرسوم التي يظهر فيها الحمار عَرَضاً، أو عنصراً ثانوياً في اللوحة، وأخذنا فقط الأعمال التي يشكِّل الحمار موضوعها، لوجدنا أن عددها أكبر من أن يُحصى، والمدهش في الأمر هو مستوى الفنانين الذين أولوا الحمار هذه المكانة.

فمن الصين إلى البلاد العربية ظهر الحمار في عشرات الرسوم التي تزيِّن كتب الحيوان، ولعل أشهرها رسوم التزيين في كتاب «كليلة ودمنة». وإن كان حمار كليلة ودمنة يظهر دوماً رمادياً، فإن الرسوم الإسلامية التي أُنجزت في آسيا الوسطى، لطالما أظهرت الحمار الأحمر الذي كان يستوطن تلك المنطقة.

أما في أوروبا، فإن معظم رسَّامي الصف الأول رسموا الحمار إما هدفاً في ذاته، أو في لوحة هو أحد أبطالها. فقد رسم الألماني البريخت دورر في العام 1495م سلسلة من الأعمال الحفرية عنوانها «صومعة المجانين» وملأها برسوم لحمير شاردة الذهن ومثيرة للسخرية كما هو حال الناس الذين هم من حولها.

وفي العام 1556م، رسم بيتر بروغيل «الحمار في المدرسة» في لوحة هي بدورها «موعظة»، حيث نرى الأولاد يلهون عن معلمهم، ووحده الحمار يتطلع إليه بانتباه.

وفي ذروة العصر الباروكي الإيطالي رسم بنديتو كاستيليوني (1670م) رسمة «الحمار الذهبي» المستوحاة من رواية أبوليوس. وفي الفترة نفسها تماماً انهمك شارل لوبرون، رسام سقف قاعة المرايا في قصر فرساي، بإنجاز رسوم دراسية مقارنة لكل من وجه الإنسان ووجه الحمار..

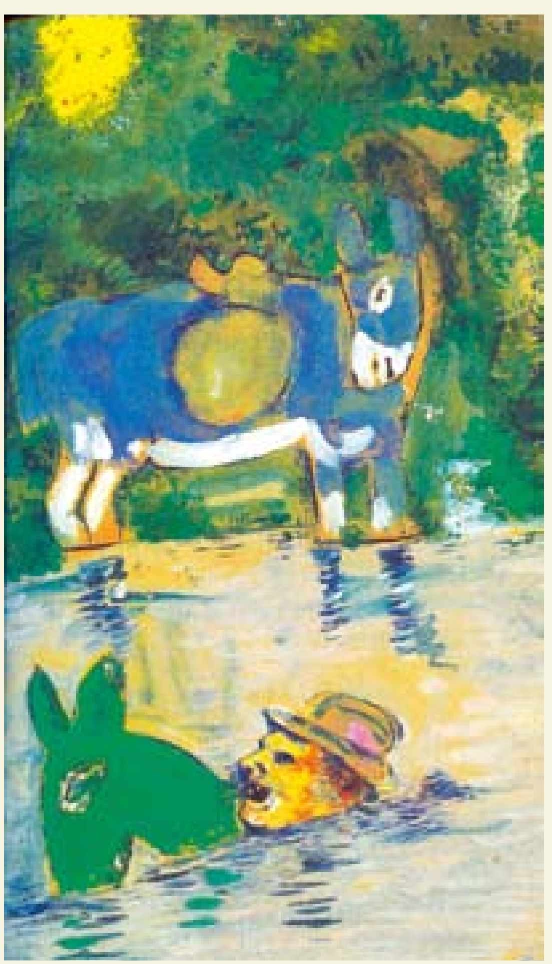
أما حكايات لافونتين التي أشرنا إليها، فقد ألهمت الرسام أودري في القرن الثامن عشر، وغرانفيل ورابيه في القرن التالي.


«الحمار في المدرسة»، للرسام الفلامنكي بيتر بروغيل

وكان الرسام الإسباني فرنشيسكو دي غويا رائداً في استخدام الحمار في الكاريكاتير السياسي، وطبعاً صورة للغباء والحماقة. فخصَّه باثني عشر رسماً من رسومه المعروفة باسم «نزوات». وهذا ما تبناه لاحقاً كل رسَّامي الكاريكاتير الأوروبيين خاصة في مرحلة الثورة الفرنسية وما بعدها.

وفي القرن التاسع عشر، بلغت مكانة الحمار ذروتها في فن اللوحة. أوجين دولاكروا يرسمه في لوحة مائية أشبه بالدراسة. ولكن هونوريه دوميه رسمه في واحدة من أشهر لوحاته على الإطلاق ألا وهي «دون كيشوت والبغلة الميتة» حيث نرى دون كيشوت على صهوة حصانه، وخادمه على حماره، وأمامهما جيفة بغلة نافقة.

وإلى ما تقدم نضيف غوستاف دوريه، غوستاف مورو، وبيكاسو.. كلهم رسموا الحمار في لوحات زيتية خاصة به. كذلك حال مارك شاغال الذي رسم قصة «الحمار حامل الأسفنج والحمار حامل الملح». من دون أن ننسى لوحة سلفادور دالي الشهيرة «الدم والعسل» التي نرى في إحدى زواياها حماراً متعفناً، يقول الرسام عنه إنه يشبه الوردة.. وهذه اللوحة هي للمناسبة، أول ما أنتجه دالي للمدرسة السوريالية.


شاغال: «الحمار حامل الملح والحمار حامل الأسفنج»


هونوريه دوميه: دون كيشوت وخادمه أمام بغلة ميتة

بورونالي: فضيحة «الحداثة»



كان الكاتب والناقد الفرنسي رولاند دورجوليس يشعر بسخط كبير على حماس أصدقائه الرسامين وبعض الشعراء من أمثال أبولينير، للفن التكعيبي عند بدايات ظهوره. وكان يقول: «من السهل لفت الأنظار. يكفي أن يسير المرء على كفيه ورأسه إلى الأسفل. ولو شئت لأصبحت غداً رساماً».

ولإثبات رأيه، وكان ذلك في العام 1910م، استعار رولاند حماراً من صديقه فريدي، وبحضور كاتب عدل، غمس عدداً من فراشي الرسم في ألوان زيتية مختلفة، وربطها إلى ذيل الحمار، بعدما وضع تحت الذيل لوحة بيضاء. وأثار الكاتب الحمار من خلال إطعامه الجزر ولفافات تبغ، ليدفعه إلى تحريك ذيله الذي كان يلطِّخ اللوحة بالألوان المختلفة.

سمى دورجوليس هذه اللوحة «وتغيب الشمس تحت بحر الأدرياتيك»! وفي اليوم التالي، نشر ناقد صحافي متواطئ معه مقالاً في جريدة «لوماتان» يمتدح فيه هذه اللوحة «ورسامها الإيطالي الشاب المغمور بوروناي الذي أسس مؤخراً مدرسة حديثة تدعى الطفحية»!!

قبِلَ «معرض المستقلين» الشهير اشتراك هذه اللوحة. وتدافع أمامها النقَّاد، وزحفت باريس الثقافية بأسرها لرؤيتها. وانهالت التعليقات الجدية: «مزاج لوني لا يزال مضطرباً.. أستاذية مبكرة.. شخصية طاغية..». وقبل إقفال المعرض، نشر دورجوليس، بتصديق من كاتب العدل، القصة الحقيقية للوحة، ليصفع بها كل مدَّعي الفهم من النقَّاد و«الذواقة» المتبجحين.

ولم ينتبه أحد من كل هؤلاء الذين حاولوا استقصاء حقيقة الفنان الإيطالي الشاب بوروناي إلى أن هذا الاسم مؤلف من نصفي اسم «أليبورون» بعد عكسهما. وأليبورون هو اسم معروف منذ القرن الخامس عشر لحمار في غاية الغباء. فالشاعر رابليه سمى أحد المحامين «أستاذ أليبورون»، ثم أعاد لافوتين أعاد استخدام هذا الاسم في القرن السابع عشر في حكاية «اللصوص والحمار».

العلم الذي أنصف الحمار

إذا لـم يكن الجاحـظ صاحب أول دراسة علمية عـن الحمار، فما من شك في أن كتابه «الحيوان»، يمثل أول وأوسع دراسة وصلت إلينا كاملة، وتناولت الحمــار بهذا الشــكل الشامل والمفصل -في حـدود المعرفة كما كانت في القــرن الثالث الهجري- إذ جمع الجاحـظ في أكثر من 65 موضعاً في هذا الكتاب كل ما كان معروفاً عن الحمار حتى آنذاك.

وبعـد الجاحظ، دخـل الحمار طي النسيان العلمي نحـو عشرة قرون، حتى ظهـور عالم الطبيعيات دي بوفون في القــرن الثامن عشر الميلادي، الذي أكد استقلال نوع الحمار عن الخيل، وانتماء الاثنين إلى أصل واحد مشترك. وهذا ما أكدته الأبحاث الجينية التي تطورت بشكل كبير في العقود الأخيرة من القرن العشرين. فمن المعروف منذ القدم عن الحمار أنه حيوان ثديي، يبلـغ ارتفاعه عند الكتف نحو 1.2 متر. وتختلف ألوان شعره ما بين الأبيض والرمــادي والأسود مع وجود بعض خطوط السمــرة على الظهر. إذ أنتجت عمليـات التهجين ســلالات مختلفة من الحمير في اللـون والطول والحجم وطول الشعر.

ويستطيــع الحمار الإنجــاب عندما يبلغ الأربــع سنوات، أمــا الأتان فثلاث سنــوات. ويراوح حمل الإناث ما بين 11 و 14 شهراً (حسب السلالة)، لتلد بعدها جحشاً يزن 14 كيلوغراماً، أي أربع مرات وزن الطفل البشري. ويقف الجحـش على قوائمه الأربع بعد ساعــة واحدة من ولادته. ويحفظ الجحش رائحــة أمه عند الــولادة، لا ينساها مدى عمره. وعلى الرغم من أنه يستمر في الاعتماد على حليب أمه للتغذية، فإنه في يومه الثالث يبدأ بقضم بعض الأعشاب الطرية.

ويمكــن للحمار أن يتزاوج مع أنثى الحصان (الفرس) لتنجب بغلاً. أما إذا تزاوجـت الأتــان مع الحصـان، فإنهــا تنجب نغلاً. ولما كانــت البغال تتمتع بمواصفات جسمانية أفضل من النغال، فإن إنتاجهم يتم بأعداد أكبر بكثير. وغالبـاً مــا تجمع البغال إلى الحمير عندما يدور الحديث عن الحمار بشكل عــام. ولا تستطيع البغال الإنجاب بسبب خلل في عدد كروموزوماتها. ولكن تــزاوج بغلة من حصان أو حمــار يمكن في بعض الحــالات النادرة أن يولد حصانــاً أو حماراً حسب نوع الأب. ولكن إلى هـذه المعلومات المعروفة منـذ القدَم، أضـاف علم سلالات الحيـوان (Ethnozoology)، الذي تلقَّــى دفعاً كبيراً خلال العقــود الأخيرة، الكثير من المعلومات الجديدة المتعلقة بجسم الحمار ونفسيته أيضاً.

فقد أكدت الدراسات أن الحمار يستطيع أن يحمل على ظهره بسهولة ما يتـراوح بيـن 20 و 30٪ من وزن جسمه. أما قدرتـه على الجر فهي أكثر من ذلك. كما يستطيع أن يتحمل خسارة الماء من جسمه حتى ما يعادل 30٪ من وزنه، وهذا ما يجعله ملائماً للعيش والعمل في المناطق الجافة والصحراوية. ويستطيع أن يشرب ماءً يعادل 20٪ من وزنه خلال خمس دقائق من دون أن يصــاب بالغرق الداخلي. وفي حال فقدانه حتى 10٪ مـن ماء جسمه، فإن الحمــار الجائع يأكل أولاً ومن ثـم يشرب. أما إذا تجاوزت خسارته للماء 17٪ من وزنه، فإنه يشرب أولاً ثم يأكل.

أما جهــازه الهضمي فيسمح لـه باستخلاص المــواد الغذائية من أفقر أنــواع النباتات، ولـذا فهو يستطيع أن يتدبر أمره فـي الطبيعة إذا حُرِم من الكيلوغرامين من الشعير اللذين يحتاج إليهما كل يوم.

وبالمقارنــة مـع الخيـل، يمكـن لنهيـق الحمــار أن يصـل إلــى مسافة كيلومتـرات عديدة، أي أبعد مـن صهيل الخيول. كمــا أن حاسة السمع عنده أقوى، يساعده في ذلك طول أذنيه وقابليتهما للحركة والاستدارة. كمــا أن جبهتــه الأعرض مـن جبهة الحصــان، تسمح له برؤيــة أوسع. فزاويــة الرؤية عنده بعينين تصل إلى 70 درجة، أما الرؤية بعين واحدة فتصـل إلى 145 درجة. ولـذا يستطيع أن يرفس بدقــة شخصاً يزعجه على بعد متر واحد إلى جانب مؤخرته.

أمــا من الناحيــة النفسية، فيمكن اختصار ما توصـل إليه العلم بالقول إن مالكـي الحميــر باتوا يتحدثون منذ ثلاثة عقــود أو أربعة عن «تربية» الحمــار، بــدلاً من «ترويضــه» أو «تدريبــه».. إذ ثبـت أن للحمار ذاكرة مدهشــة في قوتها. فهو يذكـر طوال عمره المعاملة الجيــدة أو السيئة. وقادر على أن يتجاوب مع كل ما يُطلب منه باللين.

وفــي حين يرى البعض أن افتقار ظهـره لليونة يجعله مطية أقل طواعية من الحصان، والأمر يعود إلى نقص فقرة واحدة في عموده الفقري عمَّا هو في الحصان، فإن الحمار حذر أكثر من الحصان في حال وقوعه في مــأزق، كانزلاقه في الوحول أو محاصرتــه بأشياء خطرة كالأشواك. إذ يجمـد الحمار في مكانه بانتظار المساعـدة، أما الحصان فقد يتخبط للتخلص من المشكلة، بطريقة تشكِّل خطراً عليه وعلى راكبه.

وعلــى الرغم مــن أن الحمار المستأنس يبدو بطيئــاً نسبياً في حركته، فـإن الحمير التـي أعيـد إطلاقها في البــراري، اكتسبـت بسرعة كل مستلزمات الحياة البريــة، ومهارات الركض بسرعة الحمير الوحشية والخيول.



الشجر في كوكب يسخن

..برداً وسلاماً

ازرع شجرة.. تزرع للبيئة نسمة



طاقة للعالم.. للوطن طاقات

www.saudiaramco.com

القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو - أغسطس 2007
المجلد 56 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

